الفصول

هي

مجموعة مقالات ادبية واجتماعية وخطرات وشذور

لكاتبها

عباس محمود العقاد

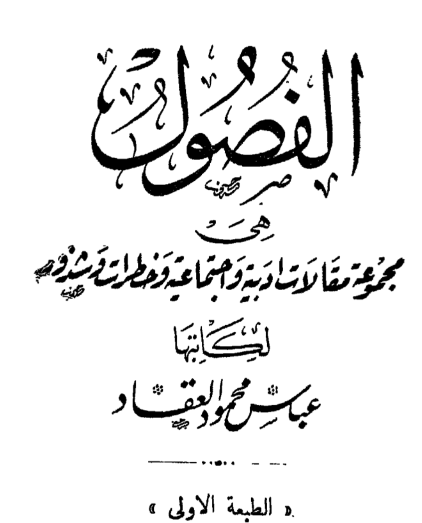
« الطبعة الاولى »

سنة ١٣٤١ هـ – ١٩٢٢ م

تطلب من المكتبة التجارية بشارع محمد على بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

طبع بمطبعة السعادة



« الطبعة الاولى »

سنة ١٣٤١ هـ — ١٩٢٢ م

تطلب من المكتبة التجارية بشارع محمد علي بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

طبع بمطبعة السعادة

مقدمة واهداء

فى سبيل الحق والجمال والقوة أحيا ، وفى سبيل الحق والجمال والقوة أكتب ، وعلى مذبح الحق والجمال والقوة أضع هذه الاوراق المخضلة بدم فكر ومهجة قلب ، قرباناً الى تلك الاقانيم العلويه ، وهدية من السحاب الى العباب

***

فى الدنيا الحق . ولوكان كل ما نشهد من الدنيا باطلا لوجب أن يكون وراء هذا الباطل المموه شيء صحيح لا تمويه فيه ، وهذا الشيء هو جوهر الحياة : نصيب كل امرىء من الحياة على قدر نصيبه منه ، وهو الحق ، فمن عرفه لا يسعه أن يعرض عنه ، ومن لم يعرفه فهو من هاوية الهلاك عنصره والى غير السماء قبلته . وكل مالم يقصد به وجه هذا الحق فهو من قشور الحياة المنبوذة لا من لبابها المدخر

***

وفى الدنيا الجمال . لا بل الجمال غاية الدنيا التى لا غاية بعدها ، قد نعرف لكل شيء نفعا يرمى اليه ولسنا نعرف للوجود نفسه نفعاً نبتغيه من ورائه ، ولا غاية نخلص اليها بعد مفارقته . كلا لا نفع ولا غاية وراء الوجود غير العدم ! ! وانما هو أمنية نتمناها لذاتها ، وحالة نتطلع منها ولكن الى صفة أخرى من صفاتها ، انما هو صورة تتملاها النفس لانها تهواها ، وليس بسلعة تطلبها لانها تفتقر اليها . والكون كله ما كنهه وما ميسمه ؟ ؟ أهو آية صانع مبتدع أم مسعاة كادح منتفع ؟ ؟ كذلك خير ما فى النفوس

ما كان جماليا كهذا الـكون ولم يكن نفعيا كعروضه ، لان النفع عرضي ينتهي بغايته ، وأما الجمال فأبدي لانهاية له

***

وفي الدنيا القوة ، لا بل هما شيء واحد . فما ضمنت الدنيا قط الاقوة ، وما عرفت الدنيا قط ضعفاً ، لان الضعف ما كان سبيلا الى فناء ، ولافناء على الحقيقة في هذا العالم الباقي . انما يشكو الضعف من يعرض له الفناء بصورة من الصور ، ومن تتغير به الحال من حين الى حين

***

قد تختصم القوة الصغيرة والحق الصغير ، وقد يختلف الجمال المحدود والحق المحدود . ولـكن القوة الـكبرى والحق الاكبر لا يختصمان ، والجمال الشامل والحق الخالد لايختلفان . على انه لاحق وراء هذه الحدود ينفرد عن قوة ولاجمال ، ولـكنها كلها عناوين شتى لقدرة واحدة : هي القدرة التي يبدأ منها كل شيء واليها يعود

فالى تلك القدرة أتوجه بقرباني ليكون لها نصيب من عملي ، وعسى أن يكون لعملي نصيب منها

عباس محمود العقاد

فهرست كتاب الفصول

صحيفة

﴿ تم الفهرس ﴾



نظرات في فلسفة المعرى (١)

مذهب النشوء

أن مذهب داروين حديث ولكن تنازع البقاء قديم شعر به الناس منذ وجدوا وصرح به حكماؤهم وشعراؤهم فى الامثال والاشعار كل على طريقته ومنواله . فمنهم من وصفه ولم يفطن اليه ومنهم من فطن اليه ولم يعممه ومنهم من شعر به شعور المتألم منه المنكر عليه . ولعل أشد شعراء الامم نقمة على تنازع البقاء وذكراً له فى نظمه ونثره أبو العلاء المعرى ، ولاعجب فى ذلك فان المعرى نزل الى معترك هذه الحياة العصيب عزلا من الاسلحة المنجحة فيه . نزل اليه يتيما فقيراً سوداوى المزاج مفرطاً فى الحس ، وكان أرفع خلقاً من أن يسف الى منافسة أمثاله الشعراء على ما يتكسبون به . وكان رحيما رحمة كادت تكون مرضاً ، وناهيك بمن يشفق على البرغوث أن يقتل وعلى النحل أن يشتار عسله . وليس بواحدة من هذه الخلال يحمد المرء غب تنازع البقاء أو يكون ممن يغفلون عن وطأته وينظرون اليه بعين الرضا والارتياح وهو ماهو عنفاً وقسوة وأثرة وخداعا وابتها كا فى معظم الاحيان لحرمات الاخلاق الفاضلة والمبادىء الرفيعة . فلذلك شعر به المعرى شعور المقاتل الاعزل بالهزيمة وأوحى

---

(١) نشرت هذه المقالة والتى بعدها فى عددى سبتمبر ونوفمبر من مقتطف سنة ١٩١٦

الالم والاشفاق الى وجدانه قبل تسعة قرون ما أوحاه الاطلاع والاستقصاء والتنقيب الى فكر داروين فى الزمن الاخير

ولو كانت اشارة المعرى الى تنازع البقاء كلمة بنت لحظة ابتعثها الالم فسطرها القلم لما كان فى هذه الاشارة مايجيز لنا أن نقرن اسمه بتنازع البقاء ولكان الاحرى بتلك الاشارة أن تردد فى معرض الاستشهاد كغيرها من الخواطر الشعرية . ولكن اشارات المعرى فى هذا المعنى كانت أشبه بالتدقيق العلمي منها باللمحة الشعرية وأقرب الى التأمل الدائم المتسلسل منها الى النظرة العارضة التى لا تبدأ فى الخلد حتى تنتهى وينطوى أثرها . فأنك لا تقلب صفحة من اللزوميات أو غيرها الاسمعت منها انة أو أنات يتغير موضوعها ومبناها ولا يختلف مضمونها ونحواها ، وكلها نعي وتبكيت للعالمين على ظلمهم وتنافرهم ومكر بعضهم ببعض . وكان الآلام المبرحة التى يعرفها المخذول فى كل حرب ويجهلها الظافر قد جسمت هذه الحالة له وغلظتها فأحاط بدقائقها البعيدة ولم تخف عليه خافية من وجوهها المختلفة بين أنواع المخلوقات ، فبدأ بالشكوى من التنازع بين الناس ولحظه على حقيقته ، وهو أقرب الاشياء الى اذهان الناس لوالتفتو اليه ، ولكنك على كثرة الشعراء لا تقرأه ممثلا فى شعر أحد كما هو ممثل فى شعر المعرى فمن قوله فى ذلك .

أما لكمو بنى الدنيا عقول تصد عن التنافس والتعادى
اذاة من صديق أو عدو فبؤسا للاصادق والاعادى

وأوضح منه فى هذا المعنى قوله —

تنازع فى الدنيا سواك وماله ولا لك شيء فى الحقيقة فيها
ولم تحظ فى ذاك النزاع بطائل فتفقوها مثل مختلفيها

وأوضح من قوليه هذين قوله : —

تناهبت العيش النفوس بقوة فان كنت تستطيع النهاب فناهب

وزاد على ذلك فبين ضرورة هذا الخلاف فقال :—

لولا التخالف لم تركض لغارتها خيل ولم تقن ارماح وأسياف

وأحسبه استطرد من النظر فى اطوار الانسان الى النظر فى اطوار المخلوقات كافة فأجمل الحكم عليها فى هذا البيت الجامع :—

ولا يرى حيوان لا يكون له فوق البسيطة أعداء وحساد

وفصل هذا القانون العام فى عدة مواضع من لزومياته فقال : —

يغادر غابه الضرغام كيما ينازع ظبى رمل فى كناس

سجايا كلها غدر وخبث توارثها أناس عن أناس

وقال : —

تدرى الحمامة حين تهتف بالضحى ان الاجادل لا تطيل جدالها

وقال وفيه الماع الى توارث الخوف بين الحيوانات : —

تتبع آثار الرياض حمامة ويعجبها فيما تزاوله النقر

تهم بنهض ثم تثنى برغبة فما شعرت حتى اتيح لها صقر

وهو لا يفرق بين الاقوياء والضعفاء فى هذا النزاع بل يشملهم به جميعاً كما جاء في قوله

ظلم الحمامة فى الدنيا وان حسبت فى الصالحات كظلم الصقر والبازى

ومن كلامه ما يصح أن يعد تلميحا الى غاية هذا النزاع وهى بقاء الاصلح وانتفاع الغالب برجحانه على المغلوب كما يؤخذ من قوله :—

ولو علمتم بداء الذئب من سغب اذن لسامحتم بالشاة للذيب

ومثله قوله : —

ولولا حاجة بالذئب تدعو لصيد الوحش ما اقتنص الغزالا

ومثله أيضاً : —

وسخط الظباء بما نالها تولد منه رضى الحابل

وأحيانا يتجاوز القول بتنازع البقاء وبقاء الاصلح الى تقرير هـذا الرأى الذى قرره النشوئيون حديثاً وهو أن لكل حى على الارض سلاحا خاصا يتقى به عدوه ويكدح به لنفسه . وليس أصرح فى هدا الرأى من هذا البيت :—

وما جعلت لاسود العريـ ـن اظافير الا ابتغاء الظفر

وأقل منه صراحة فى ذلك البيتان : —

اذا كف صل افعوان فماله سوى بيته يقتات ماعمر التربا
ولو ذهبت عينا هزبر مساور لما راغ ضأنا فى المراتع أوسربا

فاذا راجعت الابيات المتقدمة مع كثير من أمثالها التى اكتظت بها دواوين المعرى أمكنك ان تجزم بأن الرجـل سبق أسبق المتأخرين الى ادراك تنازع البقاء ومايلابسه من الافكار .أدركه متكررا جامعاً لا متفرقا طارئاً . فاذا قيل ان داروين واضع المذهب فى عالم العلم ساغ لنا أن تقول والمعرى واضعه فى عالم الادب والشعر

ويظهر أن فرط الشعور بتنازع البقاء لا ينفك عن فرط الشعور بالمحافظة على الذات. وهذا أمر طبيعى معقول . ولا يعرف قيمة الشيء كمن يعرف مقدار التزاحم عليه . ولذا كثر كلام المعرى فى حب الحياة والافتتان بالدنيا كما كثر كلامه فى التنافس والتباغض . فهو يردده فى قصائده ولا يبرىء منه نفسه ويتهم من يظهر خـلاف ذلك بالـكـذب والمراء كما قال فى لزومياته : —

شقينا بدنيانا على طول ودها فدونك مارسها حياتك واشقها
ولا تظهرن الزهد فيها فكلنا شهيد بان القلب يضمر عشقها

وكما قال أيضاً

ومن العجائب أن كلا راغب في أم دفر وهو من عيابها

الى كثير غير ذلك . وهو لايكتفى هنا أيضا بالحكم على الانسان فحسب بل يشمل بحكمه الاحياء جميعا فيقول :—

أرى حيوان الارض يرهب حتفه ويفزعه رعد ويطمعه برق

ويقول كذلك :—

تسريح كفك برغوثا ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا

كلاهما يتوقى والحياة له حبيبة ويروم العيش مهتاجا

وتعميم المعرى الحكم على الانسان والحيوان معا كلما نسب الى الانسان خلقاً من الاخلاق طريقة ذهنية عجيبة لا نستطيع تأويلها الا اذا قلنا بأن الرجل كان يعتقد أن الانسان والحيوان من عنصر واحد وانه كان فى صميم نفسه نشوئيا بالغريزة وان لم يعلم بذلك فكره علما يصح الاستدلال به

فى التشاؤم

على أن هذا الارتباط بين الشعور بتنازع البقاء والشعور بحب البقاء يفسر لنا سر فلسفة المغالين فى التشاؤم المبالغين فى النقمة على الوجود، فليسوا هم بأشد الناس كرها للحياة كما قد يتبادر الى الذهن للوهلة الاولى ولكنهم أشد الناس حباً لها وضنابها . وهم لا يسبون الحياة سب المحتقر المزدرى بل سب الرجل المرأة التى يتوله بها ويعبدها ثم لايحظى بطائل منها ولايجد عندها صدى غرامه بها

وقد انتهى النظر فى هذا المعترك الضروس بالمعرى كما انتهى بعده بامام المتشائمين ارثر شوبنهور الى نهاية واحدة فكلاهما يقول لك ما خلاصته :— مادامت الدنيا كفاحا لا راحة فيها ومادام الغالب اليوم

يغلب غــداً والموت يهلك الغالب والمغلوب عــلى السواء فالحياة وقرفادح والعيش عبث والعدم أفضل من الوجود ». الى آخر ما اتفق عليه مزاجهما من ايثار العزلة والاستئناس بالحيوان والقول بارادة الحياة مع التنفير منها واحتقار النساء وتحريم الزواج . ومن هنا يظهر خطأ الاثنين بل خطأ المتشائمين جميعاً فى التعقيب على تنازع البقاء . اذ لاشك أنه لو وقعت هذه الخواطر لاناس ذوى مزاج مختلف عن مزاجهم لما استخلصوا منها هذه النتيجة ولرأوا أن الاولى بهم أن يقولوا : ما دامت الدنيا غلابا فكن أنت الغالب وما دام الموت قضاء لا مفر منه فلا يهمك أمره وليهمك ان تنال من الحياة أقصى ما ينال فلان يدركك الموت سيدا خير من أن يدركك مسودا » وليس العجيب أن يتفاوت حكم الناس فى المسألة الواحدة من النقيض الى النقيض ولكن العجيب أن نعـلم بما للدنيا من ألوان لا عداد لها وبما للناس من حالات وميول لا يحصرها الفكر ثم نطالبهم بالاتفاق على الكبائر والصغائر أو نقدح مثلا فى فلسفة المتشائمين لانهم يرون الحياة من جانبها المظلم ونحن لا نراها الا من الجانب الابيض المنير. ومن الخطأ أن يرفض النقاد فلسـفة التشاؤم جملة لبعد أصحابها عن حياة الاعمال الدنيوية ولا يذكروا أن هذه الدنيا غاصة بالنقائص وان هناك جبلات اسرع الى استكناه هذه النقائص من سواها وانها ليست بطبيعة الحال جبلات أهل الاعمال لان هؤلاء مصروفون بأعمـالهم عن مشاهدة ما يقع حولهم — ومن أين للمقاتل المنهمك فى المعركة أن يحيط بما يجرى فى غضونها ؟

وانما قلنا اتفق مزاج المعرى وشوبنهور ولم نقل اتفق عقلهما لاننا نعتقد ان المتشائمين كلهم من مزاج واحـد وأن هـذا هو علة اتفاقهم فى

الاقيسة التى يذهب فيها الناس مذاهب شتى وادراكهم المسائل على وتيرة واحدة وان كانت مما تتشعب فيه الافكار . فقد اتفق المعرى وشوبنهور على كل رأى اشتركا فى الالمام به ولو لم يكن من أصول فلسفة التشاؤم ، واليك مثلا ادراكهما للزمان فان المعرى يتصوره كانه نفس طائر فى أثر نفس وكأنه أجزاء متفرقة يجمعها كل واحد فيراقبه مراقبة من لا يسهو عنه ويتبع كل نفس يمر بحسرة المشيع الآسف ومن هذا النحو قوله :—

نفس بعد مثله يتقضى فتمر الدهور والاحيان

وقوله

لهفى على ليلة ويوم تألفت منهما الشهور

وقوله

أما المكان فثابت لا ينطوى لكن زمانك ذاهب لا يثبت

ويلحق به قوله

قدم الزمان وعمره ان قسته فلديه أعمار النسور قصار

وكذلك يقول شوبنهور مع الفرق بين الاسلوبين الشعرى والفلسفى: « الزمن هو ذلك الذى يفتأ يجعل الاشياء لاشىء فى ايدينا فتفقد بذلك قيمتها » ويقول « نحن نسلب يوماً كل مغرب شمس » ويقول : « ان وجودنا مستقر على الحاضر الذى ما ينى ابدا متسربا طائرا فلا بد له ، أى لوجودنا ، من أن يتلبس بالحركة الدائمة الدائبة بلا أمل فى الوصول الى الراحة التى ننشدها . مثلنا فى فى ذلك مثل المنحدر من جبل عال فهو يسقط اذا حاول الوقوف »

ولا يشعر بالزمن هذا الشعور الا الذى يحصى كل لحظة تمر به سآمة والما كانه السائر المتعب يلتفت بعد كل خطوة يخطوها الى المسافة التى

خلفها وراءه والمسافة التى لا تزال امامه . ولا تخطر فكرة استقرار الوجود على الزمن الا لمن يرى أن الحياة ان هى الا زمن يمر لا تكوين يستتم قواه وجزء من الطبيعة يأخذ منها وتأخذ منه . ولسنا نقول ان الزمن ثابت والمتشائمون يخطئون اذ يتصورونه غير ذلك وانما نقول أن تصورهم هـذا خاص بمزاجهم . فكم من الناس حتى الفلاسفة والمفكرين والعلماء لا يشعرون بالوقت منعزلا عن الحياة لانهم يقيسون الحياة بحركاتهم التى هم مستغرقون فيها لا بحركات الافلاك والسيارات . وكم من الناس فى قرار وجدانهم لا يتصورون للوقت وجوداً فضلا عن تصورهم أن الوجود مستقر عليه

والمعرى وشوبنهور سيان فى الرأفة بالحيوان واستطلاع أطواره وعاداته . ولقد رأينا كيف كان المعرى يستعرض أخلاق الانسان فى طبائع الحيوان فانظر رأى شوبنهور فى ذلك . يقول هذا الفليسوف « أى لذة تداخلنا عندما نرى حيوانا مطلقا يدبر شؤنه بنفسه غير معترض ولا مسوق. تراه اما يتلمس طعامه أو يتعهد صغاره أو يخالط الحيوانات من جنسه الى نحو ذلك .وان هذا لهو الذى ينبغى أن يكون وهو الذى لا يمكن أن يكون سواه . فان كان ذلك الحيوان طائرا متعت نفسى بالنظر اليه برهة من الزمن لا بل فليكن فأرا مائياً أو ضفدعا فذلك لا ينقص من سرورى بالنظر اليه . ويعظم سرورى به اذ كان قنفذاً أو عظاة أو أيلا أو غزالا . وماكان التأمل فى أحوال الحيوانات ليسرنا لولا أننا نأنس فيها حياتنا مصغرة بسيطة »

ولم يعد شوبنهور الصواب فى هذا التعليل .الا أننا لا نجد الناس كلهم يسرون بالتأمل فى أحوال الحيوانات كما يسر بذلك المتشائمون . ونظن هذا

السرور آتياً من فرط احساسهم بالحياة فلذلك يعطفون على كل حي ويبحثون عن مظاهر الحياة في جميع طبقاتها . وسيطول بنا الشرح لو تمادينا في المقارنة بين المعري وشوبنهور على هذا النمط وما المقارنة بينهما الا بمثابة تحليل لمزاج واحد . ولكن لعل اعجب ما اتفقا عليه وفاؤهما لوالديهما وفاء لم نعهده في الفلاسفة الذين يغتبطون بالحياة ولا يشكون غصصها . فشوبنهور أهدى كتابه الدنيا كارادة وفكرة الى والده وأثنى عليه أطيب ثناء في كلمة الاهداء والمعري رثى أباه ابلغ رثاء وهو القائل

على الولد يجني والد ولو أنهم ملوك على أمصارهم خطباء

نظرات في فلسفة المعري

٢

زهد المعرى فى الدنيا واعتزل الناس لانه كما أسلفنا لم يكن له فى الدنيا حظ ولا بمعاشرة الناس طاقة . والعزلة مضادة لطبع الانسان بل لطبع كل حيوان أليف ، لان الحيوانات الاجتماعية تحن بالرغم منها الى رفاقها ولا تطيق الابتعاد عنها . حتى لقد تؤثر الوحدة فى بنيتها كما تؤثر فيها قلة العلف ومواصلة الاجهاد . ولقد روى شارل مرسييه صاحب كتاب العقل والجنون وراويته مشاهدة محققة « ان الجلابين العارفين بعادات الماشية والانعام يذكرون أن البقرة المعزولة لا تدر اللبن ولا تسمن ولا تصلح لشىء مما تصلح له البقرة وسط الصوار » فالاجتماع ضرورة جسميه فى الحيوان الاليف قبل أن يكون حاجة نفسية أو ميلا قلبياً . ولن يلجأ الى العزلة رجل متسق البنية متوازن القوى لان اتساق البنية يبتغى من صاحبه استكمال ضروراته التى من أولها كما قدمنا الاجتماع والتآلف . وانما يرغب فى العزلة الشاذون عن استواء الخلق اماليتنسكوا ويتبتلوا أو ليقطعوا الطريق ويخرجوا على نظام الاجتماع شاهرى الحرب عليه وعلى أوضاعه . ويغلب فى أهل النسك والتبتل أن يكونوا من ذوى المزاج السوداوى الذين ينقبضون عن عشرة الناس وينقبض الناس عن عشرتهم ، لتباينهم عنهم فى المشارب والاطوار ولان أهل النظر وأهل العمل قلما يتفقون فى الآراء والافكار ولا شك عندنا فى كون المعرى

من أصحاب المزاج السوداوى لان السوداء معروفة بأعراضها وهى الوجوم والحزن الملح المجهول السبب والاكثار من ذكر الموت وسوء الظن بالناس وبالنفس أحيانا فى ازمات النوبة التى تحرج الصدر وتغيم على العقل . أما الاعراض الاولى فقد طفح بها شعر المعرى ونثره فلانستطيع أن نستشهد لها ببيت من دواوينه دون بيت . وأما سوء الظن بالنفس فقد جهر به المعرى مرارا فقال :—

ان مازت الناس أخلاق يعاش بها فانهم عند سوء الطبع اسواء
أو كان كل بنى حواء يشبهنى فبئس ما ولدت فى الخلق حواء

وقال :—

رويدك لا تغترر يا أخى م بى فأنا الرجل الساقط
ولوكنت ملقى بظهر الطريق م لم يلتقط مثلى اللاقط

وقال :—

كلاب تعاوت أو تغاوت لجيفة واحسبنى أصبحت الأمها كلبا

وقد يبلغ به اتهام نفسه أحيانا أن ينكر عليها العلم والعقل ويرى أنه امرؤ لا نفع فيه لاحد اذ يقول :—

ماذا تريدون لامال تيسر لى فيستماح ولا علم فيقتبس
أنا الشقى بأنى لا أطيق لكم معونة وصروف الدهر تحتبس

ولو كان ما يعلمه المعرى من الفقه والفلسفة والادب واللغة والسير فى صدر رجل آخر مبرأ من نوب السوداء لملأ الارض بعلمه غرورا وتطاولا، لان غاية العلم عنـده أن يسأله الناس فيجيبهم وهم لا يسألون عن شىء لا جواب له عنده . ولكن المعرى القائل :—

اذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع فالخسر للعلماء

قضى الله فينا بالذى هو كائن　　فتم وضاعت حكمة الحكماء

يرى للعلم أحياناً وظيفة اجل من الاجابة عن الاسئلة ويرى أن اقصى العلم ينتهي بصاحبه الى باب المجهول الابدى الذى يرد كل طارق ولا يطرقه الا كل حائر ضللته الغاز الحياة وبهرته مصاعبها فترك الناس يحيون وذهب يبحث عن مغزى الحياة وأسبابها وغاياتها فما استطاع أن يجيب نفسه وعلم انه بالسكوت عن اجابة غيره أولى . وقد يمكننا ان نتصور حالة التلاميذ الذين كانوا يسمعون من المعرى هذا الاقرار بالجهل وهم لا يتمنون من العلم الا أن يبلغوا فيه مبلغه .. فلا بد انهم كانوا يرمونه بالبخل بالعلم ولا يصدقونه حتى كان يضيق بهم صدراً فيقول — :

أتسألون جهولا أن يفيدكم　　وتحلبون سفياً ضرعها يبس

مايعجب الناس الا قول مختدع　　كأن قوما اذاما شرفوا أبسوا

ولعمرى أن كلمة البخل بالعلم التى شاعت فى العصور العربية المتوسطة لتدل على جهل الناس يومئذ بالعلم الحقيقى ولباب المعرفة لان العلم الصميم هو الذخيرة الفذة التى لاقبل لحاملها بالبخل بها . كما انها تدل على نوع العلم الذى كانوا يطلبونه فى ذلك الزمن وعلى غرضهم منه . وأحسبهم لم يستنبطوا هذه الكلمة الا بعد أن اصبح العلم تجارة يحملها العلماء الى الامراء متوخين فيها مآربهم ومداركهم وأصبح للبخل بالعلم معنى بخل الصانع الحاذق بسر صنعته . ولعل هذا أيضاً مما حبب العزلة الى المعرى واضجره من قاصديه الذين كانوا يفدون اليه من اقاصى البلاد واولعه بذم العلماء والتشهير بالمشعوذين والسفسطائية والمجربزين من المنجمين الذين يشغلون فراغ العلم اذا خلا منه مكانه .

بيد أن السوداء لاتهدى الى العزلة دائما وقد تهدى الى نقيضها فيكون

السوداوى خليعا ماجنامستهترا بالشهوات مغلوبا على عقله بهواه ولكنه على كل حال شبيه المعتزل فى الشذوذ عن الخلقة العامة المعتدلة ، وكثيرا ما تتقارب العلل وتتباعد المظاهر فى تقدير الناس . فأين التصوف والجذب مثلا من التهافت على المرأة والجنون بغرامها ؟ ولكنهما فى نظر الطب متشابهان فى مصدرها ان لم نقل ان مصدرهما واحد عند بعض الاطباء . ومما يقوله مرسييه المتقدم ذكره بعد شرح طويل : « ان انكار الذات أساس يلتقى عنده الهوى الدينى بالهوى الجنسي ولا يزال كل منهما يشبه الآخر حتى بعد تكوينه ونضجه فهما متماثلان فى طبيعتهما الشاملة المتشعبة وهما يتماثلان قبل هذا التكون والنضج فى غموض الاوصاف والخصال . ولا تفاقهما فى الاصل وتقاربهما فى الطبيعة يسهل أن يتحول أحدهما من مجراه الى مجرى الآخر . ومن ثم نرى أن انكار الذات والمفاداة بالنفس اللذين يحتملهما العاشق عن طيب خاطر مرضاة لمعشوقه ظاهران فى عاشق الكنيسة بمثل تلك الغيرة أو بأشد منها وان كان ظهورهما من شكل آخر . فكأن الكنيسة حلت محل المعشوق فى هذه الحالة . وكذلك متى استعصى على العاطفة ان تنحصر فى فرد واحد اتسع نطاقها فأعربت عن نفسها فى اعمال البر وخدمة البشر . ولكن لا بد من دخول عنصر المفاداة بالنفس فى هذه الاعمال أو تظل العاطفة متطلعة غير مقتنعة ويظل الاعراب عنها ناقصا . وهذا هو السر فى ما نشاهده من أن اعمال البر القائمة على الهوى الدينى والتى تشتق مصدرها البعيد من الهوى الجنسى لا تزال تبدو بأساليب شتى كلها ينطوى على المفاداة بالنفس والايثار عليها »

وهذا قول بمنزلة البدائه عند أكثر الاطباء المشتغلين بطبائع العقل، فلا نخال سواد القراء يستبعدونه لان الوقائع الي تؤيده كثيرة ويندر

الا يرى أحدهم أناساً من الغالين فى الدين انقلبوا الى الغلو فى اللهو أو اناسا من الغالين فى اللهو انقلبوا الى الغلو فى الدين . يرون ذلك فيهم ولا يرونه فى المعتدلين القاسطين الا فى الفرط القليل . وهم يعجبون لذلك ولكنهم يقولون غلبت عليه الشقوة أو تاب عليه الله ، وبعد فليس أشهر من رمز المتصوفة والزهاد الى الجمال وكلفهم به اعجابا بصنع الله ومزجهم بذلك بين حب الله وحب الجمال الانسانى . ومن الناس من تتعاوره الحالتان للغى آونة وللتقوى آونة أخرى ، كابي نواس الذى نظم فى الوعظ مايزجر المارد ونظم فى الغواية ما يفسد العابد . وما كان فى احدى حالتيه مرائيا يعبر عما لا يشعر به ولكنه كان متقلبا لا يندم حتى يأثم ولا يأثم حتى يندم . وكابى العتاهية الذى قضى شطر عمره الاول منغمساً فى لذاته وصبواته ثم قضى شطرا من أيامه مبالغاً فى التنطس والتقشف ثم حضرته الوفاة فكانت آخر حاجة له فى الحياة أن يسمع غناء مخارق . ولقد كان أحرص الناس على عرض الدنيا وهو اكثرهم بباطلها عرفانا وأشدهم للموت ادكارا .

وينبغى لنا هنا ان نقول انه قد مضى الوقت الذى كانوا يقارنون فيه الاخلاق والعادات بأسمائها فى اللغة . فالهوى الدينى والهوى الجنسى متناقضان ايما تناقض فى عرفنا مع أنهما متصلان فى المنشأ كما قد رأينا . والسرف ضد الشح فى اللغة وان كان أحدهما اشبه بالآخر من القصد بالسرف مثلا أو من القصد بالشح . هذا وهم يقولون ان القصد هو الحد الوسط بينهما ، فكان ينبغى على هذا القول أن يكون اقرب الى الطرفين من احدهما الى الآخر ، ولكنه بخلاف ذلك بعيد جدا عن الخلتين المذمومتين . اما هما فمن القرب والمساواة بحيث يكاد أحدهما يحل محل الثانى ، ويظهر هذا التقارب اوضح ظهور بين العائلات الشاذة فى أخلاق

افرادها فان شذوذ هؤلاء الافراد لا يبرز لنا فى وجهة واحدة بل يجمع فنونا مختلفة من البدوات والاخلاق فيكون الرجل غاية فى التقتير واخوه غاية فى التبذير ، ويكون فيهم الزاهد المتحرج والجشع المتقمم . وقد يترهب أحدهم وله أخ او قريب قد خلع العذار وركب رأسه فى الفجور والفحشاء . وقد ذكر « نسبت » صاحب كتاب جنون العبقرية عائلات عدة من هذا القبيل ـ منها عائلة (ديجرين) التى قال عنها « ان الشره فى هذه العائلة عرض من اعراض الخبل العصبي يلوح الى جانب البخل والورع الشديد» .وكذلك الطمع ضد بذل المال ولا سيما البذل فى سبيل البر ولكنهما فى حكم الطب فرعان من شجرة واحدة او كما يقول نسبت أيضاً « ان الطمع وحب البر حالة جسمانية لا يزال ارتباطها بالاضطراب فى النخاع الشوكي باديا جليا » ولاستواء هذه الخلال المتعارضة فى الشذوذ تقترن احيانا بشذوذ العبقرية فيقل فى العبقريين الاعتدال ويكثر فيهم الطرفان اى التبذير والشح ، ولا حاجة بنا الى عد العبقريين المبذرين لانهم الفريق الغالب بينهم . اما الاشحاء فعندنا جماعة نذكر منهم جريرا وسهل بن هارون وابا العتاهية والبحترى ومروان بن ابى حفصة والمتنبىء وابا الفرج الاصبهانى . وهم من فحول شعرائنا وكتابنا . وممن ذكرهم نسبت عائلة اقترنت فيها العبقرية في القانون والشعر والموسيقى والادب بالحذق فى تدبير المال ، وهى عائلة نورث الشهيرة . فبعد ان المع الى علاقة الحرص بالعبقرية استطرد فقال « لقد كان فونسيير نورث خازن جيمس الثاني أحد اخوة خمسه لهم أخت واحدة وكان ابو هذه العائلة يقرض الشعر ويباشر المسائل المالية فورث عنه أبناؤه هذه الملكة الاخيرة وظهرت فيهم مظاهر شتى ، فمنهم هذا الخازن وكان أديباً مدبرا وقد وصفه ما كولى بالاثرة والجبن

وخسة النفس . . . » ومضي يسرد اسماء الاخوة ويصفهم بمالا يخرج عن مفاد هذه الاوصاف . وأراد بهذا وبما تقدمه أن يثبت ان للشذوذ أصلا واحدا وان تنافرت الوانه واختلفت فيه آراء الناس فمدحوا بعضا منه وذموا بعضا .

ونحن لم نعرض لهذه الآراء لنبخس آراء المعرى ونحط من قدر أخلاقه وخصاله او نسوى بين ما يمدحه الناس وما يشنأونه من الاخلاق الشاذة ؛ لان تقارب أسباب الشذوذ لا يمنع ان يحب الناس منه ما ينفعهم ويحسن عندهم ويكرهوا ما يضرهم ويقبح فى نظرهم . ولكنا رأينا فريقا من الكتاب يتامس المشابهات بين فئات الشعراء من كل طريق غير طريق المشابهة فى الامزجة . فبعضهم يقسم الشعراء حسب اختلاف العصور مع أن اختلاف سنى الولادة لا يستلزم فى معظم الاحيان الاختلاف فى المشرب الشعرى ؛ كما يلاحظ فى شعر عدى بن زيد المتوفى قبل مولد المعرى بنحو خمسة قرون ؛ فانا نجده اقرب اليه فى تحيبه على الشعوب الهالكه ونعيبه على الدنيا من الشريف الرضى ومهيار الديلمى وهما من شعراء عصره . وبعضهم يقسمهم حسب الاسلوب اللغوى وهو تقسيم لا بأس به اذا كان الغرض منه لغويا ولكنه لا يغنى فى نقد الشعر وتقدير الشاعر . وبعضهم يقسمهم حسب الموضوعات التى يتناولونها فى أشعارهم وكان الاحرى ان يعنوا بكيفية تناول تلك الموضوعات لا بمجرد تناولها . ومنهم من اذا بحث فى الاخلاق أغفل البواعث الباطنة وتمسك منها بعنواناتها المنكشفة. ومن هؤلاء من قارن بين المعرى وابى العتاهيه فابعد البون بينهما لان أبا العتاهيه كان يكنز المال وهو يذم الدنيا ويذكر الناس بالموت ولم يكن المعرى كذلك . ولعمرى ان كنز ابى العتاهيه للمال لادل على صحة خوفه

من الموت وابين لمزاجه السوداوى من القصد وتصديق القول بالعمل .
والعجيب أننا كنا نناقش بعض الادباء فى هذا الصدد فقال ان المعرى
نفسه كان يكره ان يقارن بأبي العتاهية واستشهد بقوله فيه :—

ابدى العتاهي نسكا وتاب عن ذكر عتبه
والخوف ألزم سفيا ن ان يغرق كتبه

كان رأى الشاعر فى نفسه حجة على الناس فى النظر اليه وكأن المعرى
كان يحسن الظن بنسك أحد غير ابي العتاهية وهو الذى شمل الاتقياء
جميعاً بقوله :—

قد حجب النور والضياء وانما ديننا رياء
يا عالم السوء ما علمنا ان مصليك أتقياء
لا يكذبن امرؤ جهول ما فيك لله أولياء

ولا نخالنا نغضب روح المعرى اذا قلنا انه لولا عماه وتربيته الاولى
وبيت العلم الذى نشأ فيه والكوارث التى نكبته فى صباه والقلاقل التى
فشت فى زمانه وشيء من ضعف البنية وما خلفه الجدرى فى جسمه
منذ طفولته لما كان بعيدا أن ينحو به المزاج السوداوى نحوا آخر غير
الزهد والعزلة .

كراهته للبشر

وقد يرتكب بعض نقاد الغرب مثل هذا الخطأ فى تقسيم الشعراء
الى فئتين . محبى البشر(Philanthropist) وكارهى البشر(Misanthrope)
لأنهم يعدون من كارهى البشر أولئك الشعراء الذين يسخطون على الناس
ويتبرمون بهم ويجتنبون مخالطتهم . وعلى هذا التقسيم يصح أن يعد المعرى

أكره الناس للناس لقوله على الأقل : —

هل يغسل الناس عن وجه الثرى مطر ... فما بقوا لم يبارح وجهه دنس
والأرض ليس بمرجو طهارتها ... الا اذا زال عن آفاقها الأنس

والحقيقة ان أكره الناس للناس وأضرهم بهم ليسوا بمعزل عنهم ولكنهم هم الذين يعيشون معهم حيث يصل اليهم أذاهم . واذا استعملنا المجاز قلنا انه لا يقهر الناس الا رجل يخوض معهم غمار هذا المعترك ويقاتلهم بسلاح أمضى من سلاحهم . أما المتبرم بهم المتنائى عنهم فكثيراً ما يكون رجلا قليل الشر قد طرح السلاح والتزم موقف الحيدة . ولنعلم أن الانسان لا ينفر من الناس لانه لم يستطع أن يكرههم وهو عائش بينهم بل لانه لم يجد فيهم من يحبونه كما يحبهم . ولكم كان المعرى يعدل عن سوء ظنه بالناس ويسترسل اليهم فيرده أذاهم الى سوء الظن بهم ويعجب لنفسه كيف ذهل عن رأيه فيهم وهو القائل فى ذلك : —

طهارة مثلى فى التباعد عنكم ... وقربكم يدنى همومى وأدناسى
وأعجب منى كيف أخطئ دائماً ... على أننى من أعرف الناس بالناس

وانه لقول رجل لا يتمالك نفسه أن يتبسط بالمودة لابناء جنسه ثم لا يلبث طويلا حتى ينقبض مكرهاً فيذوق لهذا الانقباض ألماً يجرى على لسانه سخطاً وتذمراً . وما هو بسخط ولا تذمر . وهل ترى فى قوله : —

اذا كان اكرامى صديقى واجباً ... فاكرام نفسى لا محالة أوجب

أو قوله : —

ان ترد أن تخص حراً من النا ... س بخير فخص نفسك قبله

الا قول رجل يرى أن الانانية خلاف الواجب ولكنها أمر تدعو اليه الضرورة ، والا مجاهدة منه لاقناع نفسه بخلق جديد لا ترتاح اليه ؟

وهل قال المعرى فى الحفيظة على الناس أكثر مما قال فى الحفيظة على نفسه أوهل تمنى هلاكهم أكثر مما تمنى هلاكه هو نفسه ؟ فهل يقال اذن أن المعرى كاره لنفسه بالمعنى المفهوم من كراهة الانسان للبشر ؟ ولقد أوصى الانس بالطير على حين كان يحذر بعضهم من بعض فقال :—

تصدق على الطير الغوادى بشربة   من الماء واعددها أحق من الانس
فما جنسها جان عليك أذية   بحال اذا ماخفت من ذلك الجنس

ومن هذا وأشباهه ترى أن الرحمة ثابتة فى طباعه ولكنه يتنقل بها من موضع الى موضع كما يتنقل المرء بالهدية المردودة

اشتراكيته

على أن للمعرى أبياتاً فى الرثاء لحال الفقراء كادت تسلكه فى عداد شعراء الاشتراكية كقوله :—

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته   فقير معرى أو أمير مدوج
وقد يرزق المجدود أقوات أمة   ويحرم قوتاً واحداً وهو أحوج

وقوله :—

كيف لايشرك المضيقين فى النعـ   ـمة قوم عليهم النعماء

وقوله .—

ان شقاً يلوح فى باطن البرة   قسم بينى وبين الضعيف

نعم ان الاشتراكية لا تعتمد فى حقوقها على الرحمة ولكنها لا تطلب من شعرائها أكثر مما قال المعرى .

الجبر وتحريم اللحم

وقد قصرنا الكلام الى الآن على درس مزاج المعري لاننا لا نعود

بفلسفة الرجل الا الى مرجع واحد وراء كل مرجع، وهو مزاجه وما أضافه اليه تأثير البيئة والحوادث فكل مايؤثر عنه من التقشف والتشاؤم والقول بتنازع البقاء والنهى عن الزواج انما هو نتيجة خلق متأصل فيه لم يزده الاطلاع والتحصيل غير صيغة العبارة واصطلاحات العلم . وما قلناه عن هـذه الآراء نقوله عن رأيه فى الجبر وتحريم اللحوم . أما الجبر فهو سبيل كل رجل يشعر فى نفسه بتضارب الاحساسات وتحكم الطبائع ويعلم بعد مكابدتها أنه لاحيلة له فيما يرضى أو فيما يأبى ، وأنه لا اختيار لعقله فيما ينوى وفيما يصنع ، وما كابد التضارب فى الاحساس والفكر أحد كما كابده المعرى فذاك هو الذى أمضه وأرهقه حتى انتهى به الى الجزم بأن الارادة مغلولة والاهواء مستبدة والعقول مسخرة فكان يقول :—

وقد غلب الاحياء من كل وجهة هواهم وان كانوا غطارفة غلبا

ويقول :—

والعقل زين ولكن فوقه قدر فما له فى ابتغاء الرزق تقدير

وعلى هذا فهو مبتكر فى مذهب الجبر لا مقلد . أما تحريم اللحوم فليس أعجب من القول بأنه اقتفى فيه مذهب الهند أوغيرهم من المتدينين به !! ولو أن المعرى كان كاهناً هندياً برهمياً متريضاً لماعجبنا للامر لانه انما يخضع لسلطان عقيدة دينية ويخشى عقاب قدرة الهية . أما وهو رجل قد شك فى الديانات وهزأ بشعائرها وفرائضها فمن العجيب حقاً ألا يكون له باعث على ترك اللحم أربعين سـنة الا الايمان بمذهب البراهمة . وعندنا أن المعرى كان لا يشتهى اللحم بطبعه وكان فقيراً مع رحمة مفرطة فيه . وكان به ميل الى تعذيب النفس كما هو شأن بعض أصحاب الامراض العصبية فى رأى ماكس نوردو وغيره من الاطباء ولم يفـده عرفانه بمذهب الهنود

البراهمة الا اخراج هذه الميول فى صبغة مذهب فلسفى . ولهذا بدأنا مقالنا ونختمه بالقول بأن مفتاح البحث فى فلسفة المعرى انما هو درس مزاجه ورد أفكاره وخواطره الى خواص هذا المزاج التى ساعدتها البيئة على الظهور .

خاتمة

وقبل أن نختم هذا البحث نستحسن أن ننبه الى بعض مآخذ لاحظناها على أحد أشياخنا الكاتبين عن المعرى بياناً للفرق بين النقد النظرى والنقد الاستقرائى . ونقول ان ذلك الكاتب ، مع عنايته بتتبع الآثار التاريخية وشرح أحوال العصر الذى عاش فيه المعرى ، لم يوفق الى انصاف المترجمين له ولم يقدر آراءهم قدرها .

فمن ذلك أنه أشار الى ما ارتآه جورجى زيدان من أن سبب سخط المعرى على الدنيا هو عسر الهضم فتعجل برفضه وقرر استحالته ، ولا برهان لديه ينقضه ، ولا ندرى نحن لماذا يستحيل عسر الهضم على رجل دائم الكآبة سوداوى المزاج مدمن لا كل البقول ملازم داره لا يبرحها . وأنه قارن بين أبى العلاء وأبى العتاهية فقال « مرجليوت اجتهد فى أنه يقارن بين أبى العلاء وأبى العتاهية فى هذا الشعر الفلسفى فزعم أن بين الرجلين تشابهاً وتابعه على ذلك سلمون . ولقد كنا نحب أن نجتهد فى بيان هذا الوهم الذى وقع فيه هذان العالمان لولا أن دائرة المعارف الاسلامية التى يكتبها المستشرقون سبقت الى هذا فجعلت قياس أبى العلاء الى أبى العتاهية ظلماً وحيفاً اذ كان أبو العتاهية يستقي من الدين ويتقيد به وكان أبو العلاء يستقى من الفلسفة ولا يتقيد بالدين وهذا الفرق ظاهر الاثر فى شعر الرجلين . وخصلة أخرى لم تلتفت اليها دائرة المعارف وهى ان أبا العتاهية على كثرة ما استعانه

بالدين في زهده الذي ملأ به ديوانه كان فاسقاً مستهتراً بالمجون بخلاف أبي العلاء الذي استملى الفلسفة واتهمه الناس بالزندقة والالحاد فانه لم يمل الى الهوى ولم يذهب مذهب المجون »

وترى الكاتب هنا يوافق دائرة المعارف ليخالف مرجليوث وسلمون ولكنه لم يشأ أن يوافق الدائرة كل الموافقة فذكر أنه التفت الى شيء لم تلتفت اليه وهو مجون أبي العتاهية . على أنه عاد بعد ذلك فاقتدى بالدائرة في مقارنتها بين المعرى وأبيقور وقال : —

« أبو العلاء يرى رأى أبيقور هذا كما تدل عليه اللزوميات في مواضع كثيرة نجتزىء منها بقوله : —

ولم أعرض عن اللذات الا لأن خيارها عني خنسنه

فليس من الغريب بعد ذلك أن يشير أبو العلاء بالاشتراكية في النساء الخ » فكيف اذن تكون مجاراة اللذات روح فلسفة المعرى الاخلاقية ولا يكون ثمة شبه بين شعره وشعر أبي العتاهية لان هذا ماجن مستهتر باللذات ؟ أما نحن فلا يسعنا الا أن نعجب برأى دائرة المعارف الاسلامية وأن نسوقه شاهداً على ما فصلناه قبل في تحليل أطوار المزاج السوداوى وما ينتاب أصحابه من الاطوار المتناقضة ولا نقول كما قال الكاتب ان المنطق لا يقبل المتناقضات فيلزم من ذلك أن يكون كل عقل منطقياً في كل حالة من حالاته وأن يكون الطبع جاريا على منهج العقل في أهوائه ورغباته . وهو خطأ ظاهر لا يقبله المنطق

وقد حرص هذا الكاتب على أن يوصف بالتدقيق في استقصائه ومع هذا لا يبالي أن يزعم أن المعرى «كان على مذهب الباحثين من علماء الافرنج في هذه الايام » أى أنه «يمنع أن يكون الناس مشتقين من سنخ واحد » ولا

نعلم نحن ان هذا مذهب الباحثين من علماء الافرنج وانما هو خاطر مرجح عند طائفة منهم ولا نحسب الكاتب كان يقبل أن ينسب الى المعرى رأيا كهذا لو أنه قاس درجة العلم فى عصره قياساً دقيقاً (أولا) لان القائلين بهذا الرأى من علماء اليوم لم يعمدوا اليه الا بعد انعامهم الطويل فى درس مسألة الانواع والاجناس درساً علمياً استقرائياً (وثانيا) لان كلام المعرى كله خلو من كلمة أخرى تسنده ، ولعله لم يرد بقوله :—

وما آدم فى مذهب العقل واحد ولكنه عند القياس أوادم

الا أن آدم هذا المذكور فى الكتب الدينية ليس بأقدم آباء البشر — يفسر هذا المعنى قوله فى بيت آخر

جائز أن يكون آدم هذا قبله آدم على اثر آدم

فليس الخلاف بين المعرى والمتدينة خلافاً على عدد أصول النوع البشرى ولكن على قدم أولها . وأين هذا من رأى تلك الطائفة من علماء اليوم ؟

ونكتفى بهذا القدر اذ كنا لا نقصد الى نقد الكتاب وانما مررنا منه بماله مساس بموضوعنا

السلوى (١)

نعمة من أنعم الله الكبرى . وترياق للنفس الحزينة مركب فى الطباع ترجع اليه فى بلواها كما يرجع الجمل الى سنامه يغتذى منه كلما طال عليه السغب ومسه الضر وأقفرت من حوله الديار . وخير الدواء ما كان من مكمن الداء منبته ومن مادة النفس عنصره ومن جرثومة الشكوى طبيعته . لا يعرف صدق ذلك أحد كما يعرفه أطباء الاجسام والارواح أو أشباه الاطباء ممن عالجوا فى أنفسهم ما يعالجه الاطباء فى أنفس الآخرين . قال ابن الرومى:

ان من ساءه الزمان بشىء   لجدير اذن بأن يتسلى

وما أظنه جديراً بالسلوى فحسب فانما هو مفتقر اليها ومرغم عليها وغير معروف بأى صارف عنها . والا فماذا تراه صانعاً ان لم تثب نفسه الى أمل فى السلوى أو الى سلوى فى الامل ؟ انه لن يصنع خيراً من هذين شيئاً .

ولقد تقارب الشبه بين الامل والسلوى حتى لقد حسبتها أخته أو حسبته توأمها على خلاف المألوف فى التوائم ، وان كان لا بد من نسب فأبوهما الفقدان وأمهما الرغبة . أخذت هى من خشوع أبيها أكثر مما أخذت من جمال أمها ، وأخذ هو من جمال أمه أكثر مما أخذ من خشوع أبيه ، وكما أن من الامل أملا صادقاً وآخر كاذباً كذلك السلوى منها الصحيح المقبول ومنها الزائف المغشوش . فأما السلوى الصحيحة فهى التى تغنى صاحبها عما فقده الى أن يجد سواه أو يجد ما هو خير منه . وأما السلوى الزائفة فهي التى لا يزال صاحبها فاقدا خاسراً ولا ينتقل بها

(١) نشرت فى العدد الثامن من صحيفة الرجاء

من خيبة الا الى خيبة أفدح منها فهو يتسلى عما ليس يملكه بما ليس يملكه. ليس فى دفتره حساب ، بل ليس له دفتر يصلح للمحو والاثبات بل هو نفسه مضاف على حساب الخسارة فى دفتر هذا الوجود

والسلوى كالامل دليل غنى النفس وغزارة مواردها ووفرة ذخيرتها واستكمال عدتها لملاقاة الخطوب ومنازلة الحوادث . فمن كانت ذخيرته من السلوى ناضبة كان كالتاجر الفقير الذى تعصف برأس ماله أول صدمة من صدمات السوق ثم يقعد بعدها خاوى الوفاض منقطع الاسباب . وليس كذلك التاجر العامر فانه لن يعدم من ماله أو من الثقة به حيلة يتلافى بها خسارته ويصلح شأنه ويترقب من ورائها الربح الجزيل ، بما يكون له منه سداد لدينه وعوض ينسيه مافاته

على أن الامل لا يؤذن له فى كل مكان تدخله السلوى . وقد يكل الامل عن غاية من الغايات فيقف دونها أو يحجب عنها وتبلغها السلوى فتنزل فيها بين الرضى والحفاوة ، وماذا يجدى الامل شيخاً فانياً فجع فى وحيد له أودعه من الدنيا كل أمله وغاية مطامعه ؟ أو ماذا يجدى الامل مكفوفاً ذهب عنه بصره الى حيث لا يرده عليه طب ولا مال ولا يرجو له معجزة تخرق نظام الحياة من أجله ؟ أو ماذا يجدى الامل ملكا خلع عن عرشه وأبعد عن ملكه الى حيث لا نجاة ولا رجعة لغير التراب ؟ عند السلوى لهؤلاء ومن شاكلهم زاد كثير وليس لهم شىء عند الامل . فليتبلغوا بزاد السلوى اذا ارتد عنهم الامل يائساً . وويل للنفس اذا يئست منها السلوى بعد يأس الامل منها ، فانها تكون قد نضبت واصفر نصيبها من الدنيا فلم يبق لها الا الموت أو الجنون . وطوبى للنفس السالية فان المصائب لن تأخذ منها كل ما يؤخذ من النفوس .

ومن الغرائب البينة فى خيال الناس أنه مهما توالى من تجربة الانسان لحوادث الايام وبالغة مابلغت خبرته بلواعج الحزن فانه لايبرح يستخف حمل المصائب البعيدة عنه ولا يتمثلها على حقيقتها ولا يشعر بالالم فى نفس غيره كما يشعر به فى نفسه . قال روشفكول : كلنا أولو قدرة كافية على حمل مصائب سوانا » . وكأني به يعيب على الناس هذا الخلق وما به من عيب ، ألسنا نحب أن تخف عن عاتقنا مصائبنا ؟؟ فما بالنا نطلب أن تثقل علينا مصائب غيرنا ؟؟

ولو فكرنا قليلا لرأينا الطامة الكبرى التى تحيق بالناس لو أنهم طبعوا على غير هذا الخلق . فاننا نرى كثيراً من الضعفاء والاقوياء يبهظهم أن ينهضوا بحصتهم من الاثقال ، ويشق عليهم مايمسهم من الشدائد والاهوال ، فكيف بهم لو ألقيت عليهم مع حصتهم حصص الخلق جميعاً ـ فأصبح كل ميت عزيز لسواهم كأنه ميت عزيز عليهم ، وكل أمنية يفقدها أحد كأنما هى أمنية ضائعة منهم ، وأصبح ما يشكى العالمين فردا فردا يشكيهم على السواء فى لذعة الحزن وحرارة الاسف ؟ اذن تقتل الهموم ذويها وغير ذويها ثم لا يجدون من يكشف عنهم غمتها ويسرى لوعتها

وليس بنا من حاجة الى أن ترهق الناس أعباؤنا كما ترهقنا ، وانما حاجتنا أن يشعروا بأعبائنا ويتلطفوا فى تهوين وقعها علينا . وهل تراهم يفعلون ذلك الا حين يجدونها خفيفة شائعة من حيث نجدها نحن جسيمة نادرة . أوحين يكونون أقل مناجزعاً لها ودهشة من طروقها ؟؟ ولعل أحب أصدقائنا الينا هو الذى يكون مع عطفه وخلوص نيته أقدر على تلطيف آلامنا ساعة نحمد له ذلك ، وان بدا منه فى تلك الساعة أنها لا تؤلمه كما تؤلمنا ولا هو يكبرها كما أكبرناها

أعرف صاحباً ظريفا كان اذا روح عن مهموم أو عاد مريضاً يمزح فيظهر العجب ممن يجزعون من الهم أو يشتكون المرض ويتأففون منه ويقول انى والله لأحسب المرض سميراً مسلياً ورفيقاً مؤنساً ، وكانما مع الانسان شخص آخر فى اهابه يناجيه ويتسمع له ويتحرى رضاه فيلطفه بالطعام المنتخب والشراب الموصى عليه وينفرد به فى ليله ونهاره . وكنا نقول له : وما رأيك فى مرارة العقار وحبسة الدار والاقصار عن الاوطار ؟ ؟ فكان يقول : وماذا فى هذا . أليس لكل صداقة قيود ؟؟

وألمت بصاحبنا هذا ضائقة فأفرط فى الاهتمام لها والاشتغال بها . وقطعته عن عاداته من الدعابة والتبسط فى الحديث . وأردنا العبث به فقلنا له : لشد ما احتفيت بصاحبك هذا الجديد فعساك تحمد عشرته ؟ ؟ فاستلقى ضاحكا وقال : قاتل الله الاصدقاء ! ! مابقى فى الدنيا صاحب موافق قط

وعندى أن المرء يغبط على هذا المزاج الذى لا يعيى صاحبه أن يتخذ من الهموم والسقام رفقاء وسمارا يحفظ عهدهم وان لم يحفظوا عهده ويأبى رفدهم وهم يطلبون رفده . وليس كلامنا هنا الا على الذين يحتاجون الى السلوى فأما الذين لحظتهم العناية وحالفتهم الجدود المقبلة فأصبحوا يتقلبون فى حياتهم من نصر الى نصر ومن نجاح الى نجاح لا يقفون لحساب خسارة ولا للتدبر بموعظة فأولئك يغنيهم الله عن صداقة الاوصاب والشجون ، ومشاورة الاحقاب والقرون ، وأولئك لا خوف عليهم ولاهم يحزنون

آراء في الاساطير (١)

المذهب التشخيصي اللغوى

الرأى التشخيصى هو اصوب الآراء فى تعليل منشأ الاساطير وأقربها الى الاقناع وأجمعها لأوجه التطبيق والتأويل . وفحوى هذا الرأى أن من ديدن الانسان أن يخلع شخصيته على الموجودات ويتمثل ذاته فى القوى والعناصر المجردة فيرى لها عامداً أو غير عامد شخصاً كشخصه ونية كنيته وحياة كحياته ، وان هذا الوهم الذى لا محيص للمرء عنه يظهر أشد الظهور فى الطفل والرجل الشرس السيىء الخلق فترى الطفل يضاحك الاشياء ويغاضبها ويحنق عليها والرجل الشرس يصيح بها ويسبها ويقتص منها كأنها تفهم ما يقول أو تقصد ما تعمل . وقد يظهر فى الرجل الرشيد اذا ملكه الحزن أو الغيظ فيخاطب مالا يعقل خطاب العقلاء . ومنذ زمن لاعهد لنا بمبدئه وصفت اللغات الاشياء بصفات الآدميين ونحلتها اعضاءهم وأفعالهم وحمدت منها أو ذمت ما يحمد أو يذم من الناس وقسمت ما ليست له ذكورة ولا انوثة الى ذكر وأنثى . ولولا غريزة التشخيص لما سميت بعض الأشياء باسماء المذكر وبعضها بأسماء المؤنث حسب مايتصوره فيها الانسان مما يقابل صفة الرجل عنده أوصفة المرأة — وقدأسهب فى تحليل هذه الغريزة الاستاذ الايطالى تيتوفينولى (٢) فى رسالته الموسومة (بالخرافة والعلم) ولخصها فى قوله : « لم يفتأ علماء الناس وجهلاؤهم

(١) من كتاب « ساعات بين الكتب » لم يطبع

(٢) Myth And Science by Tito Vignoli

يتكلمون عن الجمادات كأنها تعقل وتشعر وفى ذلك اشارة الى الاصل البعيد للمذهب القائل بتشخيص الانسان لجميع المواد الطبيعية كما فيه اشارة الى أن عقولنا لم تتخلص بعد من هذه العادة ، ولذلك تتردد الكلمات عفواً على ألسنتنا فى سياقها العتيق فنسمعنا نقول: جو طيب وجو ردىء ، وريح خرقاء أو هوجاء ، وبحر غدار وصخر عنيد اذا صعب علينا تحريكه . وقد نعنف الموانع والعراقيل كأنها تسمعنا . ونقول فصل متقلب أو خداع وأن الشمس كئيبة لا تشاء أن تضوىء واذا السماء تتوعد بالثلج وهذا نبات قد خنقه الحر وهذه تربة عصية وتلك تربة ليست بالمستوحشة أى انها تصلح للزرع . والارض تضحك خصبا واريناعا وتختال زهوا وامراعا ويقال نهر سوء وبركة تبتلع الناس وصعيد عطشان يترشف الماء وان النبات يخاف البرد — ويقول أهل بستوجا إن بعض أشجار الزيتون لا تتوجع للضرب ولا تخاف كيت وكيت أو أنها تعيش ولا تأبه لمر السنين . ويقولون أيضاً أن شجر الزيتون لا يهاب المناجل ويلتذ قطعها فيه اذا أعملتها يد ماهرة . وغير هذا ألوف من الامثلة يمكن ايرادها . فمن رام التوسع من قرائنا فعليه بكتاب جيلياني (اللغة التوسكانية الحية)

« ولا نقنع بأن ننحل الاشياء أفعالنا وشعورنا بل ننحلها كذلك هيئاتنا وجوارحنا فنقول رأس الجبل وكتفه وخلفه وقدمه وأضراسه واحشاؤه ونقول ذراع من البحر ولسان من الارض وثغر المرفأ أو الكهف أو البركان ووجه المنزل وقرن الهوة وعين السماء وشريان المنجم وان جبال الألب صلعاء أى جرداء والثرى أجعد وهذا شيء ميمون الطالع أو منحوسه وجبل عملاق أو قزم الخ الخ »

ومن هذه الغريزة تولدت الاساطير والحكايات التى يرويها القدماء عن

الكواكب والاشجار والبحار وما ينسبونه اليها من خلائق الانسان. كالغرام والولادة والانتقام ورغبات أخرى مما لا يحصل من غير بني آدم.

(مذهب سبنسر)

وللفيلسوف الانكليزي هربرت سبنسر رأى غير الرأى التشخيصي في منشأ الخرافات والأساطير. فعنده انها ترجع الى عبادة الموتى وتفسير ذلك أن الهمج كانوا يعبدون أرواح اسلافهم وآبائهم ويعزون اليها ما يصيبهم من الخير والضر ويعتقدون انها تتغذى مثلهم وتنكح وتشتهي من متع العيش ما يشتهي الاحياء فيتقربون اليها بما يرضيها ويدفنون النساء مع الهالكين ليلحقن بهم. وان قوماً من هؤلاء الاجداد كانوا يدعون باسم الشمس والقمر والعناصر الطبيعية ثم يموتون وينسى الناس تواريخهم وأشخاصهم فينسبون ماحفظوه عنهم من النوادر والاخبار الى مسمياتهم، يعني الشمس والقمر والعناصر الطبيعية، فيقولون الشمس أحبت والقمر صنع كذا وكذا. والحقيقة أن الرجل الذي كان اسمه القمر أو الشمس هو الفاعل الاول لتلك الافعال

وهذا رأى وجيه يسهل به تعليل كثير من الاساطير الهمجية ولكنه لا يعارض الرأى التشخيصي ولا ينفي أن الانسان قد جبل على أن يفترض للكائنات شخصا يرسمه في مخيلته على مثال شخصه ويجعل لها ارادة ورغبة مثل ارادته ورغبته، ويأنس بها ويحاذرها أحياناً. ومتى كان مجبولا على ذلك فلماذا يستغرب منه اختراع تلك الاساطير ثم الايمان بها ولا سيما اذا عرفنا أن الغريزة التشخيصية عريقة في الحيوان قبل الانسان ؟؟ ونحن نعرف ذلك لانه ظاهر من عدة مشاهدات ملحوظة نسوق منها ماقصه داروين في كتابه أصل الانسان عن كلبه حيث يقول: «كان الكلب راقداً

على العشب فى يوم قائظ وعلى مسافة قريبة منه مظلة مفتوحة هبت عليها نسمة رخية فحركتها حركة كان لايلتفت اليها الكلب لوأنه أبصر بجانب المظلة انساناً ولكنه كان كلما اهتزت المظلة عوى عواء شديدا وأظنه خطر له بسرعة وعلى وجه غير محسوس أن الاهتزاز بغير محرك ظاهر يشير الى وجود فاعل خفي » واستنتج داروين من ذلك أن للحيوانات الهاما بالارواح ، وهو بعيد ، وكل مايؤخذ من عمل الكلب أن الحيوان يوجس من الجماد اذا اضطرب أو تقلقل لانه لايسعه الحكم باستحالة صدور الاذى منه . وقبل أن نلجأ الى استنتاج داروين ينبغى أن نتأكد من أن بديهة الحيوان تفصل بين طبيعتى الحياة والجمود . فهل هـذا معقول ؟ ومن منا لم يرسنورا يعبث بالخرق والريش كما يعبث بالفأر أو يرجواداً يجفل من الاغصان كما يجفل من الثعبان أو يتحاشى بعض الاشجار كلما دنا منها كانه يتوقع عندها مكيدة ؟؟ وقد أورد صاحب كتاب الخرافة والعلم مشاهدات كهذه شهدها فى بعض الحيوانات لاحاجة بنا الى ايرادها لكونها مألوفة مسلمة

على هذا درج الادراك الحيوانى مشخصا فى العجماوات قبل الانسان، فلا داعى الى القول بأن ما يتحدث به من أساطير الاقمار والكواكب والعناصر منقول عن رجال عرفوا باسمائها فى الزمن القديم ، وليس من الجائز أن يكون الانسان قد تبطن كنه الاجرام السماوية حين عبد موناه فعرفها تمام المعرفة ولم ينظر اليها نظره الى الحى الذى يريد ويعمل ويناط به السعد والنحس . وعلى أن تسميه الناس باسماء الكواكب يشهد بصحة المذهب التشخيصي وعمق مصدره من المخيلة . والافهل كان الهمج يسمون زعماءهم بأسمائها أو يسمونهم بسيمائها ان كان ليس لها فى نفوسهم شخصية -

وليس بينها وبين زعمائهم مشاكلة ؟؟

(المذهب اللغوى)

ورأى ثالث فى منشأ الاساطير للبحاثة اللغوى ماكس مولر . يقول هذا البحاثة أن وصف الكائنات بصفات الانسان ضرورة أوجبها ضيق اللغة فى الايام الفارطة . فكانوا اذا جعلوا الشمس أما فعلى سبيل الاستعارة كقولنا مثلا ان ايطاليا أم الفنون . ولكنهم لضيق اللغة كانوا يعممون ذلك فى حديثهم فيسرى منه الى المخيلة عفواً وعلى غير قصد، وهذا القول من المذاهب المعول عليها فى تفسير طائفة من الاساطير الاغريقية والهندية . اذ لاريب أن الاستعارة اللغوية أصل وشبج من أساطير الامم نابت بعضها من بعض كما يقول مولر. ولكن ضيق اللغة اذا جاز أن يكون سببا لتسمية الجمادات باسماء الانسان فما هو بمغن فى تأويل خوفه منها وتأميله فيها فضلا عن تأويل ذلك فى أطفال لا يتكلمون وفى عجماوات لا تعوزها اللغة ، ومولر نفسه قد أتى فى عرض كلامه على مقابلة الاساطير بشذرات هى مؤدى المذهب التشخيصي برمته فقال : « كيفما صرفنا اللغة لم نجد كلمة مجردة الا وجدنا أنها فى أصل اشتقاقها كانت صفة ثم صارت اسما . وان من أعسر المسائل على الذهن أن يدرك الصفة فى هيئة ما مجردة ان لم نقل ان ذلك محال من الوجهة المنطقية . فاذا قال قائل مثلا (أنا احب الفضيلة) لم تقترن بكلمة الفضيلة أية صورة لان الفضيلة ليست كائناً ولا هى بحال من الشخصية أو القالب او الصورة الخارجية . وليس لها هيئة تؤثر فى عقولنا اثراً ملموحاً وانما هى تعبير مختزل من جملة طويلة . وأول ما قال قائل أحب الفضيلة فانما كان يعنى «أحب كل شىء فاضل» . وقال مولر أيضاً : « ليس فى طاقتنا أن نستحضر فى اخلادنا العاطفة التى بها كان ينظر

الأقدمون الى آيات الطبيعة اذ كل شيء عندنا بقانون قاهر وحسبان مقدور وفى استطاعتنا أن نحصر قوة الجو العكسية ونذرع مد الفجر فى كل سماء وشروق الشمس عندنا حقيقة نحن لا نشك فيها الا كما نشك فى أن اثنين واثنين أربعة . ولكن هب اننا استطعنا أن نعود كاسلافنا فنؤمن بأن فى الشمس ربا على مثالنا وأن فى الفجر روحاً يشاطرنا العاطفة واستطعنا برهة أن نتخيلها كائنات مطلقة من ربقة النواميس . معبودة كما تعبد الآلهة فما أشد ما يتغير احساسنا ببزوغ النهار

«فاعلم أن قولنا أن الشمس ستشرق حتما جزم لم يفهمه الاقدمون من عباد الطبيعة . واذا طرأ عليهم شبهة من انتظام الشمس والافلاك فى دورانها فما أن يزالون يحسبون انها أسرى مغلولة الى أجل مسخرة فى طاعة قدرة أعلى وأكمل . ولسوف يخلى عنها فى يوم من الايام كما سيخلى عن هرقل فترقى الى المقام الاسنى . وقد يلوح لنا من السذاجة الصبيانية ما نقرأه أحياناً فى (الفيدا) من أمثال هذه الاسئلة: ترى هل تطلع الشمس غداً ؟ ؟ أيرجع صاحبنا القديم الفجر ؟ ؟ أيظفر اله النور بجنود الظلام ؟؟ ومتى ذر حاجب الشمس عجبوا لها كيف تقوى فى المهد على تجديل افاعي الليل وكيف تطيق الوليده عبور السماء . وسألوا مابال طريقها نقية من الغبار وكيف لاتنقلب فتسقط . ثم لا يلبثون أن يحيوها تحية الشاعر العصرى. «مرحبا أيها الظافر الشرقى بالليل العبوس» الخ الخ

وخلاصة هذه الآراء أن الانسان مشخص برغمه فهو اذا تمثل قوة مجردة أو محسة وهبها زيه وبسط عليها زواله ونحلها أعماله

اساطير العرب

وعسيت تقول : ان كان هذا هكذا فملكة الاساطير مستقرة فى كل نفس ، مشاعة فى كل جنس . فما بال أمم نراها لا تلزم بالاساطير حدا ، وأمم أخرى كالعرب مثلا تنزر بينها جداً ؛ وتعد فيها مشخصات الطبيعه عداً ؟؟

نقول : أن هذه الملكة وان كانت من الملكات المشاعة الا أن ظواهر الطبيعة التى بها تتلبس الاساطير وعليها تدور حوادثها لا تتراءى فى كل أقليم على وتيرة واحدة ولا تطرق خيال الامم على نسق فرد ، وانما تتفنق الملكة وتسخو على قدر مايعروها من هول تلك الظواهر وتوالى طوارقها عليها

وما أحسن ما كتب المسعودى فى هذا المعنى اذ يقول: «أن ماتذكره العرب وتكنى به من ذلك انما يعرض لها من قبيل التوحد فى القفار والتفرد فى الاودية والسلوك فى المهامه الموحشة لان الانسان اذا صار فى مثل هذه الاماكن يوجد له تفكر ووجل وجبن واذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة والاوهام المؤذية الفاسدة فصورت له الاصوات ومثلت له الاشخاص وأوهمته المحال بنحو ما يعرض لذوى الوسواس — وقطب ذلك وأسه سوء التفكير وخروجه على غير نظام قوى أو طريق مستقيم سليم لان المتفرد فى القفار مستشعر للمخاوف متوهم للمتالف متوقع للحتوف ، لقوة الظنون الفاسدة على فكره وانغراسها فى نفسه فتوهم مايحكيه من هتف الهواتف »

فهذا كلام سديد ولكنه شتان مخاوف البطحاء المكشوفة والاودية المعروفة ، ومخاوف بلاد كالهند مثلا — بلاد تجللها الاسرار فكل ما فيها

رائع نخم ـ فمن أطواد سامقة يعمر سفوحها الخراب ،وينقطع دون رؤسها السحاب ، الى آجام تمادى بها القدم حتى غاب من جذوعها فى التاريخ أكثر مما غاب فى التراب ، الى بروق ورعود فيها من الوعيد أضعاف مافيها من الوعود ، الى تماسيح فى الانهار وتنانين فى القفار ، الى أسود ونمور ، وبزاة ونسور ، وكهوف وصخور ، وطوفانات وبحور الى غير ذلك مما يجسم الوهم الطفيف ، ويفسح للمخيلة مجال التصوير والتكييف

ألم تر أن العرب لما ابتدعوا أساطيرهم كانت مما يجيء من قبل الحواس لامن قبل الخيال وكانت هواتف وأصداء وهاما تسمعها الاذن ولم تكن أشباحاً تبرز للمخيلة ؟؟ وماهكذا كانت أساطير الآريين الذين قد يصفون لك الشبح من أشباح الأساطير وصف العيان والتحقيق ، ويفصلون لك من سماتها كيف كانت أرؤسها وأبدانها ،وكيف أظافرها وأسنانها ،وكيف شياتها وألوانها . ثم يتلون عليك من الحوادث مايوافق تلك الملامح والمخايل مع براعة وقوة مستمدة من روح نباضة وطبيعة فياضة

ولم نعرف فى أساطير العرب روحاً جباراً يهيمن عن فلك من الافلاك أو يشتمل على ظاهرة طبيعية رائعة مدهشة ، حتى شياطينهم شياطين هينة يؤاكلونها ويزاملونها ، ولا يختلف خوفهم منها عن خوف الرجل من الفرس العاثر أو الكلب العقور ، فكأنما هى فصيلة داجنة من الجن .. وأما الغول والرخ والسعادين فهى ان كانت اختراعا فلا تنطوى على رمز جليل ، وان كانت مبالغة فى جوارح وكواسر موجودة فللمخيلة فيها عمل ضئيل ، ولهم خلا ذلك أقاويل فى النجوم تشبه الاساطير كزعمهم فى رواية ابن دريد « أن الشعريين اختا سهيل وكانت كلها مجتمعة فانحدر سهيل فصار يمانيا وتبعته الشعرى اليمانيه فعبرت البحر أو المجرة فسميت عبوراً وأقامت

الغميصاء سكانهما فبكت لفقدها حتى غمصت عينها » أوأن العيوق عاق الدبران لماساق الى الثريامهراً وهى نجوم صغار نحو عشرين نجماً فهو يتبعها أبداخاطباً لهاولذلك سموا هذه النجوم القلاص » الخ الخ . فهذه الاقاويل على كونهامن باب الحدس (Fancy) لامن باب الخيال (Imagination) ليست هى بالمستكثرة على العرب وهم ماهم ترصداً للاجرام ومواقيتها وترقباً للانواء ومهابها لما هم مضطرون اليه من متابعة الاسئاد ومواصلة الارتياد .

وكالعرب فى هذه الخصلة كل أمة تقطن السهول والديأميم القاحلة . لافرق بين آريين وساميين . فالامة الميدية ـ وهى أمة آرية ـ كانت قليلة الاساطير جداً ، ولم تكن فى ديانتهم آلهة للشر لقلة مايرهبون من قوى الطبيعة وكانوا لايلبسون معبوداتهم بالقوى الطبيعة ولا ينصبون لها نصباً وأصناما ، وفى زعمهم أن الههم الاكبر يقيم بمكان بعيد عن هذه الارض لايدنو اليه أحد من الناس ويهبط اليهم منه بالوحى ملائكة يرون الناس من حيث لايرونهم ـ تلك كانت عقائد الميديين فى الالهيات والعالم الاخير فهم والعرب فى هذا المجال سواء

***

وهناك سببان آخران لندرة الاساطير عند العرب ـ أولهما يظهر من تطبيق رأى سبنسر والثانى من تطبيق رأى مولر ـ وهما رأيان لايخفى انهما لايرفضان كل الرفض ـ فسواء أخذنا بعبادة الموتى وهى رأى سبنسر أو أخذنا بالاستعارة اللغوية وهى رأى مولر فالنتيجة واحدة وهي أن الامة العربية لاتكون بحسب واحد من هذين الرأيين كثيرة الاساطير والحكايات التى تجرى مجراها

فاذا أخذنا بتعليل عبادة الموتى فالعرب لم ينسوا حديث آبائهم الذين كانوا يعبدونهم ولم يزل معمروهم الى مابعد الاسلام يذكرون ان اللات احدى آلهتهم كانت فى الاصل رجلا صالحاً يلت السويق للحجاج فلمامات مثلوا له مثالا وعبدوه ، وهذا ابن القيم يقول فى كتابه اغاثة اللهفان : « فطائفة دعاهم الشيطان الى عبادتها (الاصنام) من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الاصنام على صورهم كما يروى عن هشام عن أبيه انه قال كان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر قوماً صالحين فماتوا فى شهر فجزع عليهم ذوو قرباهم فقال رجل من بنى قابيل ياقوم هل لكم أن أعمل لكم خمسة اصنام على صورهم غيرانى لا أقدر أن أجعل فيها أرواحاً قالوا نعم فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم فكان الرجل يأتى أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله حتى ذهب ذلك القرن الأول » اه

وأما الاستعارة اللغوية فمولر يبنى رأيه فيها على أساسين :

أولهما قدم الاستعارة ؛ ونضرب لها مثلا كلمة الطبيعة التى أصل معناها الحبلى — سموا الطبيعة بهذا الاسم لانها أكثر الاشياء انتاجا وولادة ثم نسى سبب التسمية حتى صاروا اذا قال القائل (الطبيعة) لم تدل عند السامع على الحبلى كما كان يفهم واضعو هذا الاسم ، واذا قال أن الطبيعة تلد النبات والماء والحيوان عسر على الذهن أن يذهب الى ذلك المجاز البعيد وسبق اليه أن صاحبة (العلم) أم حقيقة وان هنالك اسرة أمها الطبيعة وأبناؤها وبناتها الانهار والاشجار والانعام . ثم تنشأ الاسطورة بهذا المعنى

وثانيهما المترادفات — وذلك انهم كانوا فى ابان طفولة اللغة يسمون الشيء بأشهر أعماله وظهر أوصافه فكان يقال للاخت (التى تحلب) لان

عملها فى البيت حلب الماشية ويقال للاخ (الذى يحمل) لانه يعاون أباه فى حمل الاثقال ثم تنسى هذه الاعمال والاوصاف ولا تبقى منها الا أعلام منوطة بمسمياتها . فمن ذلك انه كان للارض فى السنسكريتية واحدوعشرون علما كلها صفات كالعظيمة والواسعة والعريضة الخ ولما كانت الاشياء تتشابه فى الصفات فقد كان يتفق أن يسمى الشيئان المختلفان باسم واحد . فاذا اتفق الاسد والشمس مثلا فى الاسم الحق الناس بالشمس كل ماهو للاسد من الصفات فتسمع حينئذ بلبد الشمس وبراثنها وبفرأسها وعرينها وتسمع بالشمس الفاتكه والشمس المزمجرة والشمس المرعبة ثم يتألف من ذلك قصص تسير مسير الاسطورة ؛ ويتعهدها الخيال فلا تزال حتى تخفى جذورها فى فروعها

ولنرجع الى الالفاظ المستعارة عند العرب . فقد نجد انها فى الغالب كلمات ما برح معنويها يمتزج بحسيها الى الان . ويندر بين مفرداتها كلمة تجردت لما استعيرت له دون ما استعيرت منه ، فانت تقول خجل فلان من الفعل القبيح ثم تقول خجل فى الثوب أى تعثر فيه وخجل البعير فى الوحل أى تحير وكتب القلوص أو كتب الكلمة قيدها . وهكذا اب اللبيب ولب الفاكهة وعقل الرجل وعقل الناقة وزاملت الرجل صادقته وزاملته أيضاً رافقته على الزاملة وبايعت الملك على الملك أو بايعت التاجر على السلعة . وتقول رجل محب وامرأة محب كقولك جمل محب اى بارك لا ينهض كانهم يكنون عن حب المرأة باناخة الابل عند خبائها

ونحن نقول الجمال أو العفاف ونعنى بهما شيئا معنوياً والجمال عندهم مأخوذ من الجميل أى الشحم والعفاف من العفافة أى بقية اللبن

وحسبك أن الميول والعواطف والحقائق هى فى اللغة العربية كلمات لم تغلب عليها الصبغة المعنوية بعد فتسند الى انزه المعانى كما تسند الى اكثف

الاجسام . بل أن الروح والنفس والنسمة لاتزال مشتركة بين مدلولا نها وبين الهواء (١) كأقدم ماسميت به فى لغة من اللغات ولم تكد تبدأ بينها الفوارق كما بدات فى اللغات الاخرى

وأما المترادفات فى كلام العرب فما كان منها جامدا فهو منقول بحروفه عن اللغات التى تفرغت منها اللغة العربية . وماكان مشتقا فهو حتى اليوم صفات شتى لاسم أو اكثر . خذ مثلا لذلك مرادفات السيف اليمانى والهندواني والقساسي والحسام والمشطب والعضب والصارم والجراز الى اخرها فهل ترى الا انها صفات مشتقة أو منسوبة ؟ ؟ وقس عليها أغلب المترادفات التى لم تتغلغل فى القدم بحيث تخفى أصولها فتتوالد منها الاساطير

---

(١) كان المتوحشون لايفهمون من الروح الا انها هى النفس المتصاعد بين الزفير والشهيق لانهم يرون الواحد منهم بخير ماتنفس فاذامات أو أغمى عليه سكن صدره . قال جرانت الن فى كتابه (نشأة العقيدة بالله): «ماهو ذلك الجزء الذى يغادر الجسم وينأى عنه فى الاحلام الا أن يكون هو الروح أو النفس الذى يرى الوحشي انه شيء منفصل قائم بذاته . ثم اذامات انسان ألا يشاهد الوحشي أن هذه الروح أو التنفس يبتعد عنه ؟؟ واذا جرح جرحاً بالغاً ألا يتوارى وقتاً ماثم يرتد اليه ؟ ؟ ثم اليست هى تخلى الجسد او تعبث به أحيانا فى حال الاغماء والتشنج وغيرهما من الحالات الطارئة ؟ ؟ ولاحاجة بي الى الافاضة فى هذه الفكرة فقد فصلها المستر هربرت سبنسر والدكتور تيلور . وبحسبنا أن نقول أن الانسان الاول أخذ يعتقد من تاريخ سحيق بأن الروح أو الحياة شيء مرتبط بالتنفس وانها شيء يبرح الجسم أو يحل فيه حسب مشيئته»

على نحو ما المع اليه مولر . اذ كلها حديثة الاشتقاق لايدخل البحث عن جذورها ومصادرها فى عمل الباحث اللغوى لانه عمل يستطيعه النحويون والصرفيون

ولو استبحر بالعرب الذين وصلت الينا لغتهم عمران او استتبت لهم مدن وأمصار ورفعت لهم فيها البيع والهياكل تتلى فيها الصلوات بالغداة والعشى ويصدر منها الكهنة الى الناس بالاسرار والالاق لكان لهم على الاقل اساطير وتخرصات على منوال الاسرائليات التى عادوا فاقتبسوها بعد الاسلام ، وان كانت لهى ادخل فى باب الرؤى المباحة لكل نائم منها فى باب الخيالات التى لاتجود بها الاقريحة يقظة جوالة ، ولكنهم كانوا قبائل رحلا يؤمون المدن فى مواسم تتقسمها العبادة والتجارة والخطابة فائتمر التاريخ والاقليم واللغة على أن يكون العرب أمة بلاخيال ، وأهون بذلك لولا أن سعة الدنيا من سعة الخيال ، وان حلى الحياة انما تصاغ من معادنه وكنوزه

الالعاب الرياضية (١)

أن حاجتنا الى العناية بالالعاب الرياضية ليست مما يجوز أن يوضع موضع الخلاف اذ هي لا تقل فى لزومها للتلامذة عن مواد التعليم نفسه. ولا نكون مغالين اذا قلنا انها مقدمة عليها فى كثير من الاعتبارات. لاننا نعد الالعاب الرياضية الصحيحه تمريناً نفسياً عقلياً قبل أن نعدها تمريناً يعود صلاحه على الجسد وحده ولا نكاد نعرف أمة شعرت بالتقدم والتفوق الا رأينا فيهامع شعورها هذا شغفاً شديداً بالرياضة البدنية. وهذه انجلترا واليابان شاهدان على ذلك فى التاريخ الحديث فقد بلغ من اهتمام الانجليز بالالعاب أن يترك أعضاء مجلس النواب الجلسة ليشهدوا احدى مسابقاتها واشتهر من عادات أهل اليابان انهم كلفون بهذه الالعاب ولاسيما المصارعة بفنونها كلفاً لا يضاهيه كلف أمة أخرى فى الشرق. ولا غرابه فى انتباه الامم الحية الى مزية هذه التمرينات الجسدية فان أول مايحسه الانسان من يقظة الحياة الميل الى الحركة وطلب القوة. وقد يكون هذا الميل من دوافع النفس قبل أن يكون من دوافع الجسد لاننا كثيرا مانرى فى الشعوب الخاملة أناساً من أقوى الناس وأصحهم بدناً ولكنهم كسالى فاتر والحس ثقال الطبع لا تلمح عليهم خفة الحياة وتفززها وربما رأينا العجاف الضعاف فى أمم ناهضة تواقة الى الكمال وكأنما نفوسهم تستحث أجسادهم الى أكبر مما تطيقه من النشاط والمراح. فليس من التجوز البعيد أن نقول أن النشاط ملكة نفسية تستقر فى طبائع الاخلاق قبل أن تشاهد

---

(١) من مقال نشر فى جريدة الافكار يوم ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٢

مستقرة فى صلابة البنية ووثاقة التركيب.

ونحن نعزو الى اهمال الرياضة البدنية غير قليل مما يعاب على معظم شباننا من كسل النفس وقلة الاقدام على المخاطر واقتحام المسالك النادرة والفجاج الغريبة فى الاعمال الاقتصادية والادبية وغيرها . فقليل فى هؤلاء الشبان من يحسب الحياة أوسع من هذه المعالم المطروقة التى يتناولها حساب الحيطة والتقية المحفوظة عن ظهر قلب . وعندهم ان المخاطرة فى كل أحوالها شعبة من الجنون وضرب من الخطل أن أفلح فانما هو الخطل الموفق . وأقرب ما نؤول به ذلك أن السلامة هى الفضيلة العليا عند هذا الفريق من الشبان وان الدنيا برحبها فى رأيهم هى هذه الطرق المعبدة من العيش التى يسير فيها المرء مغمضاً كما يسير مفتوح العين بصيراً . وليس أدل على الجمود وركود العقل من غلبة هذا الاعتقاد لان المخاطرة عامل لا يمكن اغفاله فى باب من أبواب العمل . وروح المخاطرة عميقة فى الحياة لابل الحياة نفسها مخاطرة فى عالم مجهول ، وكل فتح جديد فيها انما هو مخاطرة جديدة . فمن لم يخاطر مختاراً بالاقدام على ما يخاف خاطر مكرها بالزهد فى ما يطمح اليه ويهواه.

وقد يضحك ويبكى أن تسمع رأى أولئك الشبان فى المخاطرين الذين تصل اليهم أخبارهم على سبيل التفكهة والتنادر بالغرائب . أذكر أن رجلا أمريكياً كان من همه أن يحمل الناس على التحدث بعمل مدهش يقدم عليه فدخل فى برميل من الحديد ودفع بنفسه فى جنادل « نياجرا » ليعبرها من شط الى شط ولم يكن على رهان ولا موعوداً بجائزة . فما كاد البرميل يمس الماء حتى تقاذفته اللجة فتحطم ومات الرجل . وهى ميتة قاسية لم يقدم عليها ذلك المخاطر الا لان النجاة منها كانت تعد أعجوبة فى العالم

من أندر الاعاجيب . ولا نشك فى أن الامريكان أنفسهم استحمقوا الرجل ورموه بالسخف والجنون ولكننا لانشك أيضاً فى أنهم قد أدركوا جميعاً « مسوغاً » لتلك الحماقة وتمثل لهم حظ جميل كان ينتظر الرجل عند محبي الغرائب ومحباتها من أبناء أمريكا وبناتها . وفهموا أن هذا الولع بالمخاطر على شذوذه واعوجاجه ينتمى فى النفس الانسانية الى عاطفة كريمة هى صاحبة الفضل فى كل ما بلغه الناس من التقدم على أيدى المجازفين والشهداء، واليها يجب أن ينسب كل معلوم كان مجهولا ، وكل مألوف كان محذوراً ، وكل سهل كان صعباً ، وكل حق كان نهباً ، وكل أرض كشفتها رحلة مرهوبة ، وكل شر دلت عليه تجربة متلفة — بل كل دين أو رأى أو اختراع أنكره الناس قبل أن يسلموا به ، وذادوه قبل أن يذودوا عنه . فما كان شيء من ذلك ميسورا لو لم يتقدمنا مخاطرون فى كبائر الامور وصغائرها وعاملون لا يستشيرون دفتر الربح والخسارة فى كل خطوة بخطوتها . وأقرب هذه التجارب الينا تجربة الطيران ، فهل تظنون أن أول مجازف بركوب طيارة كان أرجح حلماً (من وجهة النظر الى السلامة) من صاحب برميل نياجرا ؟؟

وهذا هو الذى لم يفهمه ظرفاؤنا الذين نما اليهم حديث ذلك الرجل فجعلوا يضحكون منه ما طاب لهم الضحك أو يصرفونه بكلمات تأفف يوشك أن يكون تباهياً بسلامة عقولهم وطهارة قلوبهم من خزى التورط فى هذه المعاطب . . وكان أعذرهم للرجل من كان يسأل : ألم يطمع فى ربح يجنيه من الاشتهار بالمخاطرة ؟ ؟ ويجوز انه كان طمع فى شيء من هذا . ولكن ما سؤالهم عن المال فى علة هذا الخلق الذى أودى بحياته؟ ما سؤالهم عنه فى البحث عن علة ولوعه بركوب الغرائب ؟ ؟ ان الفارس ليجازف فى طلب الاسلاب وليس الحطام المسلوب هو علة شجاعته فروسيته ومجازفته

بحياته . والجبان كالشجاع فى الشوق الى لذة السلب فلماذا لم يكن كل الناس شجعاناً اذ كانوا كلهم طامعين ؟ ؟

والامر الذى فات ظرفاءنا هو أن العاطفة اما أن توجد وفيها السليم والسقيم أولا توجد بتاتاً وانه خير لنا أن يكون منا مجازفون متهوسون من أن لا يكون بيننا مجازفون على الاطلاق . فيقتلنا حب السلامة ونحسبنا ناجين وادعين ونحن فى الحقيقة نعرض أنفسنا لارذل الاخطار . وأى خطر أرذل من استكانة النفس وتقلصها فى قشورها ؟؟

وسيعلمون لذة المجازفة الساحرة يوم يعلمون لذة الحياة الشريفة فعلموهم كيف يلعبون فانه لا أمل فى الجد القويم لمن لا يعرف اللعب القويم .

المواكب (١)

قصيدة شعرية نظمها جبران افندى خليل جبران من أدباء السوريين فى أمريكا وطبعها فى كتاب مستقل كبير الصفحات مزدان بالرسوم الرمزية، ويظهر أنه جرى فى وضعها وطبعها على أسلوب رباعيات الخيام لانه وضعها فى المعانى التى طرقها الخيام وطبعها على الشكل الانيق المصور الذى اختاره الناشرون من الانجليز والامريكان لطبع رباعياته

وللكتاب مقدمة بقلم نسيب افندى عريضة نراها من الزم المقدمات لانها فسرت من أغراض القصيدة مالم تفسره أبياتها ومنها قوله: «ليتصور القارىء قبل أقدامه على مطالعة الكتاب مرجا واسعا فى سفح جبل . هنالك يتلاقى رجلان على غير ميعاد أحدهما شيخ والاخر فتى . الاول خرج من المدينة والثانى من الغاب أما الشيخ فيسير بخطى ضعيفة متوكئا على عصاه بيد مرتجفة وفى غضون وجهه وشعره الشائب المسترسل ما ينم على أنه عرك الدهر وعرف أسرار الحياة ومخبآتها فذاق منها مرارة أوصلته الى التشاؤم منها . يصل هذا الشيخ الى المرج فيستلقى هنالك على العشب قصد الراحة واذا فتى جميل غض الاهاب قدلوحت الشمس بشرته واكسبته الحياة جذلا وانبساطاً خرج من الغاب يحمل نايه فيسير حتى يصل الى مكان راحة الشيخ فيضطجع بجانبه . فلا تمر دقيقة سكون الا تراهما قد بدأ بالحديث فيأخذ الشيخ بابداء نظراته فى الحياة كما يراها طرفه المتشائم

---

(١) نشرت بجريدة الاهالى فى مايو سنة ١٩١٩

وخبرته المحنكه . فيرد عليه الفتى شارحا عن الحياة كما تراها عينه الجذلة المتفائلة »

هذا هو محور القصيدة كما فسره صاحب المقدمة . وقد أحسن كاتبها فى مراعاة المقام لولا مافى كتابته من قليل الغلط النحوى والصرفى . وما يتخللها من روح النقد العتيقة التى احتذى بها امرسون وأشياعه من متصوفة الامريكان

أما القصيدة فليس فى استطاعتنا أن نسميها شعرا صحيحا كما وصفها صاحب المقدمة وان كنا نتبين منها أن ناظمها يفكر تفكير شاعر . وأول مانشير اليه أن مبنى القصيدة ليس مما يوصف بالصحة لما فيها من الخطأ اللغوى وما يعتورها من ضعف التركيب وغلبة العبارة النثرية على النغمة الشعرية فى أبياتها . وقد فتحنا الكتاب فوجدنا فى أول شطرة من أول بيت خطأ من هذا القبيل فى قوله

(الخير فى الناس مصنوع اذا جبروا)

يريد أجبروا . ولم ننته من الصفحة الاعلى خطأ ثان فى قوله

فافضل الناس قطعان يسير بها ... صوت الرعاة ومن لم يمش يندثر

والواجب جزم يندثر فى البيت . وهذا وليس فى الصفحة الاأربعة أبيات !! ولا نشك فى ان ناظم القصيدة كان يحترس من الوقوع فى مثل هذا الخطأ لو كتب باحدى اللغات الغربية . فالاحتراس فى الكتابة العربيه اولى

اما المعنى فمعيار صحته عندنا ان يكون موافقا للفطرة الصحيحة والطبيعة الصادقة. ولانرى معانى الناظم كذلك . نعم ان صاحب المقدمة يقول انه ـ اى الناظم ـ متمرد على الحياة نفسها . ولكن التمرد على الحياة

لايدل فى كل حالة على رغبة فى حياة أسمى وافضل وكثيرا ما يدل على انتصار المتمرد لجانب الموت والفوضى على جانب الحياة والمثل الاعلى . خصوصا اذا لم يكن هذا التمرد مبنياً على اساس من الشعور الصميم بقوانين الحياة الراسخة فى دخائل الطباع واعماق الاحساس . ونرجح مما قراناه فى مواكب الناظم ان تمرده على الحياة من هذا النوع لأنه كما يقول صاحب المقدمة « يتمرد على كل قيد ويود الرجوع الى الغاب » اما الغاب التى يقصدها فى قصيدته فليست غابا بمعناها الضيق بل هى الطبيعة بأسرها » —فمن قال ان الطبيعة تحل الانسان من قيوده ؟ ؟

الا ليت الطبيعة كذلك !! ولكنها فى الحقيقة ام القيود والاغلال ، ومامن عادة متحكمة فى نفوسنا ولا غريزة غالبة او شهوة متمكنة الا وفى يد الطبيعة طرفاها واليها مرجعها

فاذا قال الناظم متغنيا بطلاقة الطبيعة وتسامحها :—

ليس فى الغابات دين   لا ولا الكفر القبيح

فاذا البلبل غنى   لم يقل هذا الصحيح

قلنا على الرغم منا : حقا ان البلبل لا يزعم ان غناءه هو الصحيح وغناء غيره الشاذ السقيم ولكنه لسوء حظ العشاق : عشاق الطبيعة يدين بالانانية القاسية التى يدين بها المتعصب لمعتقده الزارى على معتقد غيره ويعمل فى اطاعة هذه الانانية كل مايستطيع عمله من عيث وضر . ويؤيد قول المعرى .

ظلم الحمامة فى الدنيا وان حسبت   فى الصالحات كظلم الصقر والبازى

واذا قال الناظم فى الاشادة بمساواة الطبيعة وعفتها : .

ليس فى الغابات حر   لا ولا العبد الذميم

انما الاحجاد سخف وفقاقيع تعوم
فاذا ما اللوز التى زهره فوق الهشيم
لم يقل هذا حقير وأنا المولى الكريم

قلنا انه لايقول ولكنه يفعل . انه يقتل كل شجرة ضعيفة تجسر على النمو الى جانبه وتشرئب الى مكان لها من الفضاء والنور وكذلك نجد قيود الطبيعة وقوانينها ويجدها كل حي فى هذا العالم المسخر ؛ فهي قيود اثقل وأظلم على من يشعر بها من قيود المدنية . وقوانين أشنع والأم عند من يشكوها من قوانين الانسانيــة . وربما لطفت المدنيه قيودها وزوقتها وصقلت جوانبها ولكن الطبيعة لايعنيها القيد ولاحامله ولا تلقى اليك قيدها الا حديدا أسود كالحاثم تضاعفه لك وقد لاتقبلك فى حظيرتها اذا انت حطمته أو زحزحته عنك

فليس من الشعور الصحيح ولا من الاحساس العميق أن يعبر الانسان عن ألمه من قيود المدنية هذا التعبير . أو يظن أن بساطه الحياة تنجو بالحى من أحكام الوجود ؛ وقد تكون المدنية شوهاء ولكن ليس معنى ذلك ان الحياة الهمجية مليحة الوجه حسناء . . . . . أليست شياطين ساكن الغابات وأرواحه الخبيثة ترجمانا لوساوسه ومخاوفه ؟ ؟ أليس هو أسوأ ظنا بالطبيعة وقوانينها منا ؟؟ هذا وهو طفلها النازل فى كنفها ونحن عصاتها الخارجون عليها المتحصنون دونها فى حصون المدنية ؟ ؟

وبعد فنحن لا نغمط ناظم المواكب حقه اذا قلنا أن شعره ليس من الشعر الصحيح لهذا السبب . ولكننا لا ننسى أن نذكر أننا قرأنا فى مواكبه أبياتا من اصدق الشعر وأحكمه مثل قوله

وما السعادة فى الدنيا سوى شبح يرجى فأن صار جسما مله البشر

وكقوله فى العدل

والعدل فى الارض يبكى الجن « لو » سمعوا
به ويستضحك الاموات لو نظروا
فالسجن والموت للجانين ان صغروا والمجد والفخر والاثراء ان كبروا
وقاتل الجسم مقتول بفعلتـه وقاتل الروح لايدرى به البشر

وأصاب اذ قال « العدل فى الارض» ولم يقصره على الناس . وقوله

انما الناس سطور * كتبت لـكن بماء

وقوله

والحب فى الناس اشكال واكثرها كالعشب فى الحقل لازهر ولاثمر

وعندنا انه لوطرق باب الشعر المنثور لكان ذلك افسح مجالا لارائه وأقرب الى سليقته وقدرته اللغوية من معالجة الشعر الموزون . وحبذا لو اقل من المعاني الرمزية فانها بقيةمن بقايا ابهام الـكهان الاقدمينلا يقبلها فى العصور الحديثة الا اشباه اتباع الـكهان فيما تصرم من العصور



الثقة بالناس

الثقة بالناس عقيدة كثير من حكماء الناس وبلهائهم . وهى ان أريد بها الثقة بما فى الانسانية من خير مودع ،وآمال مرجوة ،مذهب لاسلطان لنا عليه ، ولاخوف علينا منه . ولا مطمع للرأى فى تفنيده لانه هوى متمكن من فطر النفوس ، راسخ فى جبلاتها

أما إن أريد منه الثقة بهؤلاء الناس الذين نبصر وجوههم ، ونسمع أصواتهم ونغدو ونروح معهم ، فلنا فيه قول قد لايوافقنا عليه الا الذين عجموا عود الناس كما عجمناه، وبلوا من مواربة الانسان بينه وبين غيره وبينه وبين نفسه ما قد بلوناه .

الناس أشرار أو أبرار . فاما الاشرار فحكمهم معروف . وامرهم مفروغ منه

وأما الابرار فهم على الفضيلة طرائق وفى اجتناب الرذيلة مشارب

فرجل طيبته جهل بالشر ، فلو عرفه لاندفع فيه

ورجل طيبته عجز عن الشر، فلو قدر عليه لماقعد عنه

ورجل طيبته مغالبة للشر ، فهو يصرع الشر والشر يصرعه . ويملك نفسه آنا ويخذله الطبع أحيانا . وأنت لاتعرف متى يكون غالبا فتأمنه وقت غلبته ، ومتى يكون مغلوبا فتحذره وقت هزيمته

ثق بالجاهل حتى يعرف الشروبالعاجز حتى يقوى عليه واياك ان تثق بمصارع الشر وان كان هو اصوب من رفيقيه فكرا وارحب منهما نفسا

---

(١) نشرت فى مؤيد ١ يونية سنة ١٩١٤

فانك ان وثقت به كنت كمن يخاطر على المعركة بغير بينة . وكنت كمن يصحب الغارة ليغنم فيصبح وهو فى يد الاعداء غنيمة

وماظنك بمعركة لايعرف القلب الذى هو ميدانها كيف تدور الدائرة فيها ولايدرى شاهدها موقف الخصمين منها الا كما يدريه غائبها . وانما هى حرب البراقع — ولو ظهر كلا العدوين لكان للحدس مجال وللتقدير حساب ولكنهم لايظهرون الاخلف قناع من العثير المثار . ولايضربون بسلاح تعرفه الا ريثما يتقلدون سلاحا غيره قد تجهله

ذلك ان « العارف » عرضة للشك وهدف للحيرة . ولا ينتاب الشك نفساً الا زعزع اركانها . واحال معالمها . فلا تدرى ايها جانب الشر وايها جانب الخير

فان كان لابد من الثقة بهذا فثق به حيث يكون نفعك نفعاً له . وضررك راجعاً ولو بعضه اليه

وان اردت الأمان . فثق بالناس جميعاً وكن على حذر من الانسان

مغنى المجالس (١)

قيل للجمل زمر فاعتذر قائلا : « بماذا ؟ ؟ لاشفة مامومة ولا أصابع مفسرة . . »

كذلك سمعنا الفلاحين يروون عن الجمل فان كان مايروون عنه صحيحاً فقد والله ظلمه العباس بن مرداس حين قال فيه :

لقد عظم البعير بغير لب　　فلم يستغن بالعظم البعير

فان الجمل والحق يقال لهو اذن ألب وأكيس من هؤلاء الذين يحترفون الزمر والغناء وينسون انهم من ذوى المشافر المشقوقة والاصابع المضمومة بل هو أعقل من كثير من أبناء آدم الذين يزمرون لك ويستبيحون أذنك من غير أن تقترح عليهم الزمر أوتدعوهم اليه ، وهو على الأقل اعقل من مغنينا الذى أنا محدثكم عنه فيمايلى

والجمل يحمل أوزارنا ، ويلم شملنا ، ويصبر على العطش ليروينا ، ويجود لنا بالوبر ليكسونا ؛ فليس من الضرورى بعد هذا كله أن يكون له أيضاً مشاركة فى الفنون الجميلة . وحسبه هذه الفوائد التى لا يستغنى عنها ، ولكن أى فائدة لانسان لا عمل له فى الدنيا غير الغناء وهو لا يحسن الغناء ؟ ؟ . . .

دعينا ليلة الى مجلس سماع فوجدنا المغنى الذى سنسمعه قدسبقنا اليه وقد تولى عن صاحب الدار الترحيب بالمدعوين ومصاحبة القادمين الى أماكنهم من المجلس. ولا عجب فهوصاحب الليلة ولاخسارة على صاحب

---

(١) نشرت فى العدد التاسع والعشرين من صحيفة الرجاء

الدار فى أن ينزل له عن زائريه ليلة من لياليه . فحيانا عند قدومنا وبش لنا واجلسنا بالقرب من مكانه احتفاء بنا ،ورأيناه يتكلم وهو يبتسم ويسكت وهو يبتسم ويقعد ويقوم ويأسف ويعبس وهو يبتسم وبالغ فى اللطف فكان يبتسم للراح وهى كما يقول الاقيشر «لوجه أخيها فى الاناء قطوبٌ» ولا تشتغل شفتاه عن الابتسام الا بالترحيب أو السلام

لا بأس بالابتسام يزيل الكلفة ويبسط النفوس للمعرفة ، ونعم التحية هو يسترعى الابصار ويستميل نوابى الآذان .وكأىّ من رجل يمهد سبيله فى الحياة بابتسامة تلازم شفتيه فيملك بها القلوب ويفتح اصفاد الصدور . ولا نغمط مغنينا اقتداره فى هذه الصناعة الشفوية فلقد أثرت في اكثرنا ابتساماته اثر السحر أو أعظم فسقطوا فى يديه أسرى دماثته ورهائن بشاشته ، وقال أحدنا : ما أظرف المغنى ! ! انه والله للظرف المجسد .وقال آخر ما احسبنا الا سنسمع الليلة مالا اذن سمعت ونرى من مغنينا هذا مالاعين رأت . ولا شك عندى فى أنه مكين فى فنه ، بعيد العهد بممارسته ، فأقل مافى الامر أنه أطال مصاحبة أهل الفن حتى اقتبس منهم وتأدب بأدبهم وهذه اشاراته وآدابه فى التحية والملاطفه شاهد بذلك . وأهل الفن بمصر كما تعلمون لطاف لطاف لطاف الى النهاية فى اللطافة — لطف الله بهم فانهم ليكادون يتلاشون من اللطافة كما تتلاشى الحانهم فى الهواء

ومضت بعد ذلك برهة فى التشوف والانتظار ثم مضت برهة ثانية فى النقر واصلاح الآلات ، ومضت البرهة الثالثة ولا ندرى كيف مضت ، لاننا فوجئنا بزعقة هائلة لم نعلم أمن السماء هبطت أم من الارض صعدت، وصوت صارخة هى تعدد أم صوت قتيل يستنجد . أستغفر الله بل لم نعلم أهى صوت انسان أم عزيف طائفة من الجان . ولما أفقنا من غشيتنا وجدنا

بعضنا ينظر الى بعض واذا بالمغنى يصيح . ياليل ياليل ، فما شككنا فى انه ينادى ليلة الحشر أو أبعد ليلة فى ماوراء التاريخ وأيقنا انه صاحب الزعقة الاولى . . . ياضيعة الأمل . أهذا هو المغنى الظريف اللطيف ذو الشفة الملمومة والأصابع المفسرة ؟؟ وانطلق الرجل يعوى وينهق ويصهل ويموء ويثغو وينعق ويصيح بصوت كل حيوان مزعج فى الارض — أهى بدعة جديدة فى الغناء المصرى وهـذا الرجل صاحب مذهب فى الموسيقى قد أراد أن يقلد صياح هذه الحيوانات محاكاة لأصوات الطبيعة ؟ ؟ لا افقد كنا نسمع منه صوت الانسان مرة على الاقل فى هذه المحاكاة

وبعد ، ألا يكون الرجل مازحا ؟ ؟ انها احدى اثنتين فاما أن يكون مازحا أو مجنوناً والا فان رجلا معافى سليم العقل فى شناعة صوته وقبيح تلحينه ورداءة طريقته لا يعقل أن يخدع نفسه فى الغناء ، وفى الغناء لاغير . فلقد كان أسهل له أن يدعى الامارة من أن يدعى الغناء لأن بين الامراء كثيراً ممن هم أقل كفاءة منه ولم أر من غير المغنين من هو أشنع منه صوتا وأقبح تلحينا وأردأ طريقة

ترى لوسمع هـذا المغنى مثل غنائه هـذا من أحد الناس أكان يغطى على سمعه كما غطى عليه الآن فلا يفهم أن مثل ذلك الصوت مما لا يسر سماعه ولا يحسن ايقاعه ، أم تراه كان يقدح فيه ويعيبه ؟ ؟ مانظنه الا كان قادحا فيه عائبا له وربما كان اشتداده على غيره بقدر اعتداده بنفسه . أما وهو مغن وليس بسامع فقد تغير الحكم وكان الواجب أن لا يتغير ، ولكن يظهر أن الانسان قد أعطى حواسه ليدرك بها غيره ولم يعطها ليدرك نفسه . وصدق من قال أن الانسان لا يرى وجهه بعينيه

وطفق الرجل يلحم دورا بدور ويضرب لحنا بعد لحن ، وكلما قلنا قد

انتهى اذا هو يبتدىء أو قلنا (ينجلى) اذا هو يحلو لك ويظلم . ونحن بحال لا يعلمها الا من ابتلى بمثل بليتنا فى ليلة كان يظن أن ستكون من أسعد لياليه فاذا هى كأنحس مامر به من الليالى . فلانحن نسمع شيئا يحسن السكوت عليه ولا يخلى بينناوبين أنفسنا فنتسلى عن السماع بالسمر . ولما يئسنا من سكوته من لدن نفسه أوعزنا الى أحد اخواننا أن يمازحه لعله ينصرف عن الغناء الى المزاح فمازاد على أن رد مزحته بابتسامه ومضى فى صريخه . . . قلنا ياسوء مادبرنا ان كان ينوى أن يقابل كل حيلة لنا بابتسامة منه فانه ليس أكثر لديه من الابتسام . فاوعزنا الى صاحب الدار أن يخفف عنا بعض ماقيضه لنا على غير قصد فيميل عليه بالراح لعلها تلجمه وتفل من غرب صوته فما زادته قاتله الله الا احتدادا واشتداداً كأنه الآلة البخارية يزيدها الماء ضوضاء وصريخاً . فلم يبق لنا من حيلة الا أن نفاتحه مازحين أو جادين بطلب السكوت فبعثنا اليه من يذكره سرا بضرر موالاة الغناء على الحناجر ويذكر له أناساً ممن اصيبوا فى أصواتهم لكثرة اجهادها وضنهم عليها بحظها من الراحة فكان كأنه لا يسمعه وكأنما حال زعيقه بينه وبين أذنه التى فى رأسه كما حال بين افواهنا وآذاننا فلم يصغ اليه ولا أبه له . ولما لم يجد تذكيرنا اياه بواجب الرأفة بنفسه لم نر بدا من أن نذكره بواجب الرأفة بنا فقال له أحدنا : أيها الشيخ . . ان كنت لا تعلم ماذا صنعت بنا فاعلم انك قد أفسدت علينا الهواء وضيقت بنا رحب الفضاء ، وقال الثاني : نعم وقد أضجرتنا

وقال الثالث : وقد أبرمتنا

وقال الرابع : وقد أزهقت أرواحنا

وهكذا دار الدور بالحاضرين فلم ينته الا وقد أتينا على جميع الفاظ

الضجر ومعانيه فى اللغة العربيه

أما هو فانه نظر الينا هازئا وقال وهو كأهدأ ما يكون : « يا للاسف ما كنت أحسب أن يبلغ بكم الجهل باحكام الصناعة ما أرى . ولقد نسيتم أيها السادة أنكم لا تنقدونى أجراً على غنائى، ولتعلموا بعد أنى لست متكفلا بسروركم وأنى انما أغنى لأسر نفسي فأنتم وشأنكم » ثم عاد الى ابتسامه وغنائه

أى وربك . انه ليس متكفلا بسرورنا كما قال، وقد صدق، ولكن اتراه كان متكفلا بتنغيصنا ؟ ؟ ونحن لا ننقده أجرا ، وهذا صحيح، فهل يكون فى حل من مضايقتنا لانه يضايقنا مجانا ؟؟ كذلك قضى لنفسه علينا ذلك لمشؤم ولم يستمع لنا مراجعة ولا اعتراضا فلا اراح الله آذاننا من صوته ملحنا ومتكلما أن لم نرحها نحن بانفسنا وان لم نصنع له بايدينا مالم يصنعه به عقل رجيح ولا ذوق سليم

ولا نعلم بم كنت قاضياً عليه أيها القارىء لو كنت فى موضعنا من الابتلاء به ولكننا نعلم أن الاربطة والكمائم تكون قد خلقت فى الدنيا عبثا أن لم يكن لها نفع فى كف مثل هذه اليد عن التوقيع وكم مثل هذا الفم عن الصريخ والتقريع . وكذلك صنعنا به فقد عمدنا اليه فكممنا فمه وربطنا يديه وأوثقناه بالمقعد الذى كان جالسا عليه ، والله يعلم اننا لم ننل منه بهذه المثلة بعض ما نال منا فانه ليس أضنى للنفس ولا أحق بالنقمة ممن يجبرك على سماع ما تكره أن تسمع ويمنعك الحديث مع من تحب أن تحادث ، وليس أقدر من المغنى المرق على أن يجعل مجمع الاخلاء ومجلس الاصفياء شراً من العزلة الانفراد

ولقد أتممنا سهرتنا فطاب لنا ما بقى منها بفضل المناديل والحبال بعد أن

أبت أن تطيب لنا على يديه بفضل المعازف والمزاهر ؛ ثم تركناه على تلك الحالة لا يقدر على أن ينبس بكلمة أو يحرك يده بنغمة وخرجنا واحدا بعد واحد وبودنا لو ننظر الى مواضع ابتساماته تحت تلك الاربطة الكثيفة!! ولكنا كنا ننظر اليه فنثق انه كان يشتمنا بعينيه شتما لا يقل عما يعاقب عليه قانون العقوبات



كتاب البؤساء (١)

- ١ -

نظرة فى ادب هيجو

« والآن ماذا يكون عطيل ؟ ؟ انه الليل . جرم شاسع رهيب . فالليل قد أغرم بالنهار ، والظلمة تعشق الفجر ، والافريقى يعبد المرأة البيضاء ، وعطيل يكون له من ديدمونة نور وخبال مهيج . ومن ثم فما أسهل دبيب الغيرة اليه ؟ ؟ انه لعظيم وأنه لمبجل مهيب . انه يسمو برأسه على جميع الرؤس ويمشى فى حاشية من الشجاعة والحرب وقرع الطبول وألوية الوغى والصيت الذائع والمجد الفاخر ، يتلألؤ عليه عشرون انتصاراً وترصعه الدرارى فى حلكته ، ولكنه بعد اسود الاديم ، فما هو الا أن تنفث الغيرة نفثها فينقلب البطل وحشا والاسود عبداً ويتصل ما بين الليل والموت

والى جانب عطيل وهو الليل ، ترى « أياجو » وهو الشر ، وهل الشر الا صورة أخرى من صور الظلام ؟ ؟ على أن الليل ليل الدنيا وأما الشر فهو ليل الروح . فما أعمق ظلمة الخيانة والنفاق . . لسواء كان ما يجرى فى خلال العروق مداداً أسود أو غدراً ذميا ـ فكلا هذين واحد . يعرف

---

(١) نشرت بالعدد الصادر يوم ١٨ اكتوبر سنة ١٩٢٢ من جريدة الأفكار

ذلك من قضى عليه بمدافعة المين والبهتان ، فان الانسان ليخبط مع اللؤم في ظلمة كظلمة الاعمى ولو أن الرياء أريق على طلعة الفجر لا نطفأ منه نور الشمس ، وهذا بعينه هو الذى يعرض لنور الله من أثر الديانات الكاذبة

أن « اياجو » بجانب عطيل لكالهاوية بجانب الجرف المنهار . يهمس فى أذنه أن تقدم . . فاذا الفخ ناصح بالعمى ، وعاشق الظلام يقتادالاسود والخداع يهب الليل بديلا مما يحتاج اليه من ضياء ، والرياء يصحب الغيرة صحبة الكلب للمكفوف

فعطيل العبد واياجو الخائن يأتمران بالبياض والطهر. وأى شيءلعمرى أهول من ذلك ؟ ؟ أن هذين السبعين الضاريين من سباع الظلمة يعملان على وفاق . أن هذين المظهرين المتقاربين من مظاهر الخسوف ليتمالآن بين زمجرة من أحدهما وتهانف من الآخر على خنق فاجع للضياء

وتعال نسبرغور هذا الامر العميق . أن عطيلا هو الليل ، واذ كان ليلا وكان يريد أن يقتل فأى سلاح يا ترى يختاره لفعلته ؟ ؟السم ؟ ؟الهراوة الفأس ؟ ؟المدية ؟ ؟ كلا . بل الوسادة . . فالقتل عنده هو أن يستهوى من يقتله الى الهجوع . ولعل شكسبير نفسه لم يقصد هذا الذى نشير اليه ، ولكن العقل المبدع ينساق على غير ارادة منه فى معظم الاحيان الى ماهو خليق بقالبه ، فيكون هذا القالب قوة . وعلى هذا النحو ماتت ديدمونة قرينة الليل مكظومه الانفاس تحت وسادتها التى تلقت عليها قبلتها الاولى ولفظت عليها النفس الاخير . . . »

انتهى ما أردنا نقلة من كلام فكتور هيجو . نقلناه من كتابه على وليام شكسبير واخترنا هذه الكلمة بغير كثير بحث ولا مقارنة لانها أجمع ما رأينا لشتات ما يعاب على هذا الاديب فى شعره وكتابته ويكاد يتفق عليه

أئمة النقاد من أنصار المدرسة الحديثة . أما هذه العيوب على الجملة فهى. اطنابه فى غير طائل وايثاره القشور المموهة على اللباب المثمر والتفاته من الاشـياء الى علاقاتها الوهمية دون علاقاتها الصحيحة وانه عظيم الشغف. بالاخيلة الضخمة يستحضرها ويحتفل بترويقها والتزيد منها تقديماً لوقع الـكلام فى السمع على مغزاه فى الذهن ومسراه فى النفس ومصدره من القريحة المنزهة والسليقة الخالصة. وترى هذه العيوب ظاهرة على هذه الـكلمة فى طريقة تناوله لشخصية عطيل وفى عكوفة على جانب واحد سطحى من. هذه الشخصية،وهو سواد لونه الذى جعله محور وصفه ، وطفق يبدأ منه ويفتأ يعود اليه ، ويفتن فى تكريره ويدخله فى ضروب شتى من المجاز والطباق واللعب بالالفاظ . وهكذا كان سواد الرجل هو السر فى حبه. لديدمونة وهو السر فى الصلة بين عطيل و «أياجو» وهو السر فى اختيار الوسادة لقتل حبيبته وهو القرينة التى جلبت ذكر الخسوف وسباع الظلمة والشر والمداد الاسود وكلب المـكفوف وكل ماأفاضه الشاعر على وصفه. من كنوز خياله الغنى بهذه الثروة الزائفة . فأى علاقة لهذه الاشياء كلها غير الوهم والتمحل ؟ ولم تخل من المآخذ التى سردناها هنا كتابة لفكتور. هيجو شعراً كانت أو نثراً ، الا انها تتفرق وتجتمع وتقل وتـكثر وتختلف. حسناً وقبحاً حسبما يسعفه الحدس ويمده اللفظ . ونظنه لايقل منها اذا أقل الاعن عوز الى المادة وعلى أسف لنزارتها وضيق موردها وبعد يأس. من توفيرها والاغراق فيها وليس ترفعا عن هذا السفساف أو كراهة لمافيه. من عوار وتشويه

ولوكان هيجو كتب تلك الـكلمة فى أبان حداثته لـكان له شفيع. من نزوات الصبا ومافطر عليه الشباب من الاغترار ببهرج الاشياء ، وقلة.

التمحيص والكلف بأول زينة تطالعه وتجذب نظره دون التفطن الى دخيلتها أو البحث عن سر علاقاتها وروابط معانيها ولكنه كتبه بعد اذ نيف على الستين وبلغ غاية النضج . فالعيب فى طبيعة مواهبه لا فى غرارة سنه وحداثة تجاربه

كذلك لا نرى الاعتذار له بتقدم زمنه وغلبة الميل الى الزخرفة فى أهل جيله وأن الآداب كانت عند ظهوره متخلفة والعلوم قاصرة والنظريات الخلابة فاشيه فى ابحاث العلماء فشوها فى قصائد الشعراء وانشاء البلغاء : فهذا عذر لا يخلى صاحبه من النقص ولا يبرئه من وصمة الزغل الذى انغمس فيه عصره ، وكاى من أديب مطبوع نبغ في عصر هيجو أو فى عصور تماثله ولم تؤخذ عليه هذه العيوب ولا قاربها كأنه صاحب البنية القوية يعيش بين المرضي ولا تنتقل اليه عدواهم ؟ ؟ ولا حاجة بنا الى الاستشهاد بادباء الانجليز والالمان والطليان الذين عاصروا هيجو وشاركوه فى فنون الكتابة وسلموا من عيوبه فان فى نشأة المتنبى وسلامة شعره من سخف الصنعة وبهرج المحسنات في أبان رواجها وعنفوان نشأتها ما يغنى ويدل على أن الفطرة الصادقة تعصم صاحبها من مثل هذا الزلل أو تصده عن الايغال فيه على الاقل أيا كان الوسط الذى يحيط به

وأعجب مافى الامر ان ترد العبارة التى اقتبسناها وعشرات من أمثالها فى عرض كتاب عن شكسبير يتضمن نقد أدبه وتقدير لخولته ـ فهل درس هيجو أدب شكسبير حقاً ؟ ؟ ليخيل الينا أن النفى أولى بان يكون الجواب على هذا السؤال مع غرابته وصعوبة توجيهه. والا فان الذهن الذى يدرس شكسبير ولا يتثقف به ولا ينتفع منه بما يزيح عن بصره غشاوة الفتنة بالظواهر والتخايل بالصنعة الباطلة والزخرف الملفق لهو ذهن من

أفشل الاذهان وأبعدها عن استقامة الفطرة في الفهم والاداء ، وليس ذهن هيجو من الاعوجاج والخباء بهذه المنزلة لاننا نبصر له وميضاً يخطف الابصار احياناً ونجد بين سطوره من براعة الفهم وحسن الايحاء والالمام ما يونق ويعجب . فكيف نوفق بين هذا الذكاء وبين هذا العجز عن الاستفادة والقصور عن الفطنة الى مواطن الجمال الحقيقى ومزايا الادب العالى ؟ ؟ أم لعله ذكاء المنار الذى شبهه به نيتشه اذ يقول : انه منار ولكنه مقام على اوقيانوس من الكلام الفارغ ؟ ؟

على اننا لا نحب غلو نيتشة فى النقد ولا نحسبه يعنى كل ما يقوله . ولا نذهب مذهب الآخرين الذين يتهمون هيجو بالسرقة واصطياد جميع محاسنه المأثورة من غيره . ونرجح أن الرجل لو أصاب من يفهمه شكسبير فهماً جيداً فى شبابه لانتفع به كثيراً

***

وكيفما كان الرأى فى مواهب هيجو فما لاشك فيه عندنا انه حرم فى كتابته مزيتين من مزايا الادب الرفيع والعبقرية العالية : وهما مزية الفطنة الى الجمال [illegible] الصادق ومزية التعمق فى الفكر . وليست هاتان المزيتان بعد [illegible] بعض المقلدين الآخذين بأطرف الآراء الواقفين عند القريب [illegible] حدودها . اذ نحن لا نفهم لماذا لايكون الفكر العميق جميلا ؟ ؟ ولكننا نفهم أن شهود الجمال والشعور بالتعب منه لا يتفقان ولا يجتمعان فى لحظة واحدة . وان الجميل شيء غير المتعب في النظر . فالذين يكد رؤسهم ويشق على بصائرهم أن يدركوا بواطن الافكار الكبيرة يحق لهم أن يحسبوا الفكر العميق والجمال ممتناقضين وان لايروا بينهما نسبة ولا صلة ، ولكن الذنب في ذلك ذنبهم واللوم عليهم . وليس هذا القصور

منهم بمانع أحدا ممن لهم قدرة على التبصر واستكناه خبايا الامور أن يستروح اجمل الجمال من أعمق الافكار

***

ولا بد من كلمة موجزة قبل الختام فى التفرقة بين الجمال البسيط الصادق وزخرف الصنعة الكاذبة . فمما لا يقبل الجدل أن النفوس مجبولة على أن تطلب الجمال وأنها لا تكتفى بالنافع . ونحن لا نشرب اليوم فى قعب من الخشب لاننا لا نقتصر فى صنع أدواتنا على تحرى المنفعة البحتة منها . ولكننا نشرب فى آنية تحمل الماء كما يحمله القعب مع جمال فى اللون والصنعة والملمس والمنظر ، ولكن هل ترى اننا لوجئنا بالقعب الاول ووشيناه بالحرير الناعم وحليناه بالذهب البراق وعلقنا على حواشيه من الجواهر النفيسة ماتغلو قيمته وتسر رؤيته أتظنه يكون بهذه الحلية المصطنعة اجمل رونقا مع اعتباره آنية للشرب من كوب الزجاج المتقن البسيط ؟ ؟ كلا . وسبب ذلك انه لم يعد قعبا ولا كوبا ولكنه عاد شيئاً مستعارا له الجمال من غيره لتكلف الاعجاب والنفاسة ، وأما الكوب فهو بخلاف ذلك لانه جميل وهو كوب لم يستعر له شيء من خارجه

وكذلك يجب أن تكون المعاني جمالها فى ذاتها وفيما تؤدى به وظيفتها وفيما تلزم به طبيعتها وليس فيما يضاف اليها من الفاظ منمقة وأخيلة مستعارة متكلفة

كتاب البؤساء (١)

- ٢ -

ترجمة الجزء الثانى

وبعد ما بيناه من الرأى فى أدب فكتور هيجو هل أحسن حافظ أو أساء بترجمته هذا الكتاب أو هذه الرواية — ان صح انه روايه — وليس هو كذلك ؟؟ ولنعلم قبل البدء بالجواب أن كتاب البؤساء كسائر كتب هيجو محشو بما يؤخذ عليه من عيوب الصنعة والفكر وانه فى رأى كثير من النقاد أضعف مصنفات الشاعر من الوجهة الفنية ، اذ ليس فيه صورة شخصية واحده كاملة الشكل صادقة التحليل ، وقل فيه مايطابق الحقيقة من أوصاف النفوس وأطوار الفكر والجسد وأكثره ممالا يقره كتاب الطريقة « النفسية » ولايرضى عنه الثقات من نقاد فن الروايات . ومن الامثلة على أخطائه فى هذا الجزء الصغير الذى أبرزه حافظ اليوم وصفه لفانتين فى مرضها وما يتخلل سياق الفصول أحيانا من تحليل السرائر وتعليل الخوالج والخواطر ، فانه لم يفلح فيما تعمل له من هذا القبيل الا نادراً وكان فلاحه فيه قريب المدى قليل الجدوى . فهل أصاب حافظ أو اخطأ فى انتقائه هذا الكتاب للترجمة ؟؟ قد يقال انه لم يخطىء لانه أخرج لنا كتابا

---

(١) نشرت فى العدد الصادر يوم ١٩ اكتوبر سنة ١٩٢٢ من جريدة الافكار

من جنس الادب الذى تعود قراؤنا أن يعجبوا به ولاسيما فى العهد الذى ظهر فيه جزؤه الاول ، وانه اذا كان الشغف بالزخرف وخلابة اللفظ مما يعاب على فكتور هيجو فانه عيب لاينكر من عيوب الادب عندنا فى الجيل الماضى . ولسائل أن يسأل هل هذه وظيفة المعربين ياترى ؟؟ وهل كل مايطلب منهم أن ينقلوا الينا ماهو قريب من عيوبنا موافق لاذواقنا وان كانت على خطأ وضلال ؟ ؟ هذا هو موضع النظر : وقد يقال من ناحية أخرى أن حافظا أخطأ خطأ مضاعفاً لانه فى هذا الوقت الذى أخذت فيه العقول تتفتح على الصواب وتفطن الى فضائل الآداب الصحيحة وأصول النقد الحديث جاءنا بكتاب يضلل النشء ويدس فى روعهم ان مايعجب به المعجبون من آداب الغرب لايختلف فى روحه ومنهجه عما يعجبنا نحن من الآداب العتيقة وصنوف البلاغة الغثة الممجوجة فيختلط عليهم الامر ولا يتبين لهم فاصل ظاهر المعالم بين الصدق والتمويه والاصالة والتقليد ـ قد يقال هذا وقد يقال ذلك ولا يخلو القولان من قسط من الصواب

على اننا لانعنى بهذا القول أن العمل ضار لا نفع فيه ولا أنه قليل النفع أو ضئيله فان للكتاب محاسنه كما لايخفى وفيه الجيد كما فيه الردىء وليس من الصعب أن يتلافى خطأه بلفت النظر اليه وتصحيح وهم الواهمين انه مثال للادب الاوروبى المختار وقدوة يقتدى بها المحدثون من أنصار الاساليب العصرية . فاذا قرأه القارئون وهم على علم بما خذه فقد لا يتسرب اليهم كثير من خطئه . ومن يدرى فلعل هذا الخطأ لايضرهم الاريث أن يشعروا به فيصلحهم وينفعهم . لانهم على الاكثر بين غافل عنه لايدقق فى فهمه فهو بمعزل عن خيره وشره ، وبين متنبه له فهو محترز منه . ومن هنا تهضمه المعدة القارئة وتستخلص منه مايفيد ممزوجاً بقليل من الضرر الذى لايشعر به الاساعة التهيؤ للخلاص منه . ولكننا نعود فنقول أن

غير هذا الكتاب قد كان أولى بالعناية والمشقة التى صبر عليها حافظ حتى ترجم ماترجمه الى الآن فى جزئيه . وهو أقل من ثلثه . وليست اللغة الفرنسية بالفقيرة فى مؤلفات أبنائها وغير أبنائها وليس قليلا فيها من آثار العبقرية مايجمع بين الاقتدار والبلاغة واللذة الادبية

***

أما هذا الجزء الثانى من حيث هو ترجمة من عمل حافظ فلا خلاف فى انه ذخيرة طيبة بين ذخائر اللغة العربية وصفحة نادرة من صفحات البلاغة فيها . ولا نغالى اذا قلنا اننا نرى الترجمة العربية أعلى طبقة فى البلاغة من طبقة بعض التراجم الانجليزية فى لغتها . وهنا نقف . .

نعم نقف هنا لاننا لانستطيع أن نزيد على ذلك مزية أخرى للترجمة العربية ولا يسعنا أن نقول انها تضاهى الترجمة الانجليزية التى بين أيدينا فى الدقة وضبط العبارة . واللوم فى ذلك على حافظ لانه اختار أن يتصرف بلاضرورة تلجئه الى التصرف سوى الاسترسال مع طنين الالفاظ أو تحاشى مايحسبه نابياً عن السمع منافراً للاستطراد . وأول مالفتنا من ذلك اننا قرأنا فى الكتاب عبارة خيل الينا أنها لاتكون فى الاصل . وهى « فلم يكد يلمح تلك التحايا لانه وقع فى ذهول قد افترس طائر حلمه » ولو أننا وجدناها فى الاصل لما استغربنا كثيرا لانها شبيهة بنمط هيجو فى الكتابة . وخطر لنا ان نراجعها فلما رجعنا الى الكتاب اذا هى زائدة لا أثر لها ، فكأن حافظا لم يكفه مافى عبارة هيجو من هذه المجازات والاستعارات على وفرتها حتى أراد أن يتمها . . وليته وفق الى صواب فى زيادته فان الحلم يوصف بالرجاحة والوقار ولا يشبه بالطائر المستوفز الخفيف

وقد راجعنا جملا متفرقة هنا وهناك فألفينا بعض الحذف والتحريف فى أكثر الفقرات التى بحثنا عنها اتفاقاً للمقابلة . ومنها هذه الجملة فى

الصفحة الرابعة وهى « ولبث ماشاء الله يرى السعادة فى يقظة الضمير فكان كلما بضع الندم على ماضيه من فؤاده بضعة شعر فى نفسه بوفر تلك السعادة ولقد تكفلت حسنات الشطر الثانى من حياته بغسل حوبات الشطر الاول» وترجمتها نقلا عن النسختين الفرنسية والانجليزية « وكان سعيداً بما كان يخامر ضميره من حزن يعتريه من أثر ماضيه ، وبأن يرى شطر حياته الثانى على نقيض من شطرها الاول . فعاش فى دعة . وقد عاودته الثقة واطمأن » ومن قوله فى الصفحة الخامسة «على انه لم يشهد مشهداً لهذا العراك كان أشد هولا وأعظم مراساً من ذلك الذى مر به حين دخل عليه حافير ولفظ أمامه ذلك الاسم الذى درج فى أثناء النسيان فاضطربت له نفسه من داخل الجسد واستخذى عند سماعه وعجب لذلك الجد الذى لا يفارقه العثار » وأصلها :« ومما ينبغى أن يقال انه لم يعرض له عارض كهذا الذى مر به في حاضره . وما اشتد العراك بين الفكرتين المسيطرتين على ذلك الرجل المنكود الذى نصف عذابه كما اشتد بينهما فى ذلك الحين . وقد خطر له ذلك على شيء من الابهام ولكنه على غموضه بعيد القرار ، خطر له مذ لقيه جافير بكلماته الأولى عند مادخل عليه مكتبه ، فبهت حين فاه أمامه بذلك الاسم الذى تعمق فى قبره . وكانما أسكرته غرابة جده المنحوس » ومنها وصفه للعجلة فى صفحة (٤٨)فانه حذف فى ثلاثة أسطر أكثر من سطر مع لزوم ماحذفه من الوجهة التاريخية .ومنها قوله عن فانتين فى صفحة (٦٦) — : « ولقد كان لتشويه خلقها أثر فى تشويه خلقها » والذى يقوله هيجو « أن ألم الجسد قد أتم ما بدأه ألم النفس » وقوله فى صفحة (٨٠) ـ « وكان رئيس الجلسة فى أراس ممن يعظمون مادلين ويبجلونه » والذى فى الاصل انه كان يسمع باسمه المبجل فى كل مكان . وقوله عن حاجب الجلسة فى الصفحة نفسها : « فسلم وانحنى

حتى كاد يمس الارض بجبهته وحتى تبين مادلين أعظامه فى حماليق عينيه » والذى فى الاصل نقيض ذلك وهو أن مادلين سمع فى ذهوله قائلا يقول له الخ ولم يتبينه ولا رأى شيئاً فى حماليق عينيه . وقد كان الواجب على المعرب أن ينبه الى هذا التصرف وليس عليه كبير حرج لانه لم يمس جوهر المعنى فى عمومه الا فى مواضع محصورة مما قابلناه . ولكنه سكت عن التنبيه وزاد على ذلك ان قال فى هامش الصفحة الثامنة والثلاثين انه فى « هذه الصفحة وحدها قد أضاف كلمات من عنده دعاة اليهـا حسن المقابلة فى المعانى واطراد القول » وهذا خلاف الحقيقة كما ترى .

***

ولا نأخذ على حافظ بعد ماسبق الا مأخذين قد يسره أن يعابا عليه. وهما الحرص على ارضاء الجامدين من بقايا المدرسة العتيقة والمبالغة فى الخوف من الابتذال حتى كاد هذا الخوف يكون جبناً أدبياً فى بطلنا الجندى القديم .

أما ارضاء الجامدين فأنه لم يظفر به ولن يظفر به بعد ما أعنته طلابه وأجهده تحريه ولا نخالهم يقيلون له عثاره . فقد سقط فى بعض الاغلاط التى كان لا يتعذر عليـه اجتنابها ، وسيحاسبونه عليها فلا يحسبون له ماتجاوزه من المفردات والعبارات التى يتحرجون منها بلا حرج فيها غير الحرج الذى فى عقولهم والضيق الذى فى حظائر نفوسهم

وأنا لنعجب غاية العجب من رجل يمارس ترجمة صفحة واحدة من لغة أجنبية ثم يأبه بعدها لتجنى هؤلاء القاعدين المتشدقين الذين لا يحسنون أن يكتبوا ولا يدعون غيرهم يكتب . وهل فى لغة العرب كلها منذ الف فيها المؤلفون الى اليوم كتاب واحد أو بعض كتاب وافق شرطهم فى الكتابة

أو خلا من مآخذهم فيها ؟ ؟ أليس فى القرآن الحكيم كلمات من جميع اللغات التى عرفها العرب وحروف على غير القياس الذى اخترعه النحاة بعدذلك ؟؟ بلى ! ولكن هؤلاء القاعدين المتشدقين لايروقهم أن يكون فى الكلام حرف أعجمى أو وضع على خلاف السماع . فمن لحافظ اذن أو لغير حافظ بارضائهم ؟ وماذا يعنيه من رضاهم وغضبهم وانهم لاحرى بالخجل ممن يعيبون عليهم ؟ ؟ وهل مما شاة سنة الاحياء فى اللغات ونبذ الجمود الذى لاتقر عليه حياة عيب يعاب ! !

وأما الابتذال فقد أخطأ حافظ فهمه وينبغى أن نحاول تعريفه قبل أن نبين وجه الخطأ فى فهم معناه . فالابتذال عندنا هو أن تتكررالعبارة حتى تألفها الاسماع فيفتر أثرها فى النفس ولا تفضى الى الذهن بالقوة التى كانت للمعنى فى جدته . ومن ثم فالابتذال مقصور على التراكيب ولا يصيب المفردات . ومادام للكلمة معناها الذى يفهم منها ، وهي سرية مصونة ، فلن يتطرق اليها الابتذال ولو طال تكرارها . والا فنيت اللغة وانقرضت جميع مفرداتها بعد جيل واحد

وعلى هذا ليس مما يشكر عليه حافظ ولا مما يعد توقياً منه للابتذال أن يستبدل «عابا» بعيب فى قوله « وقدكان أيسرعاب بها انها حدباء » أو معناة بمعنى فى قوله « وهذان أيضاً لامعناة للابقاء عليهما » أو خرصت بظننت فى قوله « ثم رفعت لى قرية فيممتها فخرصت عليها انها قرية رومانفيل » أو بسلا بحرام فى قوله : « بسل على أن تموت فانتين » الى أمثال ذلك مما هو بالحذلقة أشبه . وما عناؤك أن تسلم من ابتذال اللفظ فتقع فى فكرة مبتذلة ؟ ؟

ولنا أن نلوم حافظاً على سىء آخر . ذلك انه حذف عناوين الفصول

وأدمجها كلها فى فصل واحد فوزع من الكتاب ماقسمه صاحبه ؛ وقد أفسد عليه هذا الولع بالوصل الذى ظنه من لوازم الاسلوب العربى جملا كثيرة سمعناها منه ثم عدنا فقرأناها على وضع آخر . ومنها هذه الجملة فى وصف أهل الجلسة حين قام بينهم مادلين يعترف على نفسه بالجريمة « فذهب بأهل القاعة وحالوا الى عيون تنظر، وأفئدة تخفق ؛ فلم تعد ترى فيها قضاة ولا مدعين ،ولا تلمح اشراطاً ولا مدافعين ـ أنسي كل غرضه ـ نسي الرئيس انه جاء للرآسة والمدعى انه قام للاتهام والمحامى انهمثل للدفع والحرس انهم أقيموا للحراسة » فقد سمعناها منه هكذا ثم لج بهوسواسه فأضاف (الواو وقد) قبل نسى فذهب بما لمفاجأة الاقتضاب من معنى بليغ فى هذا المقام . وغريب هذا منه مع انه أحسن الفصل فى غير جملة من الكتاب

ولكن لا ننسى أن حافظا جهد لاجتناب لنقص والخلل وانه أراد خيراً وصنع خيراً . فاستحق عذراً جميلا وشكراً جزيلا

وانا لعاذروه وشاكروه . وحامدونله ما أفاد به من فضل وعناية

على اطلال المذهب المادى (١)

« كلما انحط الانسان فى القوة العقلية قلت مسائير الوجود فى نظره . فكل شىء عنده يحمل معه تفسيراً لكيفية وجوده وسبب حدوثه »

(شوبنهور)

للاستاذ البحاثة فريد وجدى فضيلة خاصة قل أن رأيناها لاحد غيره من كتاب مصر وعلمائها فى هذا العصر وهي فضيلة المثابرة على العمل وخلوص النية للعلم والبحث . فهو لايفرغ من تأليف مؤلفاته العديدة الا ليشرع فى تأليف جديد . وكفى من آثار هذه الخصلة النادرة انه استطاع أن يتم دائرة معارفه فى وقت لم يكن أصعب فيه من تأليف الكتب ، والمطول منها على الخصوص ، لانه وقت الحرب. وناهيك بمشاق الطبع فى ذلك الوقت واستجلاب كتب المراجعة وماهو أعظم من ذلك فى عقبات الحياة الادبية عندنا وهو ضيق الصدور وقلة صبر الناس على المطالعات الجدية المطولة وانكباب أكثرهم على القصص التافهة والموضوعات الفارغة التى لا محصل لها من علم أو خلق أو ذوق . ويقيننا أن الاستاذ وجدى على تقدير الكثيرين بيننا لفضله وثنائهم على جده واخلاصه وأعجابهم بنزاهته لايزال مغموط الحق لا يستوفى حظه الواجب من الانصاف وسيعرف له المستقبل عمله أكثر من معرفة الحاضر به .

---

(١) نشرت فى عدد يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٩٢٢ من جريدة الافكار

والكتاب الذى بين أيدينا اليوم من مصنفاته الكثيرة الميمونة هو كتابه « على اطلال المذهب المادى » وهوسفر قيم فى ثلاثة أجزاء تبلغ زهاء خمسين وثلثمائة صفحة من القطع الكبير . واسم الكتاب ينم على موضوعه فهو مخصص لنقض المذهب المادى وايراد أقوال طائفة من كبار الفلاسفة والعلماء على بطلانه والدلالة على قصر نظر المتشبثين بالمادية البحتة يظنونها آخر مايعرف من حقائق هذا العالم ويخيل اليهم أن « لا » التى يقولونها ليس بعدها « نعم » ولن يأتى بعدها جواب آخر . ويكاد يكون محور الكتاب معنى الجملة التى اقتبسناها من شوبنهور وصدرنا بها هذا المقال

وأقل مالهذا السفر من الاثر هو أنه يعلم من له استعداد للتعلم كيف يشك فى شكوكه وكيف يستضخم هذا الكون الازلى الابدى عن أن يكون له حل واحد بسيط يقنع بقبوله أو رفضه ثم يستريح منه بنعم أو بلا كما يستريح من حل مسألة حسابية عرف جوابها وروجع ميزانها . وجزى الله الاستاذ خير الجزاء على هذه الاريحية العلمية فانه أراح طائفة أغرار الملحدين من عبء النظر فى عشرات الكتب النفيسة التى لا تصل اليها أيديهم ولا يظنونها تنفعهم شيئا أو تحول نظرهم الى اتجاه جديد بعد الحكم المبرم الذى أمضوه على هذا الوجود وفرغوا من شأنه .ولوسئلت رأيى لأبيت الا أن أكلفهم ثمن الافاقة من هذا الغرور بكدعقولهم وتلظى نفوسهم. لان الخروج من الجهل الذى أسبغوه على أنفسهم ليس بالمطلب السهل الرخيص المنال .ألا تراهم يمنون على الناس بايمانهم وتصحيح عقولهم ويجلسون مجالس القضاء فيقولون « أن العقائد التى رويتموها لنا مشوبة بالاوهام والترهات والخطأ الظاهر للحس فلا حرج علينا من رفضها حتى

يجيئنا من العقائد مايقوم البرهان على صحته ؟؟ وانه لقول ينبيء عن قصور فى فهم الواجب على الباحث خاصة وعلى الناس عامة . اذ أى سلطان فى الدنيا يلزم طائفة من الناس واجب التنقيب عن الادلة المثبتة للعقائد الصحيحة ويطرح عبء هذا الواجب عن الطائفة الاخرى ؟؟ ولماذا تنتظر هذه الفئة من أغرار الملحدين فى مكانها كأنها الشارى فى الحانوت يجلس على كرسيه ويقوم البائع بعرض السلع عليه واحدة بعد واحدة فيقبل ويرفض وهو متكىء فى موضعه ؟؟ لم يكون هذا البحث واجب ذلك البائع ولايكون واجبها ؟؟ لم تنتظر أن يجيئها اليقين من غيرها ولا تعمل لاستخراجه من ذات نفسها ؟؟ وهب كل دليل أتى به الناس من قبل على صحة الايمان قد بطل وانتفى فهل هذا مسقط عن أحد منهم فريضة التماس الهداية ؟ ؟ أترى هذا الكون شركة مساهمة لسمسارا وسماسرة قد استأثروا بمصادره وموارده ليروجوا له ويقنعوا الناس بفلاحه وربح أسهمه فيشترى منهم من يشاء ويعرض عنهم من يشاء ؟؟ كلا : فانما الكون شركة الجميع ولكل من الناس حصته فيه وعلى كل منهم واجب البائع والشارى والمروج والرابح والخاسر والوسيط فى آن واحد . فلنطلب الحقيقة كلنا ولا يحتج أحد منا الى زخرفتها وتمويهها فماهى ببضاعة لاحد ألاولتكن قليلة أو كثيرة ومشوبة أو خالصة ومرة أوعذبة وكريهة أو شهية ، فمن استقلها فليكثرها ومن رأى فيها الزغل فلينقها ومن عافها أو كرهها فليصلح منها ماعاف أو كره . وليس لامرىء أن يقول أرونى أصل كونكم هذا لاقول لكم هل أصبتم أوأخطأتم وهل أفلحتم أوحبط سعيكم . بل تعال أنت فاخدم نفسك معنا فليس أحد منا بخادم لك ولا أنت بضيفنا فى الكون فنمهد لك منه مالا تريد أن تمهد بيدك

ولكن الاستاذ وجدى مشفق على هؤلاء الاغرار يستصعب عليهم هذا الطعام القوى فيسوى لهم اللقمة ويجهزها للتناول . فلعلهم يزدردونها سائغة ولعلها تنفعهم على سهولة متناولها . ولو أدى هذا الكتاب الغرض المؤلف لاجله لكانت فائدته الوطنية الاخلاقية اكبر من فائدته الدينية ، لانى أعتد الحاد الطائشين آفة فى الاخلاق وطبيعة النفس ولعنة فادحة تعتور أعمال الانسان قبل أن يكون لها أثر فى معتقده وفكره . اذما هو الكفر فى معناه الحقيقى ؟ ؛ انه الارتياب فى نظام الوجود . فى حكمة الحياة . فى نفس الانسان . فى غاية أعماله وأهوائه . فى حبه وبغضه وأمله ويأسه وسعادته وشقائه وشرفه وضعته وفى كل ماهو فيه وماهو خارج عنه انه وقفة الانسان بين عوالم لايأمنها على نفسه ولا يطمئن منها الى ملاذ قرير فهو فى مابينها طريد شريد غاضب مغضوب عليه . ولكم خطر لى ـ لهول معنى الكفر فى نفسى ـ أن الانسان لن يكون فى طاقته أن يجحد الله صدقا ولو قال ذلك بلسانه واعتقده فى روعه كما ليس فى طاقته أن يجحد نفسه ولو أنكرها بقوله واعتقد انه كاره لها متبرم بوجودها ولم يخطيء الاقدمون فى هربهم المرعب من الكفر بل ربما كنا نحن أحق منهم بالرعب لانهم كانوا يكفرون باله ليؤمنوا باله آخر وينبذون نحلة ليأخذوا بنحلة غيرها ، كانوا يكفرون بالسنتهم وقلوبهم مطوية على اليقين، أما نحن فمن يكفر منا فقد أراد أن يجتث نفسه اجتثاثا من شجرة الوجود وباء بلعنة دونها تلك اللعنة المعهودة فى نذر الاقدمين . فان كان الكافر منهم على نظرة من خسارة الحياة المقبلة فالكافر منا معجل العقوبة فى الدنيا قبل الآخرة .

ولقد قلنا أن فائدة كتاب وجدى الوطنية الاخلاقية أكبر من فائدته الدينية لاننا نعلم أننا لم نصب فى نهضتنا الوطنية من ناحية أضر من ضعف

اليقين وقلة الثقة بمبادىء الاخلاق السامية. وهي عيوب فى النفس قلناقبل أن تكون عيوبا فى طرق التفكير . ولولا هؤلاء الهلافيت الذين ملأهم جهلهم حتى لم يبق فيهم فراغاً لجهل أو لعلم والذين لاغفلة عندهم الاغفلة الاعتقاد بان هذا الكون العظيم فيه ربح للنفس غير الغذاء والكساء وغلائظ الشهوات ، لما كانت حالتنا الآن ما ترى

فعلى هذه الفوائد المضاعفة نشكر الاستاذ الجليل راجين له التوفيق فى جهاده الصادق ولنا بعد كلمة نظنه على رأينا فيها وهى أن أخطر الشكوك ماداخل الفكر من ناحية العقائد الباطنة لامن ناحية المشاهدات الحسية . وان أنجع البراهين مايحسم شكوك النفس لامايقنع ظاهر الحس. فالعناية بهذه البراهين العقلية النفسية مقدمة على العناية بما كان من قبيل تحضير الارواح وما يروى عن أعمال المحضرين ولو كان كل مايروى عنهم صحيحاً.

*
* *

نقول ذلك لاننا نشك فى أكثر الروايات من هذا القبيل . غير اننا لا نشك فيها تغليباً للمادة وانكاراً للمغيب المجهول كبعض الذين ينكرون الارواح وتحضيرها . وانما يعترينا الشك من ناحية واحدة : وهى تنزيه العالم المغيب والتماس الوحدة والارتباط بين مانستشفه من قوانينه وأغراضه وبين مانراه من ظواهره التى يقع الحس عليها ، وقد يبدو لنا أن انتهاء البحث القديم المعضل فى أمر الروح باظهار الروح نفسها للباحثين فيها لهو كالاختبار بامتحان يعطى فيه نص الجواب مع السؤال ؛ أو كالفراغ من دست الشطرنج برفع الشاه ووضعه فى العلبة بدلا من متابعة اللعب الى النهاية . ولنفرض مثلا أن رجلا امر ابناءه بالسفر فى رحلة مجهولة وجعل على كل منهم مبلغاً من المال يكسبه لتصلب على العمل أجسامهم وتحصف

بمزاولته عقولهم ؛ وليختبر بتحصيلهم ذلك المبغ ما استفادوه من علم بمسالك الاقطار ومصاعب السفر وتقليب الاسعار والسلع . وانهم لما تفرقوا عنه وبلغوا من الرحلة عقبتها ومن التجربة معضلتها أنفذ الى كل منهم ان اذهب الى مكان كيت وكيت تجد المبلغ الذى فرضته عليك فخذه واحمله الى لتسرنى بنجاحك فى ما أخرجتك من أجله . أولا يكون ذلك غريباً؟ ؟ ألا تراه مبطلا لغرض الرجل من تدبيره ؛ معطلا لسعى أبنائه ، ملغيا لرحلتهم من مبدئها الى معادها ؟ ؟

وهذا العالم الانسانى قد درج فى كل عهد من عهوده ، وفى كل عمر من أعمار وحدانه وجماعاته على أن يمارس الحقائق ممارسة ولا يلقنها تلقينا وما كشف سراً للطبيعة ولا اتقى لها ضررا ولا استخدم قوة فيها ولا فض الاغلاق عن أصغر قانون من قوانينها الا بعد اهوال شداد وأغلاط تبدأ وتعاد وغصص تجرعها قطرة قطرة ثم توارثها فترة بعد فترة ، وليس بين تواريخ الانسانية ذات الشعب والمناحى المختلفة ماهو احفل بالضحايا والآلام من تاريخ العقيدة ونعنى به تاريخ الروح الباطنة . أو تاريخ البحث عن الروح فى الانسان وفى الوجود . وياله من سجل دموى رهيب

فلقد خاض الانسان نار الجحيم فى معراجه الى تلك السماء . فلوثته دماء القرابين الآدمية وشقى دهورا بالمذابح والحروب الدينية واقترف أشنع الآثام وأبشع الفظائع وهو يزعمها هداية وصلاحا ويتقرب بها خاشعاً متبركا ويرجو المثوبة عليها وهو فى ظاهر الامر بالعقوبة أولى . ففى أى شىء حمل تلك الجهالة وفى اى سبيل ذهبت تلك الضحايا ؟؟ لقد كان يخوض جهنما بعد جهنم من تلك التجارب لينتقل من عبادة خشبة الى عبادة خشبة غيرها قد تكون مثلها من جميع الوجوه وقد تفضلها من وجهة نظر خفية

بعيدة لاتستحق فى الظاهر كل هــذا الشقاء والمطال . وكانت له صرعات تتكرر ومحن تتوالى فى شوط الوثنية وحده فما تنقل من اسفل دركاتها الى اعلاها حتى صلى منها الواناً من العذاب لايحصرها الوصف ، ثم وراء ذلك جهاده فى التوحيد والتنزيه ؛ ووراء جملة تاريخ العقيدة الخاص بها تواريخ ضحايا أخرى هى ضحايا العلوم والفنون والصناعات وهى التى ساعدت على تصحيح النظر الى الكون وتثقيف العقول وتهذيب المشاعر وتقويم الاديان ؛ ومن ثم امتزجت بتاريخ العقيدة الذى لا تاريخ للانسان فى الحقيقة سواه ـ فلوانه كان ينفع الانسان أن يلقن سر الحياة بلمحة واحــدة من العين أو بلفتة واحــدة من الاذن وأن ينتقل من الجهل الى المعرفة ومن الضلالة الى الهدى بدفعة واحدة من قوة خارجة تدفعه كما تدفع الآلات وليس بجهاد نفسـه وعناء فكره لكان عبثاً طول ذلك الانتظار ولكان قسوة بالغة كل تلك الآلام والاخطار . ولكان باطلا ما اقترن بهاونشأعنها وأنشأها من تجاذب فى الافكار ، وتفاوت فى الاقدار ، وتباعد فى الاقوام والامصار

نعم لجميع أولئك كانوا خلقاء أن يطلعوا على السر الاعظم بلمحة واحده فى لحظة واحدة . ولكن الله لم يشأ ذلك . وانما شاء أن لايرتقى الانسان الى درجة من المعرفة أو الدين حتى يستحقها بعمله واستعداده واعتماده على نفســه ، ومابه جلت قدرته وتعالت حكمته من عجلة . فالأبد مديد وساحة التجربة واسعة والتكمل الحر المهتدى فى ظاهره بالاختياردون الاضطرارجدير بضحاياه وبا كثرمنها . ولاضحايافى الحقيقة. لأن التضحية هى الفقد ولايفقد شيء فى هذا الكون المحكم الرحيب

على أن الناس اما مقلد يؤمن بالقدوة أو مجتهد يؤمن بالبحث . فأى هذين يصلحه ظهور الارواح له عيانا ؟؟ فأما المقلد فانه فى غنى عن ظهور

الارواح لان كلمة ائمته عنده كالبينة الملموسة أو أشد وقعاً ، واما المجتهد فقد شككته أسباب لايكون لايمانه قيمة أو يقتنع ببطلانها ويتدارك علة الزيغ فيها والذى نعرفه ان الذين تظهر على أيديهم الارواح ليس لسوادهم فضل يؤثر لافى الايمان التقليدى ولافى الايمان الاجتهادى ولافى الايمان اللدنى ؛ فما معنى اختصاصهم بهذه المقدرة ؟؟

تخطر لى هذه الخواطر فأشك فى تحضير الارواح ولكنى لا اقطع الشك باليقين لا ننا قد نخطىء فى استقصاء القياس من الماضى وقد نكون على أبواب طور للانسانية لايقاس على ماسلف . وكل ماهو مجهول فحجته فيه

الوضوح والغموض(١)

فى الاساليب الشعرية

قرأت للاديب الحاذق «صدقى» مقاله فى الهواء الطلق . واستوقفنى منه اشارته الى الفرق بين عبارات الافهام وعبارات المشاعر وأراه على صواب بين فى هذه التفرقة فأنه مما لا يقبل الجدل أن للعلميات وما نحا نحوها أساليب تختلف عن أساليب الشعريات ومايخرج من ينبوعها ويتولد من معدنها ، ولكل منهما نمط من القول لا يساغ ولا يصلح فى سواه . وهذا الذى أردت اجمال الكلام عليه فى هذه الكلمة

يقول الاديب: « ولربما يدين الريحانى بان العبارة الواضحة المعتادة تخاطب الافهام وأن المشاعر تخاطب بلغة أخرى ، وبهذه اللغة الاخرى نحن ندين ولكن غير مطموسة الرموز بل تتراءى معانيها خلف نقاب من الشف لاهو يسترها الى حد أن يخطئها العيان ولا هو يبديها الى حد لا يعود معه لخيال القارىء عمل »

وهذا صواب لا شية عليه ولاسيما الألماع الى سبب استهجان الوضوح المفرط فى عبارات المشاعر وهو أن يشل حركة الخيال ويبطل عمله — بيد أنه يجب أن يقال هنا أن رفع ذلك « النقاب الشفاف » واجب بل فرض مقضى على الشاعر كلما تسنى رفعه دون اخلال بالمعنى أو تعطيل لمتعة الخيال اذ ليس الفرق بين أسلوب العلم وأسلوب الشعر فى درجات الوضوح والغموض .

(١) نشرت فى العدد السابع من صحيفة الرجاء

وليس ذلك النقاب الشفاف بالحائل بين ماهو من سبيل العقل وماهو من سبيل الخوالج النفسية • وانما الفرق الذى بينهما أو الحائل الذى يفصلهما كائن فى طبيعة الاشياء التى يتناولها كل من العقل والخيال وفى طريقة التناول وكيفيته . فلو اننا جئنا بدرس من كتاب الكيمياء فلففناه بالغلائل والحجب وأطلقنا حوله من البخور والدخان كل مافى جعبة الطلاسم والسحر لما صار شعرا • ولو اننا جئنا بفن من فنون الشعر فغمرناه فى بحر من النور لاتخفى فيه خافية وبسطناه حتى لاموضع فيه لالتفاتة لما صار علما وانما يبقى الاول علما غامضا ناقصاً ويبقى الثانى شعراً مبتذلا ناقصاً كذلك

ولا أذكر انى قرأت بيتا أو جملة قط لفحل من فحول الشعر والبلاغة فأحسست للقائل اختياراً فى وضوح عبارته أو غموضها فان المعنى اما أن يكون واضحاً بطبيعته فلا يكون تعمد اخفائه للمبالغة والترويج الاشعوذة ينبو عنها بل يستحى منها كل طبع نزيه ، وأما أن يكون غامضاً بطبيعته فليس للشاعر أو الكاتب حيلة فيه ولا يقال حينئذ للذى يحتوش كلامه الغموض انه ذاهب فيه مذهبا خاصاً يقصده ويؤثره على سواه . وهذه آ ثار ائمة الشعر وفحول البلاغة فى الشرق والغرب بين أيدينا فليبحث فيها من شاء فهل تظنونه يجد فى اطوائها معنى واحداً مما يعد من آياتهم وغرر أقوالهم وشواهد بلاغتهم حجبوه قصداً أو على غير قصد ؟ ؟ ان وجد فانما يكون ذلك بين سقطهم الذى يعتذر له ويتمحل فيه التأويل لافى المميز المنتقى الذى يشاد به فضلهم وتذيع لاجله شهرتهم

ولقد تقترن العبارة البليغة بمعانى جمة لاتزال تسترسل فى الذهن حتى يحتويها الغموض فى ظلال الفكر البعيدة وشعاب الخيال المستسرة ولكن لايلزم من ذلك أن يكون لهذا الكلام البليغ نصيب من الغموض الذى

لابد تنتهى اليه معانيه ذهابا مع الخيال ومطاوعة لتداعى الخواطر وتلاحق الصور . انظر مثلا الى هذه الآية الكريمة : « والصبح اذا تنفس » فلعمر الله أى ثروة معنوية فيها وأى وضوح وايجاز ؟ ؟

ثلاث كلمات موجزات هيهات تأنس لكل ماقيل وصفا لاول طلوع الفجر ماتأنسه فيها من اعجاز التعبير ووفرة المدلول وتنوع الصور واتساع مجال السبح للخيال . وماخطرت لى هذه الآية مرة الا تفتحت امامي لجأة صورة كاملة للفجر البهيج ، بعضها تهم به العين فى ضحوة النهار وبعضها يلوذ بعالم الاحلام من غرابة ونفار . فيهب على نفسى نسيم الصباح الندى ، واتمثل الطبيعة يتنهد به صدرها كاول ماتدب الحياة فى الجسم بعد طول السبات ، واستروح أنفاس الرياض شائعة فى كل مهب ومطار ، سيارة بنفحات الرياحين والازهار . وتتبادر من هنا وهناك طيور طار عنها النعاس وخلائق فارقها كسل الظلام وشملها من « نفس » الصبح ما يشملها من نوره فاذا هى حية صادحة . مستوفزة صائحة . واذا الفجر كله كانه نفس عميم من أنفاس القدرة الخالقة المبدعة : قدرة الحياة الابدية المتجددة

وهذه الصور الكاملة تلهمك اياها كلمة «تنفس» بسرعة البرق وخفة السحر ولذة الحلم . فهل حفلت قط كلمة بمثل ما حفلت به هذه الكلمة الواحدة فى موضعها من الاشكال المأنوسة والخواطر القريبة والبعيدة ؟؟ وهل فى هذه الكلمة أو فى الكلمات الثلاث أثر لأقل تعمل أو غموض ؟ فمن هنا نعلم أن القدرة فى التعبير لا يعوقها الوضوح أن تبتعث الخيال الى آخر مداه ونهاية سبحه . وان الذى يهرب الى الابهام فراراً من الجلاء انما يهرب من عجز ظاهر الى عجز مستور

وانظر كذلك الى هذه الآية القرآنية فى الانذار بيوم القيامة « يوم

ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » فأى هول لا يسبق الى الروع من هذه الآية المعجزة ؟ وأى دهشة تفوق دهشة العقل من تلك الصورة الموجزة ؟ ؟ أى بلاء ذاك البلاء الذى يذهل الوالدة عن رضيعها ويتغشي الناس بحيرة السكر وهم مفيقون ؟ ؟ ليخيل للانسان أن جهنم نفسها قد جنت من ضراوة وجوع فزحفت باهوالها تلتهم الخلق التهاما ومالهم من مهرب وماهم بمهتدين اليه لو أصابوه ، وان الخيال ليهجم عليه الهول من هذه الصورة الداهمة حتى ليكاد يحجم عن استفسارها كما تحجم الفريسة عن التأمل فى وجه آكلها ، فهو يبلغ أوج الشعور فى وثبة واحدة ولكنه لا يحرم قليلا ولا كثيرا مما هو مدمج فى تفاصيلها . والآية كما تراها ليس فى مفرداتها أو تركيبها أو معناها مسحة من خفاء أو كتمان

كذلك ترى بلاغة هذا التمثيل حيث وجدتها على تفاوت فى الدرجات والمناهج والاساليب ، فاذا التفتنا من القرآن الى الشعر فى لغتنا ألفينا شواهد كثيرة على هذا الوضوح الحافل بالاشباه والخواطر : ومن هذا الباب استهلال البحترى فى وصف الربيع : —

اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا　　من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وبيت مسلم بن الوليد يصف مجهلا من الارض : —

تمشي الرياح به حسرى مولهة　　حيرى تلوذ باكناف الجلاميد

ولا يقل عن هذه الطبقة قول ابن الرومى يذكر بلدا « بغداد » : —

فاذا تمثل فى الضمير رأيته　　وعليه أغصان الشباب تميد

أوقوله الفكه الذى تناهى فى ضبط الشبه حتى لا مزيد للعيان ولكنه

يخلى للخيال منصرفا سهلا الى تصور الهيئة النفسية ومعانى الملامح فيعطيها حقها من التأمل المضحك المطلوب . ونعنى بيتيه المشهورين فى تشبيه الاحدب

قصرت أخادعه وطال قذاله　　فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة　　وأحس ثانية لها فتجمعا

وقول ابى تمام يتحسر على عهد نعيم فقده

لحظت بشاشتك الحوادث لحظة　　مازلت أعلم انها لاتسلم

وقول قطرى بن الفجاءة يفتخر بمواقفه :

ويوم لهو لأهل الخفض ظل به　　لهوى اصطلاء وغي نيرانها تقد
مشهرا موقفى والحرب كاشفة　　عنها القناع وبحر الموت يطرد

وقول المعرى :

قال صحبى فى لجتين من الحند　　س والبيد اذ بدا الفرقدان
نحن غرقى فكيف ينقذنا نجـ　　ـمان فى حومة الدجى غرقان

ولا يكاد يخلو كلام شاعر أو كاتب مجيد من أمثلة حسنة على هذه البلاغة المكشوفة السافرة ؛ ومن هذه الامثلة يظهر لنا ان ازدحام المعنى قد يعبر عنه بلفظ لا ازدحام فيه ، وان الكلمة لا تحضر فى الذهن معناها المراد بها ولا تطلق أعنة الخيال الى أبعد غاياته لغموض يشوبها أو لوضوح يبديها ويسطع عليها ، ولكنها تحضر المعنى وتطلق الخيال متى وقعت فى موقعها واستوت فى سياقها : فمن اقتدر على ذلك فليعالجه وليعلم انه مستغن عن ظلل الغمام وسدل الابهام بنصوع بيانه وصفاء وجدانه ، وأما من يلوح له معناه الواضح صغيرا فيثقله بالسجف المصطنعة والتعاويذ الملفقة فانه انما يلجأ الى الاحتيال . ويبيع على الناس بضاعته بأغلى من ثمنها الحلال.

الاشمئزاز

اذا حضرت مجلساً تذكر فيه قصة رجل من أهل الدنس والسيرة القبيحة فانظر الى السامعين وراقب سحنتهم فانك ترى أكثرهم يظهرون التقزز والاشمئزار فيشدون مناخرهم ويطبقون شفاههم أو يشيحون أحيانا عن المحدث بأبصارهم ووجوههم . وربما اشتد الانفعال ببعضهم فيتفل على الارض ويمتقع لونه . واذا توالت هذه الانفعالات فى النفس ثبت منها على الوجه لمحة يعرف بها أهل الترفع والعزوف

واذا رأيت أحدا يمر بشىء مما تعافه الانفس ، وتكره رائحته الانوف فانظر اليه تره يفعل ذلك أيضاً ، ولكنه هنا يشد منخريه ليعلق أنفاسه فلا تصعد اليهما الرائحة الكريهة ، ويطبق شفتيه لئلا ينفذ من بينهما الهواء الفاسد، ويدير وجهه كى لا يبصر مبعث ذلك النتن ، ويتفل اذا دخلت الرائحة الى جوفه فهاجت فيه غدد اللعاب

فالاصل فى الاشمئزاز انه حركة جسدية . ولذلك كان أثره فى الوجه جسدانيا جبلت عليه الاعضاء للوقاية مما يضر الجسد ويكدر الحواس ، وذلك بعض مايستدل منه على أن كل معنوى فى عواطف الانسان وخلائقه فانما أصله من الجسد أولا ، وان الانسان عاش زمانا فى مبدأ خلقه لاحكم عليه لغير الجسم ، ولا محرك له غير مطالب الطبع الحيوانى من جلب رضى أو دفع أذى . فلما تولد فيه الادراك العالى والاحساس المعنوى تخلفت عليه مسحة من الحس الجسداني ، وبقيت هذه المسحة ظاهرة فى أطهر

---

(١) نشرت فى احدى الصحف الاسبوعية

العواطف وانزه الآداب . وهذه الانفة مثلا . أليس أرقى مايسمو اليه أدب النفس ونبلها أن تنفر عن الدنايا وتتأذى من ذكر المعائب والمخازى وتأنف من كل وضيع ذميم ؟ ؟ ، ولـكنك تنظر فلا ترى على وجه الرجل الشريف فرقا بين أثر الانفة من خلق وضيع وأثر الانفة من جيفة منتنة . فكلا الأثرين فى السحنة سواء كما رأيت . وقد عرف العرب بدقة وصفية فى وضع اسماء المحسوسات واختيار الفاظها قبل أن يشاركهم فيها غيرهم من أصحاب اللغات ، فمن يسمع كلمة الانفة ولا يتبادر اليه أن فيها معنى مما يتعلق بفراسة الانف ؟ ؟ وذلك لانه ليس فى جسم الانسان جارحة تظهر عليها سمة الترفع ظهورها فى الانف ؛ وانما علة ذلك ماقدمناه ـ وربما كان سبب هذه الدقة فى هذا النمط من كلمات العرب أنهم كانوا قوم بادية تكثر بينهم الفراسة والقيافة لحاجتهم اليهما فى حياتهم ، والفراسة كما تعلم هى رد الملامح المعنوية الى أصولها الجسدية ، واستكناه شيء فى النفس بشيء فى الجسد

وكما يكون الاشمئزاز المادى داعيا لصاحبه الى الصدعن مبعثه وكراهة التطلع اليه ، كذلك يلزم أن يكون الاشمئزاز المعنوى صارفا للعزوف عما يأباه من خبائث الناس وفضائحهم ، ومانعا له عن اطالة النظر الى ادران نفوسهم وقذر أخلاقهم ، والا فهو اشمئزاز طبع أبخر لا يشم مايشمئز منه ، ولهذا كان أكبر برهان على احتقارك انسانا أن لا تعرّض به ولا تخوض فى مثالبه وليس البرهان عليه ذمك اياه ونيلك منه ، الا أن يكون ذلك لغرض تحتمل من أجله محنة النظر الى مانعافه ، ولهذا أيضا كان أكثر الناس وقوعا فى أعراض الناس وجدا وراء صغائرهم وخسائس جبلاتهم هم أكثرهم فضائح وأرذلهم مروءة ، اذ كانت النفس الكريمة تتأذى من انكشاف

.هـذه العورات لها ولا تطيق النظر اليها ، ومايطيق النظر اليها الا الذين لايخجلون منها لو انكشفت للناس فيهم . وهم فى ذلك كالاطفال فى جهلهم وان لم يكن لهم عذر الاطفال

ساعات بين الكتب

١

قصر املا

الآن ، وفى اسوان ، أى سبيل الى غير الوحدة ومناجاة الاحلام ؟؟ وأى مشغلة للفراغ أجمل من قضاء الوحدة فى قصر ملا أو بين صفحات كتاب ؟ ؟

وقصر ملا هذا هو طلل دراس منصوب للرياح من أينما أقبلت

درسته الريح مابين صبا وجنوب درجت حيناوطل

جمع منظره بين وحشة القدم المتبدد .. ونضرة الصبا المتجدد . وقامت حوله وديفة منيفة (١) تعرف باسمه ويرتاح اليها الطارق من سآمة ذلك الشبح المهجور فى أكمته ؛ وهى رباوة (٢) أثرية ذات طباق يعلو بعضها على بعض ، فى كل طبقــة منها حياض الازهار والنوار . ومنابت العشب والبهار ، تنتهى من بحبوحتها العليا الى جانبها الغربي فتشرف من ثم على النيل ، ويستقبلك الجبل الغربي تليه الجزر والجنادل المعترضة فى جوف النهر ، وهو ينساب بينها انسيابا ، فروعاً وشعابا ، وتجلس هنالك بعد الغروب فتنظر امامك الى المقياس فى هيكله القديم ، والى النيل يجرى وكأنه لايجرى والى الجنادل قد اطلعت رؤسها على متنه كأنها بعض حيوانه يتنسم هواء .

---

(١) روضة عالية (٢) أى رابية

الليل ، والى الجبال ممتدة على طول الافق كالديباجة السوداء حول تلك المناظر الساحرة . فيجلو لك ضوء الكواكب منها صورة قاتمة كأنها الصورة الفحمية رسب فيها الظل من جانب وطفا من جانب ، فاذا كانت الليلة مقمرة أخذ القمر يرفع عنها سدفة (١) بعد سدفة ، ويزحزح منها رواقا بعد رواق ، كمشاهد الحلم البعيد العهد بالذاكرة تستعيده فيتألف فى ذهنك شتاته ، وتبرز لك غوامضه ، حتى اذا اتسق الضياء وانجابت عن تلك المواضع ظلال الغسق ، مثلت أمامك وهى الى مشهد حلم غابر أقرب منها الى مشهد تراه بين يديك وتحس صلابة أرضه تحت قدميك ، فاذا نظرت فى تلك الساعة الى القمر ثم نظرت الى تلك الاماكن ، آنست بينهما ألفة وسرارا ، وعرفت لهما حرمة وجوارا ، ورأيت من عزلة الاماكن وانفرادها ، وبعد الجالس فيها عن استشعار الصلة بغيرها ، مايوهمك أن القمر لا يطلع فى تلك الساعة على غير تلك البقعة من الدنيا

وقد كنت أتوردها الفينة بعد الفينة (٢) أقضي هزيعا من الليلة هناك — فأجلس على صخر قديم ساوره (٣) النيل أعصارا ثم قنع بمسح أقدامه ، وطغى عليه أعواما فلم يظفر بغير المرور من أمامه ، وأعوض العزلة بمساجلة بنات الاحلام ، ومسامرة عرائس الشعر . ولله هن ما أجذلهن وأطربهن ! وما أشد امتزاجهن باللحم والدم وأقربهن اليك فى نسب النفس من بنات وعرائس ! ! فهن والله خفيفات ظريفات . أخف من كواعب الانس واظرف وأعز منهن فى القلب وأشرف . لان القلب يخلقهن كما يشاء ويرضى ، وكما يرسم الامل ويملى الهوى ، ومن له بأن يجد من حسان الانس من توافق الامنية وتنزل على حكم الوفاء ؟ ؟ وأنى له منهن بمن يصطفيها

---

(١) ظلمة (٢) ازورها الحين بعد الحين (٣) واثبه

وتصطفيه على العلات . ومن لا يفترق لها أمل عن أمله ولا ينفصل لها ضمير عن ضميره ولا خاطر عن خاطره ؟ ؟ ولقد كن لا يغببنى فى ليالى الصيف القصار ، ولا يفترن عنى على شحط المزار ، وتوسط المهامه والقفار . وكأنما يكذبن لى وصف دعبل حين قال فى هذه الديار

هبطت محلا يقصر البرق دونه ويعجز عنه الطيف أن يتجشما
وان امرءا أضحت مساقط رحله بأسوان لم يترك له الحزم معلما

وسامح الله دعبلا ما أقل حمده ورضاه وأكثر تجنيه وشكواه ! أتراه كان لا يلمح الطيف فى لياليه باسوان ولا يسرى اليه البرق فى سمائها أم كذلك دأبه لا يزال يهجو الديار وسكانها ويجتوى الارض ومن عليها ويستبعد البعيد والقريب منها ؟ ؟

أولم يتأوبك يادعبل فى ليالى غربتك طيف من بغداد ولياليها . ومجالس الانس فيها ؟ ؟ أو لم يبلغك وأنت مستلق على ساحل النيل ليلة من ليالى الصيف ، صدى المزاهر فى قصور الخلفاء . وشدو القيان الفاتنات المفتونات يغنين للجمال والحياة ، ويغنى الجمال والحياة فيهن انشودة الفوز للحب والسعادة ؟ ؟

أو لم تحمل البرق عشية من عشيات نأيك . وقد ذهب بك الشوق . وقعد بك النوى . رسالة الى حبيب فارقته فى ربوع دار السلام ؟ ؟ أو تحية الى أخ من مقارضيك الشعر على شواطىء دجله ؟ ؟

ولكن من لك بالاخوان وأنت القائل

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم الله يعلم انى لم أقل فندا
انى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

ولك العذر يادعبل . فأحسبك قد صدقت على كره من الصدق

وبئست الشكوى الصادقة — ولقد يحق لك أن تضع اسوان بحيث يعجز الطيف عن تجشمها ويقصر البرق دونها ، لان خليقا بلحظك الشزر أن لاينام. ولعمرى لايعجز الطيف الاعن تجشم مكان واحد : هوسرير الساهر!! فهو أهول من عرين الاسد واخوف للمدلج اليه من وادى التيه

نعم وللبرق أجـدر أن يقصر عن مكان لايجوده السحاب ولايحمله الى جوه ركاب ! !



ساعات بين الكتب

-٢-

الليل فى قصر ملا

تقول الولادة لصاحبها

« انى رأيت الليل أكتم للسر »وكذلك تقول لى العرائس الزائرات، الدانيات النافرات . عرائس الشعر وبنات الامانى

عهدتهن لايلممن نهارا بصاحب ولاترسلهن السماء الاعلى أشعة صباح ندى البكورة أومساء سرى الاصيل ، ويالهما من ساعتين فيهما للنفس جذل وكآبة . وحركة وسكون . وضياء وظلام ونهار وليل — فاما اذ تنصب أشعة الشمس على الارض كانها وابل من السهام المحماة . أوكسيل من النار . فهن مقصورات فى المقاصير . لائذات بحوافى الأنهار . ناعسات فى أفياء الرياض والبساتين . وهن فى جو مدار السرطان أجدران يشفقن على اجنحتهن الهفافة من سعير القيظ وهجيره وعلى وجوههن الناعمة أن يسفعها الهواء المضطرم بهوجه وزفيره

فكنت اذا انفردت بذلك المكان ، اقبلن على من كل صوب مع همس النسيم . ومنامسة الشجر. ورقرقة النهر . وشذى الرياحين . ووسوسة النجم. وحدثنى بكل لسان وناجينى بكل بيان لايخطئن لغة من اللغات مما ينطق به الطير أو يومىء به النبات . فكم جرس شجى لهن كانه صدى الوتر

المقطوع فى الغرفة المهجورة . وكم ضحكة ذات رنين يدور فى مسامع النفس كما يدور فيها هزج الابتسامة الصامتة . وكم لثمة تلمسها الايدى قطرة ندى وتحسها الشفاة رضاب ثغر برود اللمى . وكم نظرة تشخص بعينيك لها ثم تمحى عنك فى لألآء الضوء . فاذا أنت شاخص الى الفضاء ممتلىء العين بالهواء . وكم عبث لهن وكم دلال وكم صد لايبلغ أقبح الهجر حتى يرتد الى أحسن الوصال . لاأمل عبثهن ولا يمللنه . ولا أقطع حديثهن ولا يقطعنه . وربما لج بهن العبث والمراح فيختبئن عنى ساعة فى ألفاف الروضة . حتى اذا امعن هربا ، واعيينني بحثا وطلبا ، خرجن الى من جانب الظلل ضاحكات ، او اقبلن على اكف الموج سابحات ، وتسابقن الى كما يتسابق الاطفال الغيارى . وكلهن حبيبات الى أثيرات لدى . خلا واحدة منهن كانت مولعة بالاذى . مسلطة على النكاية . قد دلها اللعب والفضول على سهم قر فى جانب القلب وكاد يندمل جرحه ، فما زالت منذ عرفته تدمن اللعب فيه ، وتنكأه حتى تدميه ، لايزيدها النهى الا اغراء ، ولا الغضب الا استهزاء ، ووالله لا اعلم أأنا أحبها ام اقلاها ، وهل هى اود اخواتها الى ام اقساهن على . ولا ادرى ادلها اللعب والفضول على ذلك السهم أم انا قد دللتها عليه ، وكانت تعصانى اذ انهاها عن مسه ام كانت تطيعنى بتلك المخالفة وترضينى بذلك الاغضاب ؟؟ لااعلم . وكثيرا مايجهل الانسان اسرار نفسه

***

كذلك تنصرم الليالى . فأما تنصف الليل أو كاد لبثت برهة أنظر الى الدنيا تغرق فى جوف الليل الحالك العميق ، وأنصت الى لاغية المدينة

تهبط رويدا رويدا فى ذلك الجب الاسود فما هى الا هنيهة ثم لا يسمع منها السامع الا أنين ساقية يضربون بها المثل فى طول الانين والنحيب ، والاهتاف النواتية يجأرون فى شمال المدينة بأصوات هى باصوات العناصر أشبه منها بغناء بنى الانسان

***

أيها الليل

أن ظلما من الفلك الدائر أن جعلك مهجع الحواس ، ومخدع العقول وأن فيك ياليل من مسارح النظر ،ومطارح الفكر ، لماهو أرفق بالحواس من النهار وأحلى ، وأحوج الى العين والفؤاد وأجلى

أيها الليل

لئن أنامت فيك الطبيعة أبناءها لقد أسهرت عشاقها وأخلاءها — أولئك تأويهم الى أحضانها ، وتكنفهم بجنانها . وهؤلاء تظهرهم على ظاهر زينتهاوباطن جنانها . وتمتعهم بمباهج خدرها ثم تطلعهم على سرائرو جدانها، وكلا أرضت بما قسمت . فلاعقت الابناء ، ولاظلمت العشاق والاخلاء

أيها الليل

أنت رب الارباب الاقدمين واله الآلهة الاولين . فيك فلابدع يتهجد العباد وتنطلق أرواح الآلهة المحبوسة ، وفى ظلامك الذى يشرق فيه نور الضمير يجد الكافر الهه ويظفر التائه المضلل بقطبه. قال يونج« بالليل يعود الملحد نصف مؤمن بالله». وقدصدق. فما من شك فى أن نجومك وظلامك هما من نورالله ووقاره ، وهما أول من علم الانسان الوحى وصوب اذنه وعينه الى عالم الغيب . ثم خالك الناس أيها الليل ماردا يروضه الله ولا يحله من قيده سواه ،فقال أيوب ساهرك المعذب وراعيك المقيد يروى للناس تبكيت الله

له على شكواه « قل أين منازل النور ومكامن الظلمة .فتقودها الى مقرها وتدلها على سبيل بيتها ؟ ؟» وهل أحوج من هذا المارد الاعمى الى الدليل؟؟

ولو أن أيوب كان ينطق بلسان امرىء القيس لرأى ذلك المارد وقد ..... تمطى بصلبه

﴿ وأردف اعجازا وناء بكلكل ﴾

أو رآه وهو جاثم كما قال ابن جندق المرى

ليل تحير ماينحط فى جهة كأنه فوق متن الارض مشكول

وحاشا لك أيها الليل أن تحار وانما تحار وتهتدى فيك الافكار ، ومن أين ينالك القيد وأنت مطلق النفوس من القيود والآصار ، انك أيها الليل لأهيب من أن تقيد وأجل من أن تحد ، انك لأشبه الوقت بالابد —: ساكن مظلم سحيق . أو ألست ابنه البكر كما خبرنا أجدادنا القدماء ؟ فلاجرم أراني كلما دخلتك كانما قفلت آلافا من السنين الى الماضي الداثر البعيد أووثبت آلافا من السنين الى المستقبل . فأنا فيه كالطارىء الوحيد

ساعات بين الكتب

٣

الكتب

الكتب كالناس . منهم السيد الوقور ، ومنهم الكيس الظريف ، ومنهم الجميل الرائع والساذج الصادق والاريب المخطىء ، ومنهم الخائن والجاهل والوضيع والخليع . والدنيا تتسع لكل هؤلاء . ولن تكون المكتبه كاملة الا اذا كانت مثلا كاملا للدنيا

يقول لك المرشدون اقرأ ماينفعك . ولكنى أقول بل انتفع مما تقرأ ، اذ كيف تعرف ماينفعك من الكتب قبل قراءته ؟؟

أن القارىء الذى لا يقرأ الا الكتب المنتقاة كالمريض الذى لا يأكل الا الاطعمة المنتقاة . يدل ذلك على ضعف المعدة أكثر مما يدل على جودة القابلية

واعلم أن من الكتب الغث والسمين . وأن السمين يفسد المعدة الضعيفة ، وأنه ما من طعام غث الا والمعدة القوية مستخرجة منه مادة غذاء ، ودم حياة وفتاء . فان كنت ضعيف المعدة فتحام السمين كما تتحامى الغث . وان كنت من ذوى المعدات القوية فاعلم أن لك من كل طعام غذاء صالحاً

وان من منظر أنت تراه فلا تود أن تراه بعدها . أو صوت تسمعه ثم لاتحب أن تسمعه آخر العمر . فلا أدرى من أين داخل القراء ان الكتاب

انما يقرأ قراءة واحدة . مع أن الكتاب أخفى رموزاً وأكثر مناحي نظر من المنظر والصوت . وأنت تنمو بعقلك اكثر من نموك بحواسك ، فانت احرى أن تعاود النظر فيما يمتحن به نمو الفكر. ومن كان يفهم أن قراءة الكتاب شيء غير الاتيان على كلماته ، وان درسه مطالب غير استظهار صفحاته ، فعليه بلا ريب أن يكرر قراءته كلما استطاع ، لان كتابا تعيد قراءته مرتين هو أغنى وأكثر من كتابين تقرأ كلا منهما مرة واحدة

ثم اعلم انه ليس بأنفس الكتب ولا بأجلها الكتاب الذى تتوق الى اعادته بعد قراءته . وليس بافرغ الكتب ولا بأقلها الكتاب الذى تقنع بتركه بعد الفراغ منه . فأنك ربما صادفك الكتاب الاجوف المغلق فأعجبتك رنته فجعلت تقلبه على كل جنب لعلك ان تخلص الى لبابه ولا لباب له، وربما صادفك السفر القيم الشافى فانتهيت الى آخره مرتاحاً مصدقا فقنعت بذلك منه . وقد عهدنا الناس يمنعهم البخيل فيراجعونه ويلحون عليه ويعطيهم المنعم الكريم فيهجرونه ويعرضون عنه ، وتلك ضرائبهم فى مصاحبة الكتب . فلا تكن فى المطالعة من هؤلاء

وطريقتى فى القراءة ان لا اذهب مع الطرف فى الصحيفة الا ريثما اذهب مع الفكر فى نفسى . فقد اتناول الكتاب ابدأ فيه حيث ابدأ اذا كان من غير الكتب التى يلتزم فيها الترتيب والتعقيب ، فيستوقفنى رأى او عبارة تفتح لى بابا من البحث والروية فأمضى معها واطويه فلا انظر فيه بقية ذلك اليوم او انتقل منه الي كتاب اخر . واجد هذا التوجيه فى انفس الكتب كما اجده فى اردائها . فلا اميز بينها فى الابتداء . ولا يكاد يستدرجنى الى المضاء فى المطالعة غير موضوع يستوعب ذهنى ويأخذ على المؤلف فيه باب الانفراد بالفكر دونه

فأما وقد عرفت رايي فى الكتب وطريقتى فى المطالعة فهلم نقرأ

ساعات بين الكتب

٤

ابن زيدون

يروج الادب فى ايام السقوط كما يروج فى ايام الرفعة . والمعول فى الحالين على نوع الادب ومادته لا على كثرته او ندرته . ولقد راج الادب رواجه المعروف فى ايام اضمحلال الاندلس وادبار دولتها . وما راج فيها ذلك الادب الخاص بايام ملوك الطوائف الا لاضمحلال وادبار الدولة . فأنه قد شاعت على عهدهم مجالس المنادمة واللهو بين الرؤساء والكبراء بل نزلت الى مصاف السوقة والعامة ، وقعد الناس لها ولاقتناء آلاتها والتبارى فيها ثم دعت الحاجة الى النظم والمطارحة فى هذه الملاهى فدار أدبهم كله على هذا المحور . فكان الغلام او الجارية لا يساوم فيهما الاعلى قدر حظهما من الادب وكان الفتى لا يظرف محضره ويعذب سمره حتى يروى من ملح النظم والنثر ونوادر الشراب والمجون ما يناسب تلك المجالس ويصلح أن يدور مع الكأس على الندماء ، فانعدم الشعر الفحل وكسد الادب الجزل وراجت سوق الادباء والمؤدبين فى الاندلس لهذا السبب لا لشوكة الدولة ومنعة الملك والامة

ومن الشعراء المبرزين فى ايام ملوك الطوائف ابو الوليد بن زيدون ـ اديب كانت قصائده مروية فى انحاء الجزيرة ، وكان اماما يتحداه ادباؤها ويأخذون

عنه . وهو شاعر سلس المذهب متخير اللفظ ، تقرأ شعره فيطرفك، ويروقك ولكنه لا يستحوذ على لبك ولا ينطبع فى نفسك . قال ابو محمد عبد الواحد المراكشى فى تلخيص اخبار المغرب :« نسيبه يختلط بالروح رقة ويمتزج باجزاء الهواء لطافة » وقال ابن بسام فى الذخيرة « ان له حظا من النثر غريب المبانى شعرى الالفاظ والمعانى »

والاصح عندنا أن يقال ان النثر فى نظمه أكثر من الشعر وان ذوقه كان أقل من ظرفه وكان ذكاؤه اظهر من عاطفته وان الصنعة أبين فى شعره من الطبع . ألا ترى انه فى احر قصائده التى نسب فيها بولادة لم ينس الطباق والمقابلة بين ابتلال الجوانح وجفاف المآقى فى قوله

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا   شوقا اليكم ولاجفت مآقينا

او بين سواد الايام وبياض الليالى فى قوله

حالت لبعدكم أيامنا فغدت   سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

او بين السدرة والكوثر وبين الزقوم والغسلين فى قوله :

ياجنة الخلد ابدلنا بسدرتها   والكوثر العذب زقوما وغسلينا

وقد لهج ابن زيدون بولادة ايما لهج واربت قصائده فيها على قصائد المجنون فى ليلاه ولكنك يندر ان تعثر بينها ببيت غلب فيه عشق الرجل للمرأة على صحبة الوزير لبنت الامير واخاء الأديب للاديبة . وهكذا كانت محبة ابن زيدون للولادة . فأنه يلوح لنا من قصته معها ومن شعره فيها انه تحبب اليها منافسة لابن عبدوس الذى كان يزاحمه على الرآسه ويقارعه فى الشرف ويسابقه على الصدر فى نادى الولادة . ولا يندر بين الرجال من يهوى المرأة لئلا يهواها عدوه ، فلا يتوقف هواه لها على جمالها او على تبادل الهوى بينهما ولكن على المنافسة بينه وبين اقرانه ونظرائه

وكان للولادة ناد مشهود كا ندية الأندلس فى ذلك الوقت ، وهو اشبه شيء (بالصالونات) التى كانت تعقدها النساء المتأدبات فى ابان الثورة الفرنسية فيؤمها الادباء ليتنافسوا على الحب والشهرة ويجمعوا بين مطارحة الغرام ومطارحة الكلام ويمثلوا من الروايات الهزلية ماليس يخلو منه مجلس فيه نساء يدعين العلم ويشتهين تحبير الرسائل الغرامية . ولابد للانسان فى اندية كهذه من أن يعشق ويساجل من له علم بالادب ومن لاعلم له به . فأن لم يشعر فى نفسه بلوعة العشق ولم يحسن المساجلة فعليه أن يتصنع حتى يتقن دوره ، ولا يعفيه من هذا الواجب تقدم السن ولا الخجل من مخالفة الطبع والعرف ، كلا ! فانه لم يمنع عجوزا عمياء فى السبعين من عمرها أن تتدله بكهل من دهاة السياسة فى الخمسين من عمره (١) ولا أبى عليها ان تقضى بقية حياتها الصالحة تئن من الصبابة لامن أدواء الشيخوخه ، وتبث فاتنها لواعج الوله والهيام لادعوات الشفقة والحنان ! ! ! واين اديبات الاندلس من هذا المضمار ..!!

وكان ابن زيدون ممن وهبوا ذلاقة اللسان ورزقوا الفصاحة وحسن المحاضرة . فكان حدثا (٢) لبقا وخطيبا لسنا . قال ابن بسام : « عهدى بابن زيدون قائما على جنازة بعض حرمه والناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم فما سمعته يجيب احدا بما أجاب به غيره لسعة ميدانه وحضور جنانه »

وهبة الذلاقة والفصاحة قلما تتيسر لاحد مع عمق العاطفة وغزارة الشعور ، ويقول جون ستوارت ميل فى فصل له على تعريف الشعر انهما

---

(١) هو الوزير الانجليزى هوراس والبول وعاشقته هى مدام ديفان من أديبات الصالونات الفرنسية

(٢) أى حسن الحديث

لا تتفقان فى الامة الواحدة : ففرق بين الفرنسيين والانكليز بأن الاولين أمة الفصاحة والآخرين أمة العاطفة . وقريب من هذا قول سهل بن هارون « اللسان البليغ والشعر الجيد لا يكاد ان يجتمعان فى واحد وأعسر من ذلك أن يجتمع بلاغة الشعر وبلاغة القلم » والفصاحة أليق ماتكون حلية من حلى النثر . وشقاشق الخطابة . وانما كان ابن زيدون شاعرا فصيحا كما كان كاتبا فصيحاً وكما كان متكلما فصيحا ولم يكن كذلك لمزية له فى الشعر على غير الشعر ولا لأن فصاحته التى لم تكن تفارقه كانت تنم على قوة عاطفة فيه اذ المعهود أن قوة العاطفة لا تملك الانسان فى كل حين ولا تلازمه فى حيث يتكلم جادا ولاهيا وفى حيث يلقى الخطب ويقرض فنون الشعر. ولكن لانه كان حسن موهبة الكلام وكان كلامه طوع ارادته لا طوع خوالجه واطواره

وهذه الفصاحة فيه هى التى خيل لابن بسام انها رونق الشعر فى كلامه المنثور : فوحد الشعر والفصاحة ، وهما جد مختلفين ، وشتان معدن الشيء وطلاؤه

فاقرأ له النبذة الآتية من الكتاب الذى سطره الى ابن عبدوس على لسان الولادة

« ولا شك انها قلتك اذ لم تضن بك (١) ، وملتك اذا لم تغر عليك فأنها قد اعذرت فى السفارة لك ، وماقصرت فى النيابة عنك . زاعمة أن المروءة لفظ انت معناه ، والانسانية اسم أنت جسمه وهيولاه . حتى خيلت أن يوسف حاسنك فغضضت منه . وان امرأة العزيز رأتك فسلت عنه » الخ . وهي مثل صالح لنثره كله . فهل تعد لشعر ابن زيدون حسنة

(١) يشير الى امرأة كان قدمها ابن عبدوس الى ولادة لترغبها فيه

فى عذوبة اللفظ وصفاء العبارة ولطف الاستهزاءاحياناً الاعددت شرواها فى هذا النثر ؟؟ والشاعر مالم تكن لشعره مزية على نثره فالنثر به أجدر ، وهو على غير الشعر أقدر

لكنك لاتخطيء أن تصادف فى ديوان ابن زيدون البيت أو الابيات فيها الوصف الصادق والشعر المطبوع . كقوله:

واهاً لعطفك والزمان كأنه … صبغت غضارته ببرد صباك
والليل مهما طال قصر طوله … هاتى وقدغفل الرقيب وهاك
يدنو بوصلك حين شط مزاره … وهم أكاد به أقبل فاك

ومثل قوله :

ورد تألق فى ضاحي منابتــه … فازداد منه الضحى فى العين اشراقا

ومثل قوله فى الذكرى

ودع الصبر محب ودعك … ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن … زاد فى تلك الخطى اذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنى … حفظ الله زمانا أطلعك
ان يطل بعدك ليلى فلكم … بت أشكو قصر الليل معك

وهى أبيات نقية بارعة ليس عليها شيء من تمويه الصنعة ولا يتخللها شيء من الشعور المكذوب والاحساس المدعى . فهى تسبق القارىء الى نفسه وتذكره لاول نظرة بامثال موقفهامن مواقفه . وقد بلغ من سوءفهم الشعر قديما ان بعض الرواة نسب هذه الابيات الى الولادة وزعموا انها انشدتها ابن زيدون بعد أول لقاء لهما !! ولا نعلم ماذا يصنع هؤلاء الرواة بقوله (كم بت اشكو) ؟؟ وهل هذا ممايشند بعد اللقاء الاول ؟ ؟ وقال أحد باشوات مصر المحسوبين على الادب فى محاضرة القاها على تاريخ ابن

زيدون أنه ارتجل هذه الابيات وهو يودع الولادة ذات يوم . . . ولو انه كان يفهم الشعر ولو كما يفهم الحفاظ آى القرآن لادرك انها أبيات لاتقال فى موقف الوداع . اذ كيف يقرع السن على أنه لم يكن زاد خطوة فى تشييعها وهو لم يزل بعد فى موقف التشييع ؟ ؟

أما سائر شعر ابن زيدون مما لايتعلق به الاختيار فهو كشعر عصره، وكشعر كل عصر من عصور الاسترخاء والترف ، لايخرجه عن الطريقة وكونه من أحسن أهلها متاعا ، وأطولهم فى النظم باعا

وما يدريك عصر الاسترخاء والترف ؟ ؟ انه عصر تزيغ فيه الابصار البصائر فتكل عما وراء القشور والظواهر . عصر تكون البهائم فيه أصدق حباً من الناس لان البهائم لاتلعب بحبها ولا تبتذل غرائزها. تهجع المشاعر فى أمثال ذلك العصر فتعربد الحواس ، ويموت الحب الفطرى فتمرح فى رفاته ديدان الشهوات ويأخذ الناس من كل شىء بأيسره ، ويقنعون من كل مطلب بأقربه الى الحس وأصغره، فلا يكون الجمال الا صبغة فى البشرة تلحسها الالسنة حتى تزول ثم تمجها كما يمج البصاق الملوث من فرط التقزز والاحتقار ، ولا تكون البساتين والامواه الا مجالس شراب ومراوح هواء ، ولا الطبيعة بكلأها ورياحينها وثمارها الا طنفسة مطرزة بمختلف الالوان والاشكال ، ولا الشعر الا بهرجا براقاً لو صور بشرا سويا لنالت منه العيون مالا تنال النفوس ، ولا الأخلاق والمروءة والشرف الا آدابا يصطلح عليها المعاقرون ليدوم لهم صفو المجلس ، ثم ماشاء المعاقر بعد ذلك من غى وشنار ، وماطاب له من عيث واستهتار ـ لايشينه ذلك ولايقدح فى آدابه

فكانت الولادة يومئذ تلقب ابن زيدون بالمسدس وتفسر هذا اللقب

بهذا البيت :

فلوطى ومأبون وزان ودبوث وقرنان وسارق

وتكتب على طرازها الايمن :

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتيه تيها

وعلى الايسر:

وأمكن عاشقى من صحن خدى وأعطى قبلتى من يشتهيها

ويجيء المؤرخ الاندلسى فلا يرى فى شيء من هذا ما يدنس عرض المرأة ويغض من حيائها ولا يبالى أن يصفها بالصيانة والعفة والكمال ...!

ومما يدل أبلغ دلالة على حالة الاخلاق والاذواق فى ذلك العصر ماحدث به أبو عمر المالقى حيث قال : «كنت جالسا بمنزل بمالقة فهاجت نفسى أن أخرج الى الجبانة وكان يوماً شديد الحر فراودتها على القعود فلم تمكنى من القعود فمشيت حتى انتهيت الى مسجد يعرف برابطة الغبار وعنده الخطيب أبو محمد بن عبد الوهاب بن على المالقى فقال لى انى كنت أدعو الله تعالى أن يأتينى بك وقد فعل فالحمد لله ، فأخبرته بما كان منى ثم جلست عنده فقال أنشدنى فأنشدته لبعض الاندلسيين :

عصبوا الصباح فقسموه خدوداً واستوعبوا قصب الاراك قدودا

ورأوا حصا الياقوت دون نحورهم فتقلدوا شهب النجوم عقوداً

لم يكفهم حد الاسنة والظبا حتى استعاروا أعينا وخدودا

فصاح الشيخ وأغمى عليه وتصبب عرقا ثم أفاق بعد ساعة وقال : يابنى اعذرنى فشيئان يقهر اننى ولا أملك نفسى عندهما : النظر الى الوجه الحسن وسماع الشعر المطبوع »

وقد ألف الضرب على هذا اللحن شعراء الاندلس فقال بعضهم

فيه أيضاً :

سلبوا الغصون معاطفا وقدودا　　وتقاسموا ورد الرياض خدودا

تخذوا البنفسج فى الشقيق عوارضاً　　والياسمين معاطفا وزنوداً

بدلوا الخصور من الخناصر دقة　　واستبدلوا حقق اللجين نهودا

فهل عرفت فى هذا النحو قط أغرب من صبوة ذلك الشيخ الخطيب وتواجده واضطرابه حتى أغمى عليه طربا لسماع تلك الابيات الزرية وتصبب جسمه عرقا ؟ ؟ وهل رأيت عمرك أملح من هؤلاء الشبان ذوى النهود أو الشواب ذوات العوارض فى الخدود ؟ ؟

كذلك كانت صبوة القوم ومشربهم ، وكذلك كان الشعر الذى كان يطربهم ، اذا أرادوا أن ينبهوا بصائرهم الكليلة أو يحركوها وضعوا أمامها الصباح والشهب واليواقيت وكل ساطعة ولامعة صبرة واحدة لأنها لا تنتبه لما دون ذلك من المناظر الطبيعية . وتنظر الى أشعارهم واوصافهم ودواعى السرور والحزن عندهم فيذكرك كل ماتراه منها بحال المختبل السقيم أو المخدر المذهوب العقل . . . تراه مثاقل الاعضاء بطىء النفس راكدا يفسده السكون ولا تصلحه الحركة ،وتلمح فى طبعه روحاً تتوهمه سماحة وما هو بسماحة ، وفى خلقه مجوناً تحسبه فطنة وهو نقيض الفطنة، ينعكس النور على عينيه فيملأ الدنيا أمامه رهجا ووميضا ، وهو اذا سار فى طريقه صدمته المحسوسات كأن الدنيا ظلام دامس وليل أليل،وماتشاهد عدا هذا من عرض من أعراض التخدر فى الرجل ، فهو أيضاً عرض من أعراض السقوط فى الأمة . هما فى ذلكم سواء

ساعات بين الكتب

٥

الغزل الطبيعي

من الاوهام التى شاعت بين قراء الشعر عندنا و بعض قرائه في الامم الاخرى أن الرقة هى الصفة الاولى للشعر كله أو هى مزيته على النثر والكتابة والمباحث العقلية البحتة ، وان شعر الغزل على الخصوص ينبغى أن يكون مفرطاً فى رقته بعيداً عن الخشونة وعن كل مايذكر السامع بالعنف والقوة ، فلا يحسب من شعراء الغزل المجيدين الا من كان ظريف النسيب ، خافت الصوت والوجيب ، مكثرا من الشكاية والنحيب . فان بدرت منه كلمة جامحة ؛ وأفلتت من وقدة صدره نفثة لافحة . فليس ذلك بغزل . وليس الشاعر بمطبوع على العشق ولا بمدرب على « العواطف »، ولكنه دخيل فى هذه الصناعة متكلف لها . . .

ان هذا الوهم لا يقف ضرره عند حد الخطأ فى فهم الشعر أو فى الحكم على مقاييس الآداب والفنون عامة ولايدل على فساد ذوق و نقص فى ملكة التمييز بين صنوف الجمال فحسب . ولكنه يدل قبل ذلك على مرض فى المزاج وضعف فى الاخلاق وسخف فى مدارك الفكر، واذا دل على هذه الخلال فقد دل على ما يلازمها من سقوط الهمم وخبث الطباع وأعراض التأخر والفتور فى الامم ، لان النفس التى تحس الحياة حق

الاحساس وتجارى الطبيعة فى قوانينها ومقاصدها لايمكن أن تجهل العشق هذا الجهل ولاتخطىء فى وصف التعبير عنه الى هذا الحد . ولاحظ فى الحياة لمن انقطعت بينه وبينها صلة الشعور الصحيح المستقيم

ونعتقد انه ليس أعون لنا على فهم طبيعة العشق الصادق من الالتفات الى نقطة واحدة : وهى علة استئثار الرجل بالغزل دون المرأة . فلماذا انفرد الرجال بالغزل ولم تنفرد به النساء ان كان مصدره الرقة واللين والنعومة ، وكان براء من العنف والقسوة والخشونة ؟ ؟ ؟ ؟ ولماذا يباح للرجل أن يطلب المرأة ويحمد منه الالحاح فى طلبها ولا يباح لها أن تطلبه ولا يحمد منها أن تستجيب لأول دعوة منه ؟ ؟

أن الرجل لا يستأثر بذلك عبثا ولكن لانه أقوى عاطفة وأقدر على التغلب برغبته من المرأة ، ولهذا السبب استأثر فى أول الامر بالزينة والحلى (١) ثم شاركته المرأة فيها فانفرد دونها بالكشوط والندوب لانها شارة الايد والبسالة ، ولهذا أيضاً استأثر بالنداء على المرأة واستدعائها اليه بالغناء الصوتى أوالغناء المقسم بالحروف. وهما أصل الغزل فى الاحياء جميعاً

ولست أرى أن المرأة كانت تطرب حينئذ للاصوات من حيث هى جميلة وأجمل . ولكنها كانت تسمع أكثر الاصوات تنوع نبرات . وتفاوت مقامات . فتجدها أكثرها انفعالا وحرارة وأدلها على القوة والرجولة ، فتهيج فيها العاطفة العاطفة . وتبعث الرغبة الرغبة • وتنقاد للرجل الذى استطاع أن يزعج فيها رغبة العشق انقياد المجبر لا انقياد المنصت المميز بين

---

(١) قال لورد افبرى فى كتابه نشأة المدنية : « للهمج شغف عظيم بالزينة . وانه ليندر بين قبائل من أوضع البشر من يتزين من النساء لان الرجال يخصون بالزينة أنفسهم »

توقيع حسن وتوقيع أحسن منه ولهذا كان الرجل هو البادىء بالصياح ، اذ كان هو الاقوى صدرا • والاشد من ثم تأثيرا. فاذا امتلأ صدره بالهواء الحار أزجى به صوتا يردده الانفعال بين الارتفاع والهبوط والاستقامة والاهتزاز على الرغم من صاحبه . فيكون الغناء فى أبسط حالاته . ويغلظ لاجل ذلك صوت الرجل بعد البلوغ ولا يكاد صوت المرأة يتغير

وقد تلمس داروين علة الطرب من ناحية الرقة والرخامة فعسر عليه الوصول الى مصدرها وقال فى كتابه أصل الانسان : « لو سأل سائل ما بال بعض الالحان والاوزان يرتاح اليه الانسان وأنواع من الحيوان ؟ لما كان فى وسعنا أن نجيب عن ذلك الا بجواب السؤال عن سبب ارتياحها الى بعض المذوقات والمشمومات »

وليس الامر كذلك . لاننا اذا تلمسنا علة الطرب أولا من جهة التأثر بقوة الصوت وجدنا الجواب على ذلك السؤال سهلا قريبا وأمكننا أن نجيب من يسألنا : لماذا يؤثر أعمق الاصوات ارتجافاً وتمويداً . وأكثرها تنوعا وتجويداً ؟ ؟ فنقول له : لانها ترجمان العاطفة الشديدة . والعاطفة من شأنها أن تبعث العاطفة

ولا يزال الغناء كذلك حتى يتعلم الناس الكلام وينعقد الصوت الفاظاً وحروفاً ، فيتدفق الغزل من النفس المحتدمة تدفقا قويا عارماً . ويكون أجهر الرجال رغبة أهيجهم لرغبة المرأة . وأبلغهم الى نفسها كلاما واغلبهم على طبعها سلطاناً . ويكون الشاعر الاول فى عصور الفطرة هو أعنف الرجال عشقا . وأضراهم هياما

***

فالعشق فى طبيعته الاولى بعيد عن الرفق والسلاسة . وانما هو شواظ

لاذع يلتف دخانه بناره . ويتلهب شوقا الى وقوده ، فان أصابه خمد وعاد الشاعر يترنم بهناءة نفسه ، ويغتبط بالراحة من سورة طبعه . وأن لم يصب وقودا كان نقمة لاتطاق . وأى رقة فى قول المجنون :

كأن فؤادى فى مخالب طائر   اذا ذكرت ليلى يشد به قبضا
كأن فجاج الارض حلقة خاتم   على فما تزداد طولا ولا عرضا

ان قلب السامع لينقبض ، وان صدره ليحرج لهذا الوصف . ومع هذا أى شعر أبرع من هذا الشعر وأى شاعر أطبع وأعشق من المجنون؟؟ وليس العشق الصادق ، حين يشب أواره وتتأزم حلقاته ، بالعاطفة التى يود صاحبها دوامها ويستريح الى مناجاتها . كلا . وانما هو غمة مطبقة يود المبتلى بها لو تنقضى لساعتها ، ويقوم فى نفسه عراك لاتهدأ ثائرته ولا يهنأ بالغلبة فيه ، لانه هو الغالب وهو المغلوب . وكأنما ينزع نفسه من نفسه فيضيق ذرعا ويغوث من كرب هذا النزاع . نزاع الحيرة التى يقول فيها المجنون :

فوالله مافى القرب لى منك راحة   ولا البعد يسلينى ولا أنا صابر
ووالله ما أدرى بأية حيلة   وأى مرام أو خطار أخاطر

وكان كاتيولس (١) الشاعر الرومانى يدعو الآلهة قائلا « أيتها الآلهة ان كانت لك رحمة بالقلوب الصديعة المشفية . فبحق براءتى عليك الا ما نظرت الى عذابى ، ورثيت لمابى . ومسحت عنى هذا الوباء الماحق . والبلاء اللاحق . وهذه اللوعة التى تسربت رعدتها فى عروقى . فنفت الهناء عن قلبى »

---

(١) (Gaius Valerius Catullus) شاعر لاتينى ولد فى فيرونا سنة ٨٤ قبل الميلاد ومات سنة ٥٤ وهو من أكبر شعراء العشق فى اللغة اللاتينية ومن أمثال قيس وعروة وجميل وكثير عندنا

وهى رعدة عروة بن حزام التى يقول فيها :

وانى لتعرونى لذكراك رعدة　　لها بين جلدى والعظام دبيب

ووهلة المجنون التى يصفها بقوله :

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما　　أطار بليلى طائرا كان فى صدرى

فان طاوعته نفسه فى نزاعه ذاك والاحنق عليها ، وذهب به الحب الى كره ذلك المخلوق المسلط عليه الذى حرمه نعمة الطمأنينة ، وجلب عليه هـذا الشر ، وفرق بينه وبين نفسه . فيحب ويكره فى آن . وربما تمنى لحبيبه الموت لعل اليأس منه أن يشفيه كما قال جنادة العذرى :

من حبها اتمنى أن يلاقينى　　من نحو بلدتها ناع فينعاها

كيما أقول فراق لالقاء له　　وتضمر النفس يأساً ثم تسلاها

ولو تموت لراعتنى وقلت الا　　يا بؤس للموت ليت الموت أبقاها

وكان كاتيولس يقول : «انى لاكره وأحب . تسألنى كيف ذلك ؟ ؟ من يدرى . ولـكنى أحس بحقيقة هذا الامر وشدة برحائه .

وكذلك كان يقول المجنون : —

فيارب اذ صيرت ليلى هى المنى　　فزني بعينيهـا كما زنتها ليـا

والا فبغضهـا الى وأهلهـا　　فأنى بليلى قد لقيت الدواهيا

وليس فى نعت الحب بالداهية شيء من الرقة والدماثة ولـكنها حقيقة اتفق عليها شاعران ليس بينهما جامعـة من ذوق لغة ؛ أو مشرب قوم أو وحدة زمن . ولـكنهما اجتمعا على عاطفة انسانية صادقة — بل اتفق عليها كل شاعر عالج من العشق ماعالجه هذان الشاعران

وأحيانا يثوب العاشق الى نفسه فيبدو له كانه مختار فى شغفه وسلوته ، وكأن الامر لايعنى غيره ، فأن شاء سدر فى الحب وان شاء صدف ، وان

شاء مضى مع قلبه وان شاء وقف . فلا ينشب أن يستيقن عجزه وقلة حيلته ، وأن الامر فوق يده ووراء مشيئته ، وهذا الذى يصفه جميل اذ يقول

ألا قاتل الله الهوى كيف قادنى كما قيد مغلول اليدين أسير

وهنا يخيل اليه أو ألى الناس أنّ قوة فوق قوة الانسان تقهره على مشيئته وان رقية من رقى السحر أوطائفا من طوائف الجن يحول بينه وبين حريته . كما حيل لذلك الشاعر الروماني حين قال : — «أيتها الساحرة . . لئن جملتك طلاسمك فى عينى لتعلمن أن الوجد أطول أجلا من الاجلال . وانى لأهواك ولست بعد الا محتقرا لك . وان عد هذا ضربا من الخبال»

وكما يقول المجنون : ـ

هى السحر الا أن للسحر رقية وانى لا ألقى لها الدهر راقيا

أو كما يقول جميل :

يقولون مسحور يجن بذكرها فأقسم مابى من جنون ولا سحر

وما الجنون والسحر الا مابه . والافهل للعشق وصف أصدق من انه مزيج من جنون وسحر ؟ ؟ هل هو الا جنون يعتقل العقل ويهزأ بالحذر ويطير مع الاهواء فأن ثقلت عليه النهى أزاحها عن عاتقه ومضى لطيته؟؟ ألا يعرف العاشق مايوبقه ولكنه لايحيد عنه ، ويبصر مايشفيه وهو يأبى أن يذوقه ؟ ؟ وهل العشق المبرح الا أن يغطي على السمع والبصر ، وأن تنفث النفثة التى لاينجع فيها طب طبيب ولا نشرة عراف ، فاذا بالفريسة المغلولة مأخوذة بين يديه كما يؤخذ المسحور الى حيث أراد الساحر . وكما يثب الوسنان من وساده على غير هدى ، وهو المفيق الخادر والنائم الساهر ؟ ؟

ولا داعى للعجب من وجود عاطفة فى نفس الانسان تأسره هذا الاسر المؤلم الشديد ولامن وقوع الانسان فى أسرهذه العاطفة باختياره وأسفه عليها بعد زوال صرعتها؟ وانقشاء لوعتها؛ ولا من حنينه الى مايعانيه من عسفها كما يقول البحترى :ـ

وودت انى ماقضيت لبانة   منكم ولاانى شفيت غليلى

وأعد برئى من هواك رزيئة   والبرء أكبر غاية المكبول

نقول لاداعى للعجب من ذلك، لان الغرض من العشق غير مقصور على لذة الفرد ومصلحته ولكنه غريزة يراد بها بقاء النوع كله واتصال حبل الحياة جيلا بعد جيل، فلاعجب اذا صغرت حيلة الانسان وعيت مداركه عن مناصبة هواه فيه لان المدارك مدارك فرد واحد والهوى هوى نوع بأسره

***

ومن محاسن جميل واخوانه من الشعراء الغزليين أمانتهم فى الاعراب عن النفس والبث بالعاطفة . انظر الى قوله :

أرى كل معشوقين غيرى وغيرها   يلذان فى الدنيا ويغتبطان

وأمشى وتمشى فى البلاد كأننا   أسيران للاعداء مرتهنان

فهكذا ظن جميل، وهكذا يظن كل عاشق يسمع بلذة العشق ولا يرى أين هي،فيحسب انه هو الشقى وحده وأن العشاق كلهم سعداء . والحقيقة أن العشق لايخلو من الشقاء أبدا، ولو خلا منه لكان أشبه باللهو الذى يتشاغل به البطالون والمجان كعشق عمر بن أبي ربيعة والعباس ابن الاحنف واضرابهما من المخنثين . عشق أملس وقشعريرة ناعمة حلوة . فأما ما يبلغ منه الصميم، ويخترق الشغاف . وتتقاتل فيه الاهواء وينتهب

من النفس أخفى خفاياها . وأعمق دفائنها . فبعيد أن يكون لذيذا بالمعنى المعروف من اللذة

وما هو الا أن تخبو فى النفس تلك الشعلة وتترك فيها رمادها حتى يشعر العاشق ببرد الفراغ . ويذوق لذة الاحتراق بعد شفاء الكى واندمال القرحة . ويعلم حينئذ أن السعادة التى سمع بها هى تلك القوة التى كانت تصطرع للظهور . وتتأجج للسطوع . وان الانسان يسعد بقدر ماتأخذ نزعاته وعواطفه من مجراها ، وتنطلق فى مداها ، ولو كان فى ذلك هلاكه. وأنه خير له أن تكون هى قبره من أن يكون هو قبرها ، فيطرح نفسه مرة أخرى بين جناحى العشق الذى كان يجاذب ما يجاذب للأقلات من أوهاقه ، ويود لو أتيح له أن يستعيد تلك الغرارة التى استقبل بها العشق للمرة الاولى . وهذا لون من الجنون . ولكنه جنون ليس لانسان أن يفخر بسلامته منه أو تغلبه عليه . لان التغلب عليه قد يدل على ضعف الطبع لاعلى قوة العقل . ولا يصعب على أضعف الناس عقلا أن يكبح هذه العاطفة اذا كان طبعه أضعف من عقله

وليس مرادنا بأن العشق غريزة نوعية انه محصور فى معنى معين ومحبوس فى شعور واحد ، اذ لايخفى أن الغرائز النوعية متداخلة متوشجة، والعشق منها على وجه التخصيص يدخل فى كل ماليس بأنانى صرف من الطباع والاخلاق . ولذا سادت الانانية على الطفولة والشيخوخة لأنهما خاليتان منه ، وكانت الشبيبة وهى سن العشق سن الغيرية والايثار والمفاداة.

فليس تأثير العشق مما يقف عند الغرض الاول منه ولاهو بمقصور على العلاقة النسلية بين الرجل والمرأة ولكنه يمتد الى كل غريزة سواء أكان لها ارتباط بالشوق الجنسى أم لم يكن . وربما ملك النفس

وتمكن منها ولم يبلغ من تأثيره النوعي عليها الا أن يذكي فيها الغرائز الغيرية التي تقوم عليها علاقات المجتمع وان ينمي الاذواق النوعية الاخرى التي تترجم عنها الفنون الجميلة من شعر وتصوير وغناء ، ولذا كان أهل هذه الفنون ممن لا يستغنون عن العشق ، لأن موت عاطفته في نفوسهم يميت أذواقهم الفنية . وقد كان الفرسان في القرون الوسطى لا ينون بين حب وحرب ، يوري فيهم الحب نار الشجاعة وتشعل الشجاعة فيهم قبس الحب ، ويستحون أن يكون أحدهم محبا ثم لا يكون بطلا مغوارا ينضح عن ملته ومليكه ، لما بين الحب وحماية القبيلة أو الامة من العلاقة الخفية ، وكان العرب لا يشهدون قتالا أو ييممون بلدا الا ذكروا ذلك لصواحبهم في شعرهم واستهلوا به قصائدهم وافتخروا به في غزلهم ونسيبهم ، كانما هم لم يقاتلوا ولم يرحلوا الا لأجلهن وابتغاء مرضاتهن . وما جعل للحب هذا السبق على العواطف النوعية ولا صيره حافزا لها يثيرها كلما ثار الا كونه أصلها طرا ، فهو بلا شك أول غريزة دعت انسانا الى انسان غيره

هذه هي العاطفة التي ردها أرقاء الرقة الى ذلك الغزل المرذول الذي تقرأه للمتأخرين من شعراء الاندلس والعباسيين



ساعات بين الكتب

٦

الادب المصرى

اذن فهل تستهجن الرقة فى الشعر كله ؟ ؟ كلا فليس هذا ما نقوله ، وانما نقول ان الرقة تعاب فى غير موضعها وانها تملح بعض الاحيان فى الشعر بقدر ماتملح فى الرجل. ولكنها اذا كانت شرطاً من شروطه ، وغرضاً يبحث عنه ان لم يوجد فيه ، فقد ينم هذا الكلف على داء دخيل ، ويشف عن ذبول فى الطباع غير جميل

فمن ذا الذى يسمع الاغانى الشائعة فى أيامنا هذه ممن استقامت فطرتهم وسلمت من المسخ أذواقهم فلايخجله أن يكون هذا الطنين الخافت صدى نفوس آدمية ينتسب اليها وتنتسب اليه ، وانه كل ماتستطيع تلك النفوس أن تعبر به عن احساساتها وأن تترجم به عن أسرار حياتها فى اللغة التى خلقها الله للاحياء جميعاً ، والتى استطاعت الطير وغيرها من خلائق الله العجماء أن تعبر بها عن احساسات مختلفة ، ومطالب منوعة ؛ واستطاع أن يتعاطف بها من لا يتعاطفون بالكلام لقوة دلالتها وشيوع معانيها وعمق مصدرها من غرائز النفس وخوالجها ؟ ؟

أم من ذا الذى لايؤسفه أن يسمع نقادنا وقراءنا يتسكعون فى لطائفهم ورقائقهم الغثة ، فيعجبهم الهذر اذا وافق ما يتحرونه من أصول

الرقة ويثقل عليهم الكلام الفحل اذا خلا من تلك الاصول التى يتمحلونها، ويقولون :هذا مما لا يسيغه الذوق ولا ينبغى أن يخاطب به المحبوب أو يشبه به، وهذا يزرى من لطافة الشعر وحلاوته ، وهذا قبيح بالغزل والتشبيب. وهذه كلمة غليظة أو لهجة خشنة ؟ ؟ الى غير ذلك مما يخيل اليك أن القوم خلقوا من الشمع الذائب لا من الطين اللازب ؟ ؟

من ذا الذى يسمع هذا وذاك ثم يخطر له أن هذه النفوس خليقة أن يحرك فيها شعور نبيل أو أمل كبير أو عاطفة قوية شريفة . وانها جديرة أن تصبر على خطب داهم أو تذلل عقبة كؤدا أو تقمع نزغة طائشة ؟ ؟

لقد حارت الموسيقى والغناء عندنا الى مثل انين السقيم الحرض فى طلب المرضة ، وبات ينشدنا المغنى وكانه يشفق أن يذود النعاس عن عيوننا. وجاءنا الغناء الافرنجى فسخر منه أكياسنا وتنادروا به وتقرر عندهم أن الافرنج محرومون من لذة السماع ، عاطلون عن حاسة الذوق ، كيف لا وهم يطربون لهذا الضجيج والصريخ ؟ ؟ ولا كياسنا العذر ، اذ من أين لهم أن يعلموا أن هذا هو الغناء وهم يخافون على آذانهم هذا الخوف ؟ ؟ ولو كانوا أقل خوفا عليها من ذلك لعلموا أن الرجل يخالجه الغضب كما يخالجه الطرب. وأن النفس تدوى جوانبها بهزيم الرعد ويتجاوب فى نواحيها زفيف الاعصار كما يرن فى سمعها قطر الندى وزقاء الاطيار ، وأن الغناء هو صدى الطبيعة فى النفس ولم يقل أحد أن الطبيعة لا تنطق الا همسا ولا تطرب الا بما يخدرو ينيم

وقد نجحف بالريفيين وسكان السواد اذا نحن عممنا القول ولم نخصصه بالحضريين أو بالفئة التى تدعى لنفسها الظرف والفهم منهم ، فان الريفيين برآء من هذه الرقة ، وقل فيهم من يهتز لاغانى الحضر ، ولا سيما الفنى منها، وربما تظاهروا بالطرب مجاراة وتقليدا وخوفا من أن يرميهم الحضريون

بالجفاء وقلة الدراية . وهم فى الباطن يمجون هذا الضرب من السماع ولا يتحركون له كما يتحركون لا ناشيدهم الشجية الساذجة . وقد سمعت أحدهم فى محفل غناء يقول : مابال الرجل ؟ :ألعله يحتضر ؟؟ فضحك الذين حوله وعدوها جلافة قروية !! ولولا أن أغانى القرويين لاتجرى مجرى الفنون لسذاجة واضعيها ونشوز الحانها لكانت مثلا فى الغناء بما فيها من روح صريحة صحيحة مفعمة بالرجولة :مع بلاغة فى الاداء واستقامة وقصد فى العبارة

لقد كاد عبد الحمولى يحيي فن الغناء المصرى وينفخ فيه روحا جديدا بمزجه بين الغنائين المصرى والتركى (١) فانتعش بعض الانتعاش بهذا اللقاح . لكنه عاد فاستفل بعد موته . الا ماجدده بعض المغنين ، وفى يقيننا أن الغناء المصرى لن يصبح فناعاملا فى حياة هذه الامة مابقيت المعازف والآلات التى يوقع عليها الآن على قصورها عن حكاية أصوات الطبيعة وترجيع شتى العوارض النفسية

أما الادب — فمع أن الشعر لا يتغنى به منذ زمن بعيد — فقد أصابه ما أصاب الغناء وزاد عليه فساد الفكر فوق فساد الذوق وبقايا التقاليد الموروثة ، فكانت قيوده أثقل وقرا وجموده أصعب مراسا

ورثنا آداب الامة العربية على حين قد خارت عزائمها ومارت دعائمها

---

(١) قالت اللادى مونتاجو فى رسائلها « أؤكد لك أن موسيقى الترك بليغة مؤثرة جدا وقد أرانى أميل الى تفضيل الموسيقى الايطالية . الا أن هذا ربما ينسب الى التحيز وأعرف قينة رومية تغنى أحسن من الآنسة روبنصن وتتقن كلا من موسيقى الترك والطليان وهى ترجح الاولى على الثانيه » وهذه شهادة امرأة مهذبة وقد سمعنا نحن ما أيدلنا أن للترك موسيقى حية

واستحال شعرها الى كلام من فوقه كلام من تحته كلام . سوى ان لـكل كلام، ولو كان دارجا مبتذلا ، اغراضا يقصد اليها المتكلم ويتعمد الافضاء بها الى سامعه منزهة عن الخلط والعبث. وأما الشعر فكان لا يقصد به غير الوزن والاستكثار من محسنات الصنعة : فملأوه بالتورية والكناية والجناس والترصيع وجعلوا قصائدهم كلها كأنها شواهد نظموها ليذيلوا بها كتب البيان والبديع وظهر فى الشعر التطريز والتصحيف والتشطير والتخميس وراح الشعراء يتبارون فى اللعب بالالفاظ وجمعها كما يتبارى الاطفال فى جمع الحصي الملون وتنضيده ، وكان الشاعر منهم يلاحك البيت بالبيت أو يشبك المصراع بالمصراع ويخلط كلامه بكلام غيره وهو لا يحسب انه يخل بروح الشعر ، لأنه يلتزم حرف الروى فى كل بيت وعروض البحر فى كل قصيدة . . .

ورثنا هذه الآداب على حين فترة من اللغة فزادها سقوط الاسلوب ورذالته سقوطا على سقوط ورذالة على رذالة حتى صار أهون على الانسان أن يرفع بيده خرقة ملوثة منتنة من أن يجيل نظره فى ديوان شاعرٍ من شعراء هذا الطراز

ولا تعد فطنة الشعراء فى العشرين سنة الاخيرة الى حقارة النكات والمحسنات الصناعية تقدما يذكر فى الادب بعد مانشرته المطابع من مخبآت اللغة وودائع الادب العربى القديم ، وبعد تداول الناس أشعار الفحول الاوائل وكتب الاساتذة الفطاحل ، لانها نتيجة قريبة لابد منها على أثر ذيوع الادب القديم ومضاهاته بهذا الادب المعتل السقيم . وهى أقل ماينتظر من ادبائنا عامة والذين لم يشربوا فى صغرهم الشغف بتلك المحسنات خاصة ،ومن ثم نرى أكثر المطرحين للمحسنات ممن لم يعكفوا على دراستها

فى صغرهم ؛ فليس يعـد اقلاعهم عنها تغلبا على جمود ولاتغييرا لمذهب قديم بمذهب حديث . اذ كانوا قد حطموا قيودا لم يتقيدوا بها ونبذوا مذهبا لم يعتنقوه ، وزد على ذلك أن معظم الادباء اذا استقبحوا هذه المحسنات فلا يستقبحونها ترقيا منهم فى عرفان لباب الشعر وانفة من كد الاذهان سدى فى هذا السفساف ؛ ولـكن تعصبا للقديم واستخفافا بكل ماهو حديث ، وأحسبهم لو تقدم الاوان بالشعراء المصنعين فلحقوا بالجاهليين أوالمخضرمين لما وجدوا فى شعرهم مايعاب

وانما الحرى بان يدعي تقدما مثمرا التقدم فى الاحساس بالاشياء على ماهى عليه والاستعداد لتمييز أصدق الفنون المترجمة عنها . اذ أن هذا فى الحقيقة هو التقدم الذى يشمل الادب وغير الادب . والامة التى تباشر حقائق الدنيا بحواسها الظاهرة والباطنة لايكون قصاراها أن تخرج للعالم أدبا صادقا وانما يكون هذا الادب فيها كالزهرة اليانعة علامة على حياة سائر اجزاء الشجرة ، وقد تعددت تعريفات الفوارق بين الآداب الرفيعة والوضيعة ولـكنى لاأرى أصوب من ردها جميعا الى الفارق بين القائلين والـكاتبين ، لانى لم أتبين قط فضيلة تميز رجلا على رجل أو أمة على أمة الا تبينت لهذه الفضيلة اثرا فى التمييز بين شعريهما ، ولست أرى بين أجود الشعر وأردئه سوى فرق واحد جوهرى . وهو أن الشعر الجيد مالم يحل بين قائله والطبيعة حجاب من التقاليد أوعوج الطبع وأن الشعر الردىء ماليس كـذلك.

واذا عرفنا ذلك فانظر الى أشعار هذه الطائفة التى يسمونها الشعراء فى مصر — ايمكنك ان تصدق أن ماتقرأه من كلامهم هو كل ماتدخره الطبيعة لابن القرن العشرين من بدائع الآيات وروائع المضامين والاسرار ؟ وهل

تدرك من مدحهم وهجائهم وتشبيبهم غاية ماتدركه النفوس من محاسن الحياة ومساويها ومن معاليها وخسائسها ؛ ؟ألا ما أضيق الطبيعة اذن وما أحقر الحياة ! !

وربما سمعت اليوم بعض المتأدبين يقسمون الشعر الى اجتماعى وغير اجتماعى ، ويعنون بالشعر الاجتماعى شعر الحوادث العامة ، وبغير الاجتماعى مايعنى قائليه وحدهم ـ هؤلاء يزعمون أن الشعر زاد عليه فى عصرنا باب مبتكر واتسعت منادحه بالنظم فيما يهم الامة ،فلم يعد مقصورا على الابواب الخمسة المألوفة فى الدواوين القديمة وهي على الجملة المدح والفخر والهجاء والوصف والرثاء . وهذا جهل وخلط بين أغراض الشعر الحقيقية التى تفهم من معناه وبين عناوين ابوابه فى الكتب ، والا فأى شعر اقدم من الشعر الاجتماعى عند العرب ؟ ؟

فهذه داووين شعرائهم الاقدمين والمحدثين هل خلا أحدها من عدة قصائد فى كل واقعة من الوقائع التى كانت تهمهم يومئذ ؟ ؟ وهل مجرد حدوث الوقائع فى القرن العشرين لافى القرن العاشر أو الخامس جاعل للشعر المنظوم فيها روحا جديدا أو نمطا مبتكرا ؟ ؟

ثم اننا لا نعرف شعراً يرويه الناس ويقال انه يعنى قائله وحده . لان شعر النفس يعنى كل نفس ، والشعر الذى لا يعنى قراءه لا يستحق أن ينظم ، ومامن شعر نظم الا وهو بهذا المعنى شعر اجتماعى ، لانه يبين عن حالة المجتمع ويؤثر فيها . وان لم يكن اجتماعيا بمعنى انه يخاطب الامة أو يدون حادثا قوميا أو عملا من أعمال الجماعات، وربما خدعك الشعر الاجتماعى عن حالة الامة لخطأ فى رأى صاحبه وانحراف فى نظره الى الحوادث وتقديره لها ولم يخدعك شعر الغزل مثلا،وهو اخص القول بقائليه . لان الغزل هو

فى آن واحد مسبار نفس الرجل ومعيار قيمة المرأة . ومن رأى ماكولى نقادة الانجليز ومؤرخهم أن أغانى بترارك الشاعر الايطالى الغزل قد جلت عن المرأة الايطالية هوانها ورفعت من شأنها نهضة ايطاليا ، وليس هذا الرأى بغريب عند من يعلمون العلاقة بين الغزل وحالة المرأة ونهوض الامة

ومما تقدم يبدو لى انه ربما نشط فن الموسيقى المصرى من عقاله وربما ولد التصوير المصرى على أحدث طراز واحكمه وأتمه والادب رهين قيديه بين مزدحم الآراء ومشتجر الاهواء ، يختلف عليه الارقاء الذين لا يريدون أن يسمعوا كلمة لا تمسكها الاصابع باطراف أناملها أو تلتقطها الجفون بأهدابها ، والجامدون الذين يؤثرون أن يدبروا بالدنيا الى الوراء ولا يتزحزحون قيد شعرة عن القديم ، وليس لهذا الاختلاف فائدة لانه لا يدني أحد الفريقين من الادب الصراح ، ولا يهديه الي خطئه. فالذين ينكرون الذوق السخيف لا يحجمون عن استحسانه متى صيغ لهم فى الاسلوب الجاهلى أو المخضرم ، والذين ينكرون مذاهب الجاهلية ومعارض النظم عندهم لا ينكرونها متى صيغت لهم فى الاسلوب المهلهل الرقيق الذى يستحسنونه . واذا انتهي الخلاف بينهما باقناع أحدهما وتحوله الى رأى مخالفه فانه لا يتحول حينئذ الى ماهو خير من رأيه الأول . لأنهما سواء فى الخطأ وسواء فى البعد عما نسميه بالادب الصراح

***

وماعلمت فى تاريخ الآداب حالا أعجب ولا مسلكا أوعر من حال الاديب العصرى فى مصر ومسلكه — وانما عجب حاله وتوعر مسلكه لأن فى مصر الادباء العصريين وليس فيها القراء العصريون . أو ربما كان

فيها القراء المصريون ولكن الصلة بينهم وبين الاديب العصرى مقطوعة

والقراء فى مصر واحد من ثلاثة . قارىء الاقاصيص والنوادر ، وقارىء الادب العربى ، وقارىء الادب الافرنجى

فأما قراء الاقاصيص والنوادر فهم أغبى من أن يقرأوا أدبا قديماً كان أو حديثاً . وهم أجهل ان قرأوه من أن يميزوا بين زهيده وثمينه وزيفه وصحيحه . وبغية هؤلاء من الكتب انما هى تمرين السنتهم على الهجاء أو تبديد الوقت فى البطالة والفراغ

وأما قارىء الادب العربى فأن كان ممن يقرأ فلا يروىء فى المطالعة بصره ، ولا يصير من تلاوة الشىء الى الحكم عليه، فما أشبهه بقراء الاقاصيص!! وان كان يقرأ ويحكم فهو انما يحكم بطراز ألفه وشب عليه فلا معدل له عنه

ولا مقياس للادب العصرى غير آداب الامم التى سبقتنا فى أدوار الحياة والفنون وهو — أى قارىء الادب العربى — معزول أتم العزل عن آداب تلك الأمم . لا يستطيع نقدها وتقديرها أو يستطيع أن يميط الحجاب عن عالم الغيب . لأن حكم الرجل على ماليس يعرف وتوهمه فى نفسه القدرة على نقد أدب لا يلحن لغاته ولا يقرأ كتبه ولا يلم بسير أدبائه وأخلاقهم وبمحاضراتهم ومساجلاتهم أو يحيط بآراء النقاد فيهم وأقوال بعضهم فى بعض ويعارض بين عصورهم ومذاهبهم ثم لا يعلم الميزان الذى يزنون به اجاداتهم وملاومهم — هو بمثابة حزر الغيب والخوض فى عالم المجهول

وقد يحسن هؤلاء الادباء المقارنة بين الادبين من جهة واحدة هى جهة المشاركة بينهما وهي أخس مافى الادب العصرى وابعده عن جوهره وزبدته،وكائن ترى منهم من يقارن بين أديب محدث وأديب مقلد فيرجح هذا على ذاك لانه أرجح من قبل المشاركة ، ويصفح عما سوى ذلك من الحسنات

التى استدق سرها عليه ، بل يتعجل فيقضى للادب القديم جملة على الادب العصرى جملة ، وهو ان كان له عذر فى جهله بفضائل الآداب الاجنبية فلا عذر له فى الحكم على ما يجهل.

وربما عجبك من بعضهم أن يأنق للفصل الانيق أو يستجيد قصيدا جيدا . فاذا سألته عما راقه اضحكك أن تراه ينتخب مالم يخطر للكاتب أو الشاعر على بال ويسهو عما عمل له وتحراه كأنه ليس فى الفصل أو القصيد

هذا محك أولئك الادباء على ماعلمت من الزلل والانحراف . وهم كما رأيتهم ليسوا بأخبر من قراء الاقاصيص بغرر هذا الادب وعرره.

وأما قراء الادب الافرنجي فأيسر لهم أن يقتبسوه من أمهاته ويرتادوه فى لغاته ، واكثرهم لاذوق لهم ولا بصر باللغة العربية فماهم بأفهم للمعاني المودعة فيها من سواهم

كانت حياة الادب بالقبيلة ثم صارت حياته بالرؤساء فى القرون الوسطى. وليست مصر فى حال من هذين . ثم صارت حياته اليوم بالقراء ، وهم فى مصر كما عهدت فهل بقى للاديب العصرى الا أن يجاهد لنفسه ،وهل لصنف من هؤلاء القراء حق عليه ؟ ؟

ساعات بين الكتب

٧

عجائب المخلوقات

قلنا فى الفصل الذى تقدم على الكتب أن القارىء الحريص على الفائدة البصير بالاستفادة لا يزهد فى قراءة الكتب الغثة ولا يقصر قراءته على الكتب السمينة ، وانه يجب أن تتم الفائدة من الكتاب والقارىء لا من الكتاب فقط . وهذه خطة قد يكون لقراء بعض اللغات بد من اتباعها ولكنها مما لا بد منه للقارىء العربي لاختلاط المؤلفات وقلة العناية بتقسيمها ، وقد يوجد الغث والسمين فى كل لغة ولكنا لا نراهما ممزوجين مزجا تاماً كما نراهما فى المؤلفات العربية . فالكتاب العربى خليط يجمعه صاحبه من هنا وثم ويحشر فيه من جميع مايحفظ من قصة تاريخية أونادرة فكاهية أوقصيدة مأثورة أو حادثة مشهورة ـ فلا يسعك أن تميز بين مايقرأ ومالا يقرأ لأول نظرة ، ولا تجد فى نسق التأليف وطريقته تفاوتا بين كتاب وكتاب ، فان كان هناك تفاوت فهو فى الحجم والعبارة لا فى التأليف والتقسيم .

وكلمة التأليف وحدها كافية لمن يجهل اللغة العربية ويريد ان يحكم على طريقة التأليف فيها من كلمة واحدة ، اذ التأليف هو الجمع ،والتأليف العربى انما هو الصيغة التى ظهرت بها أخبار الرواة واسانيد النسابين بعد أن تعلم

العرب الكتابة واشتغلوا بتدوين الكتب ، فكان المؤلف العربى خليفة الراوية أوالنسابة فى هذه الصناعة .وكان الرواةوالنسابون يجمعون الاخبار والقصائد ويذكرون المحامد والمثالب والانساب والمفاخرفلماذهب الراوية وجاءالمؤلف جرى على هذه الطريقة ، فكان يضع الكتاب المطول لايكون له فيه غير توطئة يستهل بها بابا أوجملة يعطف بها خبرا على خبر ، ولم يشذ عن ذلك غير القليل وأكثر هؤلاء الشاذين من كتاب الاخلاق والفقه

وعذر العرب فى هذه الطريقة هو عذرهم فى كل نقص آخر فى السياسة أو الاجتماع، واعنى به انتقالهم فجاءة من البداوة الى المدنية وانهم لبسوا رداء المدنية على طباع البداوة وبقوا بدواً فى دولتهم وبدواً فى معيشتهم وبدواً فى تأليفهم وأدبهم، مع ماشيدوا من الآطام وأثلوا من الآثار الجسام

أقول هذا وبين يدى كتاب وضعه صاحبه (القزوينى) على هذه الطريقة وسماه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، وهو لو سماه عجائب المختلقات وغرائب المعدومات لأنصف ولكان الكتاب قطعة جميلة من أبداع الخيال ووحى الفكاهة تشهد لصاحبها بالافتنان فى القصص والقدرة على التصور

وما كنا ننتظر من كاتب ينشأ فى عصر كعصر القزوينى أن يصنف كتابا فى التاريخ الطبيعى أو فى علم الاحياء صحيح البحث جيد الاستقراء ، ولكنه كان يسعه على الاقل أن يفرغ تلك الترهات والاساطير فى قالب الموضوعات العلمية المبوبة ، فلا يفوته الترتيب ان فاته التحرى والتدقيق

ولسنا نريد أن نبحث فى موضوع الكتاب ولكنا ننظر فيه هنا من جانب آخر ،فيلوح لنا انه لم يتجرد من الحقيقة البعيدة وان تجرد من الحقائق الملموسه القريبة ، ونستعرض فيه مايستحق من أجله القراءة ، ولعله يصلح

أن يعد جرثومه لمذهب النشوء والارتقاء ، نشأ منها فى القدم ثم ارتقى عنها ذلك المذهب ، فمن ذلك قوله فى ترتيب الكائنات بعد أن قسم الاجسام الى نام وغير نام وهو مانسميه اليوم العضوى وغير العضوى : « أول مراتب هذه الكائنات تراب وآخرها نفس ملكية طاهرة . فأن المعادن متصلة أولها بالتراب أو الماء وآخرها بالنبات . والنبات متصل أوله بالمعادن وآخره بالحيوان . والحيوان متصل أوله بالنبات وآخره بالانسان ، والنفوس الانسانية متصلة أولها بالحيوان وآخرها بالنفوس الملكية .. »

وهذا قول لايعزز بتجربة ولايدعم ببرهان ولكن ماظنك بمكان الفروض والا ظانين من معارف الانسانية بأسرها ؟ ؟ وهل كانت قضايا دارون نفسها قاطعة فى تأييد مذهبه واثبات نتائجه ؟ ؟

وعلى ان ترهات الكتب القديمة وفروضها تنفعنا الآن أكثر مما تنفعنا حقائقها ، لانها هى البقية الباقية لنا من تلك الاوهام التى تسلطت على العقل البشرى فى ازمانه الخالية ، وهى المفتاح الذى ليس لدينا مفتاح سواه لخزانة المخيلة وما اكنته من تصورات الانسان ووجداناته وما انطبع فيها من البدائه العميقة المتغلغلة التى عودتنا أن تنطق بالاحاجى والالغاز وتبهم حتى على صاحبها وهو الذى أوجدها وصورها

فقد حفلت كتب السلف بروايات المسخاء والمبدولين ، وتناقلوا فى الحكايات أن الحيوانات المختلفة يتناسل بعضها من بعض ، ويتسلسل بريها من بحريها ، أجمعت على هذا كتب العرب وغير العرب واتفقت عليه كتب الدين وكتب الادب ، وهذا الكتاب الذى نحن بصدده مكتظ بتفصيل انواع هذه الحيوانات ومايتشا كل منها فى البر والبحر . فنها كلب الماء وقنفذ الماء ، وبقرة الماء وفرس الماء ، وزعموا انها تلد من خيل الارض ، ومنها

انسان الماء قال القزوينى :« يشبه الانسان الا أن له ذنبا وقد جاء شخص واحد منه فى زماننا فى بغداد فعرضه على الناس وشكله على ماذكرناه وقد ذكر انه فى بحر الشام ببعض الاوقات يطلع من الماء الى الحاضرة انسان وله لحية بيضاء يسمونه شيخ البحر ويبقى أياما ثم ينزل فاذا رآه الناس يستبشرون بالخصب ، وحكى أن بعض الملوك حمل اليه انسان مائي فأراد الملك أن يعرف حاله فزوجه امرأة فجاء منها ولد يفهم كلام الابوين فقيل للولد ماذا يقول أبوك قال اذناب الحيوان كلها على اسافلها مابال هؤلاء أذنابهم على وجوههم. . . » ونقل عن يعقوب ابن اسحق السراج « أن رجلا ركب البحر فالقته الريح الى جزيرة قال فلم نستطع أن نبرح عنها فأتى قوم وجوههم كوجوه الكلاب وسائر ابدانهم كأبدان الناس » الى آخر ماهو مشهور من هذه الاساطير

فما مغزى هذا الاجماع والتواتر ؟ ؟ وماذا فى طى هذا الاعتقاد بأن الانسان يتحول أحياناً من هيئته الى هيئة حيوان أدنأ منه ، أو أن فى عالم الحياة مخلوقا بعضه انسان وبعضه حيوان ؟ ؟ هذا شعور لم يرد الينا من ناحية الحواس ولكننا لانجهله . وصحيح أن الخيال مفطور على مزج أشكال الحس والباس الموجودات لباس الانسانية ولكن لماذا فطر الخيال على ذلك ؟ ؟ أكان يستحيل أن يفطر على غير هذه الفطرة . وهل لو خلق الانسان عن غير عنصره المعروف كان يتخيل هذا الخيال بعينه؟ ؟ألايجوز أن يكون مغزى هذا الاجماع والتواتر ان فى جبلة الانسان شعورا راسخا بوحدة الخلق وتلاحم سلسلة المخلوقات فى النسب على تباين اشكالها وتباعد مراتبها وبناها ، وانه لاحاجز فى التكوين بين حيوان البحر وحيوان البر ولا بين الانسان وعامة الحيوان ؟ ؟ ـ شعورا أعمق من الفكر لا بل أعمق

من الخيال نفسه ، يتكلم باللسان فيكنى ويلفق ويتكلم بالبديهة فيصرح ويصدق ؟ ؟ ولماذا ننفى وجود شعور كهذا يصل الانسان على وجه ما بشىء من اسرار الحياة مع علمنا أن الانسان قد اتصل بالحياة قبل أن يصله بها عقله وحواسه ؟ ؟ أليس ترجيح وجود هذا الشعور أولى وأحرى بقدم العلاقة بين الاحياء والطبيعة ؟ ؟

فلا يبلغن من قصور العقل أن لا يصدق الا بالعقل وحده ، ولا يبلغن من ضيق النظر أن نقسر حواس النفس كلها على أن تنحو نحو الحواس الخمس كأن الانسان لا يتصل بالدنيا الا بها وكأنما الخيال ليس جزءاً من الانسان كما هى جزء منه ، فربما كانت هذه الترهات والخرافات أقطع فى الدلالة على وحدة الخلق من كل شبه ظاهر واستقراء بعيد ، وربما كانت كتب الاساطير أسبق من كتب العلم كلها الى ابداء مذهب النشوء والتمثيل له بلغة لا يتخللها الباطل وكل . ظاهرها باطل وتلفيق (١)

---

(١) هذا آخر ماينشر فى هذا الكتاب من المقالات التى سبق طبعها باسم «ساعات بين الكتب» وهو اسم كتاب الفناه فى منتصف سنة ١٩١٤ وطبعنا منه خمس كراسات على نفقتنا ثم اتفقنا مع بعض الكتبية على اتمام طبعه واسلمناه عدة كراسات من مسوداته التى لم تطبع . وما كدنا نبرح القاهرة الى اسوان حتى ضم الكتبي ماسبق لنا طبعه وأخرجه فى شكل كتاب تام وأغلق المكتبة فلم نقف له بعدها على أثر

جمال الطبيعة (١)

نحن الآن فى أبان الربيع — جمال الطبيعة على أتمه ، والدنيا فى زخرف العرس . والأرض قد أخرجت زخاريها ، وكشفت السماء عن جبينها ، وفتح الليل صدره للساهرين بعد اذ كان كأنما يذودهم عنه الى الجحور والمخابىء زبانية الزمهرير — فمن باب التحية الفكرية لهذا الجمال الفائض على كل شىء ، وهذه الحياة المالكة لكل نفس أن نرجع الى انفسنا فنسبر فيها غور تلك الروعة وذلك الانس اللذين نشعر بهما بين يدى الطبيعة . وان نسألها عن سرما تستهول من جلالها وعظمتها ، ومعنى ما تستجمل من روائها وزينتها . وذلك أقل ما يجب علينا للربيع من صلاة الفكر وتسبيحه

وللطبيعة سر مقترن بسر الحياة لست أتعرض له . وفيها جانب يتصل باحساسنا ووعينا هو الذى سأبحث فيه هنا . ولست مستهديا فى البحث بالعلم الطبيعى وحده ولا بخيال الشاعر وحده ، ولكنى أمزج بينهما ، اذ لاغنى عن تدقيق العلم وعن سليقة الشعر معا لمن يود البحث فى أمر ينتظم طرفاه بين عناصر الطبيعة وسرائر النفس الانسانية

نحن نعلم أن حب الطبيعة من الغرائز وان الغرائز مما لا يدخل فى حيزة الفكر والقصد ولكننا نعلم كذلك أن منها ماهو موروث عن الاجداد والاباء . وانهم كانوا يتعمدون بعض أفعالهم التى صارت غرائز فيما بعد تعمد الارادة والروية ، ثم انتقل الشعور بهذه الافعال الى نفوسنا بالوراثة كما يتوارث الحمل خوف الذئب ولم يره ، أو يتوارث الارنب خوف كلب الطراد وما أحس له بسطوة

(١) نشرت فى المؤيد ١٨ مايو سنة ١٩١٤

فاذا خطر لنا أن نقف على سر ميلنا أو نفورنا من شيء من الاشياء وغم علينا طريق السبب ، فقد يسهل علينا أن ننقب عن موقع ذلك الشيء من نفوس أجدادنا ثم نقابل بينه وبين موقعه فى نفوسنا . وسنجرى على ذلك فى تعاليل الميل الى الطبيعة ، فماذا نرى ؟ ؟ ماذا كان يبغي أجدادنا الاولون من الطبيعة ؟ ؟

كل علاقتهم بها كانت تنحصر فى ثلاثة أشياء . وهى أنهم كانوا يخافون الطبيعة ويرجونها كما يخاف الرجل ربه ويرجوه . وكانوا يرتادون فيها الكلأ والرى لهم ولانعامهم ، وكانوا يشاركونها فى مواسمها وأعيادها ، لأنهم بعض عناصرها وأجنادها

خلقت مخيلة الانسان الاول خلاقين لايحصر لهم عدد ولايؤمن لهم شر ، فكان يخطو من هذه الارض فى عالم حافل بالآلهة والارواح ، مكتنف بالمردة والشياطين ، فى كل كوكب اله ، وفى كل نسمة خافقة روح هفاف . وفى كل عنصر من عناصر الطبيعة رب متصرف . وكان مع هذا محوطا بالاوابد والضوارى يجالدها وتجالده ، وينازعها آجامها وتنازعه — فاذا أدلج تمشي كالسارق المتحفز . ونزل به جزع المروع على حياته ، تصفر الريح فاذا هو واجم متربص يحسبها روحا سارية . فلا يدرى أناقمة هي أم راضية . وروح خير هى أم روح شر عاتيه . ويسمع حفيف الاشجار فيخالها وجس الجنة والعفاريت تأتمر به ، ويومض البرق فيحسبه الها حانقا ينذره بغضبه ، ويختلج كوكب فوقه فيظن له نبأ عنده فيخشع ، أو يسمع زئير الاسد وهو لا يبصر مكمنه فينتفض جسده ويهلع ، فهو لذلك يرهب الليل كما يرهب المنون

خرجنا ذات ليلة نستروح الهواء فى أرباض بعض المدن — وكان البدر

فى تمامه . والرمل يلتمع فى نوره الشاحب كما يلمع التبر فى نار البوتقة، وكان الوقت صيفا والليلة شديدة الحر . ركد فيها النسيم وخرست الاشجار فباتت ظلالها ــ كما يقول هينى ــ كانما دقت فى الارض بمسمار . فجلسنا عند أحقاف النهر ثم قال احدنا : هلموا الى النهر نبترد

قلنا : هلموا ، ونهضنا الا صاحبا لنا كان يطربنا برخيم صوته وشجى غنائه فلم يشأ أن ينهض معنا ، وقال لست معكم فى هذا.

قلنا . ولم ؟ ؟

قال ان لهذه الاماكن حفظة من الملائكة والجن ، وانهم يسرحون فى النهار ثم ينسلون الى مخادعهم بالليل . ثم قال مازحا : فان وطىء أحدكم ذنب عفريت أوداس على جناح ملك فلا يلومن الا نفسه ! !

ماهؤلاء الحفظة الذين تحاشاهم صاحبنا الا سلالة تلك الارواح التى عبدها آباؤنا فى غسق التاريخ ، لدن كان أولئك الآباء يقدسون الانهار والعيون والينابيع ، ويجعلون لها أربابا تدعى وتخاف وترجى . ويضعون فى كل منها أرواحا وعرائس يقربون اليها القرابين ، ويرتلون باسمها ترانيم الصباح والمساء

ولسنا اليوم نؤله العناصر أو نخشى غارة السباع ، ولكننا نشأنا فى هيكل قدسه آباؤنا فاقتفينا آثارهم . وربما بلغ أحدنا غاية الجرأة وتنزه عقله عن هذه الاوهام فجعلها هزؤا ومجونا ولم يؤمن بشيء منها ولكنه مع ذلك لا يطرق المكان نهارا كما يطرقه ليلا ، من من أثر ذلك الخوف القديم

***

والطبيعة بعد مرتاد كلأ ومؤنة كما قلنا فى أول هذا المقال ــ لا يتصور كيف كانت تهش لها نفس الهمجى ويهتز لها قلبه الا من تخيل نفسه مرة فى ركب ضل سبيله فى فلاة ديموم ، وقد نفد ماؤه وفرغ زاده فبلغ منه

العطش والسغب . وأتلفه القيظ والكلال ، حتى يئس من النجاة ؛ وأيقن بالهلاك . ثم ارتفعت له بعد ذلك رؤس الاشجار تمتد من تحتها الظلال ، ولمعت لعينيه الجداول تترقرق بالماء الزلال . انه ليعلم حينئذ أن هذه المناظر خليقة بأن يرقص لها قلب الهمجى ، فقد كان أبدا فى مثل ذلك الركب . كان يتنقل من بقعة الى بقعة طلبا للرى والمرعى : فلا يصل اليهما الا بعد أهوال يتجشمها ، ومخارم وجبال تقطعه قبل أن يقطها ، وبعد أن يصارع الضوارى العادية ، والكواسر الجارحة . أويقاتل على تلك المراعى والمراتع عشائر يحرصون حرصه عليها . فاذا هو أشرف بعد هذا النصب على واد خصيب لاجرم أشاع فى نفسه احساساً لايقارن به احساسنا الآن بالطبيعة الا كما يقارن الصوت بصداه والوجه بصورته فى قرار الغدير . فنحن نخف اليوم الى الخضرة وان كنا لا نتزود منها طعاما ، ونفرح بالماء وان كنا لا نتخذ منه شرابا . ولكن فى باطن هذا الفرح بقية من فرح الظمآن بالرى والجائع بالقوت ، وما هو فى الحقيقة الا صدى ذلك الفرح القديم وصورة منه باقية فى قرارة نفوسنا

***

على أن من أحسن مايروقنا فى الربيع أزهاره ، وليست هى مما يخاف فيعبد ولا مما يستطعم فيؤكل . فأى شأن لها فى نفوسنا ؟ ؟ بل قل أى شأن لها فى نفوس كثير من الاحياء ، فانها لا تروقنا وحدنا ولكن تروق الحشرات والطيور أيضاً . ومن هذه الحشرات والطيور ما يستهويه جمال الازهار فيجعله واسطة لتلقيح اناثها من ذكرانها ، ومنها ماتعجبه هذه الالوان التى تزدهى بها الرياحين كما تعجبنا ، وفى كتب داروين وغيره من النشوئيين شواهد وأمثلة على هذا الاعجاب . فقد ثبت ان أناث بعض

الطيور لاتميل الا الى آنق ذكورها ريشا ، وأبهاها نقوشاً ، وأحسنها فى الالوان اختلافاوترقيشاً ، فأيةعلاقة ياترى بين هذه الالوان وبين الانتخاب الجنسى ؟؟

نرجىء هذا قليلا لنسأل : ماهو الربيع ؟ ؟ أليس هو فصل الحب ؟ ؟ أليس هو الموسم الذى تشرق فيه ألوان الازهار فتتزاوج كما يتزاوج الاحياء؟ ألا تنكشف للعشاق علاقة هذه الازهار بالغرام فيتراسلون بالانوار الندية، والرياحين الشذية، ويخرجون اذا أقبل الربيع الى المنازه والخلوات فيختارون من الاماكن ماتحف به الورود المتعانقه والطيور المتعاشقة، وتفاجئهم بهجة الحب من داخل نفوسهم ومن خارجها فى نفثة واحدة من نفثات الطبيعة الحية ؟؟ وأى ميلاد يؤلف بين نسبها ونسبنا واية قربى تمت بها الازهار الينا ألصق من القربى التى تجمع فى موسم واحد بين توالد ناوتوالدها . وحياتنا وحياتها وامتزاج الجمال والحب فيها بامتزاج الجمال والحب فينا ؟ ؟

ولم يحقق لنا العلم ماهو سر تأثير الالوان فى الزهر على أبصارنا ولا ماهو سر تأثير الزهر بذاته فى شعورنا . ولكننا قد نرى علاقة النور بالالوان . ونرى علاقة الحرارة بالنور ، ونرى علاقة الربيع بالحرارة ، ثم نرى علاقة العواطف الغرامية بالربيع . فكلها عناصر ربيعية تظهر بباعث واحد فى زمن واحد ، ولا نرى منها الا ماهو من الحرارة قابس وبالضوء مزدان ولابس ، وفى الحب مغروس وغارس

الحرارة تنبعث من الشمس الى جوف الارض فتتخللها فتنبت البقل والثمرات — ذلك هو الربيع

والحرارة تبسط نورها على الازهار فينسج على أوراقها اللطيفة ألوانه، يحليها بأصباغه ونقوشه . ذلك هو سحر الالوان وبهجة الازهار

والحرارة تجرى الدم فى العروق فتتيقظ العواطف التى أنامها الظل ، وتتحرك الحياة الكامنة فيملكها الشوق الى تجديد الحياة فى مخلوق جديد: ذلك هو الحب

فالربيع والازهار والحب أشقاء لم يولد بعضها بعضاً ولكنها تولدت على السواء من أم واحدة هى الحرارة . أوهى الشمس : أم الحب والحياة فى هذا النظام

***

قال ابن الرومى يصف الارض فى فصل الربيع :ـ

تبرجت بعد حياء وخفر تبرج الانثى تصدت للذكر

وقد أخذ عليه صديقنا المازنى خلطه فى التشبيه بين المذهب الحسى والمذهب النظرى . أما أنا فلا أميل الى رأى الصديق فى مؤاخذة الشاعر وقد أرى انها لطافة حس فيه جعلت نفسه تشعر بتلك العلاقة الخفية بين تبرج الازهار وتبرج النساء ، ويلوح لى أن المسألة لم تكن عند ابن الرومى مسألة تشبيه جاءت به المناسبة العارضة ، وانما هو شعور غامض فى نفسه لا يفارقها. وآية ذلك انه كرر هذا المعنى فى غير ما موضع فقال فى بعض رثائه؟

لمن تستجد الارض بعدك زينة فتصبح فى أثوابها تتبرج

وقال أيضاً

ليست فيه حفل زينتها الد نيا وراقت بمنظر فتان

فهى فى زينة البغى ولكن هى فى عفة الحصان الرزان

وربما كان علة هذا الشعور الغامض اضطراب فى جهاز التناسل هيج جميع أجزائه المستدقة فهز خيوطها ، ونبه أقدم وشائجها، ومنها الاحساس بذلك التبرج كما هو فى قلب الطبيعة . أما هذا الاضطراب الذى اومأنا

اليه فمما يسهل الاستدال عليه من شعر ابن الرومى ، ولانخاله يخفى على من يقرأ ديوانه فيطلع على شهوانيته الظاهرة فى وصف محاسن المرأة ، والتغنى بما ظهر ومابطن من اعضاء جسمها وربما دل عليه رثاؤه لابنائه واحداً بعد واحد ومايشير اليه ذلك من ضعف نسله واضطراب جهازه. أضف الى هذا مايؤخذ من أهاجيه فيمن اتهموه بالعنة وأشياء أخرى لاحاجة الى ذكرها. وفى جملة هذه الاشياء ماتعرف منه أن الرجل لم يكن من هذا الجانب سليما، وانه كان خليقا بطبيعة تركيبه ومزاجه أن يشعر بتلك الحقيقة ، ويستنبط من أغوار نفسه تلك الاحفورة الشعرية النفيسة . ولاغرو فان النفس اذا شفت كالبحر اذا شف يتراءى لناظره ماخفى فى أعماق قراره

***

ذلك مجمل رأينا فى هذا الذى نشعر به من روعة الطبيعة وحسنها ، انما هو كما يبدو لنا مزيج من العبادة والامتيار والغرام

الرسائل

الرسالة الاولى (١)

. . . .

لم افتح رواية جوتييه في الاقصر لانى كنت قد أمعنت فى كتاب «سادهانا لتاجور» فانفت له أن اخلط قراءته بقراءة أى موضوع ممايجول فيه قلم جوتييه واشباهه ورأيت أن لا أكون بخلطى بين الكتابين كمن يغازل فى المحراب أو يكتب الخمريات على هامش القرآن، فاقبلت على الكتاب حتى أتممته فاذا سفر من أجل أسفار الدنيا وأحقها بالدرس والتأمل، ولم أكد افرغ منه الاعلى شوق الى اعادته . ولست أعنى انى تلقيت الكتاب بالايمان الكامل ولا أنه اشتمل على كل مايعرف من سر الحياة فانى لا أنتظر ذلك من كتاب قط، وحسب المؤلف عندى أن يكون فى كلامه ما يصح أن يشغل حصة واحدة فى مدرسة الحقائق التى تكشفها الحياة لأبناء الفناء

ولا شك عندى فى استمداد تاجور من أصول الفلسفة الهندية القديمة ولكنه مهما كان مبلغ استفادته من تلك الفلسفة التى استمد منها العالم أجمع فقد برع فى التفسير والاقناع براعة تقرب من الابتداع، وعندى أن المستشرقين الذين قضوا أجيالا فى نبش دفائن العقائد الهندية واذاعة كتبهم المقدسة لم يظهروا من روح الهند القديمة لمحة مما استطاع تاجور

---

(١) كتبت هذه الرسائل الخمس من اسوان الى صديق أديب بالقاهرة ردا على أسئلة أوآراء تفهم من قراءة الرسائل . وقد اثبتها هنا نقلا عن صحيفة الرجاء التى نشرتها لاول مرة

ظهاره فى هذا الكتاب الصغير
أول نوفمبر سنة ١٩٢١

الرسالة الثانية

. . . .

كتاب « سادهانا » الذى سبقت منى الاشارة اليه هو مجموعة محاضرات تتضمن آراء شتى فى الفلسفة الصوفية والدين كان يشرحها تاجور فى مدرسته التى أنشأها ببلدة بلبار من أقليم البنغال للمذاكرة فى الحكمة والادب وفقه الدين ، وموضوع الكتاب « تحقيق كنه الحياة » من حيث شعورها بوجدانها ، واحساسها بالخير والشر والجمال ، وظهورها فى العمل والحب ، واتصالها بالكون عامة واللانهاية من وراء ذلك ، وقد القي بعض هذه المحاضرات بجامعة هارفارد الامريكية أجابة لطلب الاستاذ جيمس وود ثم ضمها الى هذا الكتاب ووسمها بالاسم المتقدم فكانت بمثابة تفسير لعقيدة تاجور وفلسفته ، وهى بعينها عقيدة البراهمة القديمة ، لان الرجل نشأ فى بيت اشتهر كباره بالتقوى والورع وادمان التلاوة فى الكتب المقدسة . ولكن تاجور استخدم ملكته الكتابية وموهبته الشعرية فى التوضيح والتقريب بضرب الامثال وحل الرموز واستخبار الالفاظ عن معانيها العويصة التى لا تضبطها اللغات الا بما يشبه الاشارة والتلميح لقلة من يفضى الى اسرارها ،فكان هذا العمل من الشاعر مأثرة على سمعه قومه بل على قرائه جميعا ، وان كنت أشك كثيرا فى قدرة سواد الغربيين على فهم وجهة النظر الهندية ، لان القوم مغرورون بمدنيتهم غرورا لا يفيقون من سكرته التى تطمس البصيرة وتكل الالهام الا بعد

أن تزول عنهم قوتها وصولتها

وقد حدثتنى عن تلك الفئة التى تنمت نفسها بالتحرر من قيود الادب القديم وما تقيدت قط بادب قديم ولا حديث فيكون لها فضل الافلات من الاسر . وعندى أن هؤلاء الذين يتهجمون على أساطين الآداب الشرقية ولا يدينون بالشاعرية لغير الغربيين لا يدلون على حرية فكرية أو جرأة أدبية ، انما يدلون على خلو واقفار وخداج فى العقل ، مثلهم فى ذلك مثل السوائم والاوابد فى حريتها فانها لاتتمعل ما تريد علوا عن ربقة الاوهام ونبوا عن أحكام التقاليد بل لخلوها من قابلية التقيد حتى بالاوهام الباطلة والتقاليد المهجورة ، وعجزها عن فهم الصحيح وغير الصحيح على السواء ، وقد يكون لهم بعض العذر اذا قرأوا وتفهموا وقارنوا ثم أخطأوا اسباب المقارنة واختل معهم ميزان الحكم ؛ فاماوهم ينقدون مالايحسنون له مزية ويرفضون مالا يعرفون له وزنا فهم مسيئون الى انفسهم والى الناس ، بيد أنى لا أظن اساءتهم ذات خطر لانهم لا يقنعون احدا بصدق هرائهم الا كان مثلهم فى الغباء وخثمة الاحلام ، والذى اراه أن ذلك الشيخ الذى كان يحدثك عن كتاب الديوان ومن حذا حذوه فى الرأى والاطلاع هم أحق بالخوض فى أحاديث الادب وابداء الاراء فى الشعر والكتابة من أولئك السائمين الهائمين على وجوههم فى تيه الخيلاء الفارغة والدعوى الكاذبة ، وبودى لو استطعت ازالة اللبس عن عقول أولئك الذين يحسبوننا فى عداد الغامطين لكل شعر غير شعر الغربيين ، فانهم يخطئون فهمنا خطأ كبيرا ، فلعل الايام تسمح لى بالافاضة فى هذا البحث واظهار معيار الجودة فى اعتقادنا اظهارا يعينهم على معرفة رأينا فى كل قصيدة قبل سؤالنا عنها وينفى عن أفكارهم شبهة التحيز التى لا يعلمون حقيقتها

. . . .

١٥ نوفمبر سنة ١٩٢١

الرسالة الثالثة

أخى الفاضل . . . .

. . . .

لم أشك فى انك كنت تعنى مقالة (الخصائص) لكارليل عند ما أخذت فى قراءة وصفك لأثر مقالته التى كنت تقرؤهاوما استجاشتهمن خواطرك وشجونك ، وأفعمت به نفسك من المعانى والتصورات ، فانى لا أعرف للرجل مقالة تستحوذ على لب قارئها استحواذ هذه المقالة الجزلة الممتعة — ولا غرابة ، فهى بلا ريب مفتاح فلسفته ومقياس جميع تقديراته للحوادث والرجال ، ولا يكمل درس كارليل بغير دراستها واستقصاء أسبابها من تطورات فكره ووقائع عصره . وان كان لهذه المقالة عيب فهو أنه جعل فيها الحد بين القوة والضعف فاصلاحاسماالا يعتوره وهن ولا يأذن بثلمة أو منفذ . فالذى يقرؤها يتوهم أن هناك عصورا قوية لا يتخللهاضعف واشخاصاجبابرة لا يلم بهم فتور أوشك، والحقيقة خلاف ذلك فان أقوى العصور عرضة لنوبات الحيرة والخوف . وأقدر الرجال قمين أن يتسرب اليه الخور فى بعض هجسات نفسهوأوهام خياله ، ومن المستحيل استحالة مطلقة أن يسود الايمان الملهم عصرا كاملا أو رجلا قويا فى جميع أدوار حياته وأطوار تفكيره ؛ لان الالهام لا يوحى التفصيل المسهب وانما يوحى خاطرا مجملا او عقيدة

غامضة ، وللفكر ان يعمل فيها تحليلاته واقيسته ويجيل فيها شكوكه ايضا ، ولهذا لن تجد كاتبا او شاعرا او فيلسوفا على مستوى واحد فى فيض ذلك الوحى واغداقه ، ولهذا كانت مقالة كارليل نفسها مزيجا من الالهام والتفكير العميق والاستنتاج المختلف صوابا وخطأ وحكمة وشططا . وانتم مصيبون فيما لحظتموه من كثرة التفكير فيها على غمطة لقيمة والتفكير فى كثير من عباراتها ـ وهو معذور فى ذلك ـ الم تعرض للانبياء والقديسين وساوس وشكوك تقبض الصدور وتشغل الافكار ؟ ؟ وليست هذه الوساوس والشكوك التى كانوا يسمونها اغواء وخداعا من الابالسة والشياطين الا فترات الضعف فى الايمان واحتجاب الالهام ، والا ذلك التردد الذى كان يشكوه كارليل ويقول من شدة بغضه له انه وقف على العصور الخابية والنفوس الخافتة ، ويسميه احيانا لجاجة واحيانا جدلا واحيانا سفسطة ، حتى ليكاد يخلط بينه وبين المنطق الصحيح القويم . ولكن كارليل قليل التدقيق فى توجيهات الفاظه بحيث يظلمه من يحكم على منطقه بكلماته الظاهرة ، ولا بد من تجريد النفس من أسر المفردات والخوض معه فى عباب المعانى حتى يعطيه القارىء حقه من الاكبار والانصاف

قلت فى آخر خطاب لك أنك أحببت أن تسألنى عن قولى : اقصد الغربيين « أن القوم مغرورون بمدنيتهم الخ » فالذى اقصده بهذه العبارة هو أنى لا أقيس مدنية الغرب بعدد مخترعاتها الحديثة ولكن بالملكات والمواهب التى انتجتها . فهل بين هذه الملكات ما هو أعظم وأجل وأرفع من الملكات التى أبدعت صناعات المدنيات الغابرة وعلومها وفنونها ؟ ؟ ان كان ثمت فرق فهو يسير جدا . نعم يسير جدا بالنسبة الى غطرسة المدنية الغربية ودعاواها ؛ وانا أعتقد اعتقادا جازما أن القمة الروحية

التى ارتقى اليها نساك الشرق وفـلاسفته لم يبلغها غربى ممن نعرفهم ونقرأ كتاباتهم ، وان هذا التقصير عيب كمين فيهـم ، ويكفى أن أوروبا لم تنبت نبيا وانها عالة على الشرق فيما تدين به . أن من يقرأ فلسفة البراهمة ليشعر بصغر اكبر أبطال الغرب الروحيين بجانب أولئك المردة الاشداء ، انى لاحسب أن كل مهمة المدنيـة الغربية هى أن تستحث حياتنا المادية أو الحيوانية على اللحاق بتلك الغاية البعيـدة التى أوغلت اليها روحانية الشرق ، اما أن تسبقها او تبتـكرها فلا — وكأنما الغرب اليوم خادم قوى يبدأ بان يقطع الطريق نفسها : الطريق التى سبق السيد (١) فاجتازها ولـكنه لم يجلب معه مؤنة رحلته واسباب وقايته ، فاذا ما التقى الركبان يوما تبين السابق من المسبوق وعرفت لـكل قيمة مزيته

حبذا لو تـكرمتم فاطلعتموني من انباء العاصمة الادبيـة والسياسية على ما يفوتنى علمه بسبب مقامى فى اسوان وسلامى اليكم والى الاخوان جميعا .

الرسالة الرابعة

أخى الفاضل . . . .

. . . .

تسلمت روايتى بلزاك ومرديث وقد شوقتنى اليهما وسأبدأ بقراءة رواية مرديث قريبا ولـكن ربما مضت برهة قبل اتمامها لان الرواية طويلة ولست أمعن فى القراءة اليوم الا قليـلا ، وسألقاك قريبا فى كل موضع التفات من الرواية ، فان للروايات والـكتب معالم تعبرها الافكار فتلتقى

(١) أى الشرق

عند الاشتراك فى القراءة ، وهي بهذا المعرض تلتقى مواجهة لا بالذكرى التى لا يتلاقى بغيرها الجائزون بمعالم الطريق.

الخلاف فى أمر المدنية الغربية الحديثة يمكن حصره : فان كان القصد من تعظيمها انها بلغت بالصناعات والمعلومات حداً لم يتقدمها اليه متقدم معروف فذلك حق لا ريب فيه ولها الشكر الجزيل عليه . أما ان كان القصد ان هذا التقدم يستلزم حتما تفوقا فى الملكات وطاقة العقول ، فهنا يقع الخلاف الكثير — فقد يخترع الرجل اداة لطبع الف نسخة فى الساعة ثم يجيء غيره فيخترع آلة أخرى تطبع عشرة آلاف نسخة ولا يفهم من هذا ان له من الذكاء والفطنة عشرة أضعاف ما للاول لان اختراعه اسرع بهذه النسبة . وقد يبتعد السائر عشر مراحل عن نقطة فلا يؤخذ من هذا انه أقوى على السير ممن لم يبتعد عنها الا بتسع مراحل ، لان الاول ربما لم يسر الا مرحلة واحدة بدأها من حيث انتهى سابقه ، وخلاصة رأيى ان مدنية الغرب الحديثة ليست ببعيدة الغور فى نفس الانسان فان اليابان قد أصبحت لها فى مدى ثلاثين أو أربعين سنة مدنية مصنوعات ومعلومات كمدنية اوربا على العموم ، فهل يقال ان مدنية تنقل فى أقل من عمر رجل واحد تعد شوطا كبيرا فى تقدم النوع الانسانى ؟؟ وماذا فى صحة المعلومات فى ذاتها من الدلالة على عظم القوة المفكرة ؟ ان التلميذ الصغير اليوم لأصح علما فيما يلقنه من الدروس من أبى الطيب أو افلاطون ، ولكن أين عقل الصبى من عقل الشاعر الحكيم أو الفيلسوف المبتكر ؟ واذا نظرنا الى الرفاهة المادية نفسها فهل يسعنا الجزم بان مدنية أوربا الحديثة زادت سعادة الانسان أو خففت من شقائه ؟؟ قارن بين رجلين أحدهما ممثل لمدنية قديمة عالية والثانى ممثل لمدنية العصر

الحاضر — فلا يبعد بل الارجح انك تجد الاول أفخر ثيابا وأشهى طعاما وأجمل مسكناوأصح جسدا من رفيقه ، ولا تعرف لمدنيـة الآخر مزية حتى تسأل فى كم من الزمن صنعت ثيابه أو بنى بيته . هنا لك تظهر لنامزية السرعة ، ولـكن ماذا وراء ذلك ؟ سرعة المخترعات لاتستلزم تفوق القوى المخترعة وأما بعد ذلك فلا الصانع الحديث ولا المستفيد بصناعته أسعد حالا من زميليهما فى القدم . ازيد على ماتقدم أن الصانع القديم كان أصنع يدا وادق حاسة وأكثر مرانآ على استخدام أعضائه من الصانع الحديث الذى صيرته المخترعات آلة تدير آلة ، وانى لاعرف فى الريف نجارين ينظر أحدهم الى الخشبة فيقول انها زائدة فاذا قاسها لم يجدها تزيد بأكثر من نصف قيراط ، ولم ار نجارا واحداً تعود الاعتماد على القياس فى جميع أعماله يدرك ضعف هذا الفرق

أما كتب الديانة البرهميه فاشهرها على ما أذكر

Vedas , Ramayna, Mahabharata

وهنالك كتب اخرى لااضبط اسماءها لـكثرة حروفها وحركاتها . وليست للـكتب المذكورة طلاوة كتاب كسادهانا ولا امتاعه الشعرى والادبى لانها لم تكن الا مجموعة شـعائر وقصص ، وأمثال ومحاورات ، هى الديانة البرهمية كما شاء كهان الهند أن يبرزوها للانظار لا كما هى فى لبابها المجرد ، لـكن لايؤخذ من هذا انها خالية مما يدل على سمو الروح وعلوها فى سبحات الفلسفة الدينية وتعطشها الى ادراك اعلى الـكمال المقدور لها فى دنياها . خذ مثلا عقيدة تناسخ الارواح ثم اتصالها بعد التطهير بالروح الـكلى الاعلى ، فأى فرض أو أى استدراك مما يرد على الباحث فى مصير الروح الانسانية لم يلحظ فى هذه العقيدة المضحكة لمن لم يجشم نفسه هذه المباحث ،

ففي هذه العقيدة ملحوظ ضعف القول بقسمة الحياة الى دورين في احدهما النعيم السرمد أو الشقاء السرمد وفي الآخر التجربة والتحضير ، مع العلم بان هذه التجربة لا تتساوى فيها الفرص ولا الحظوظ ولا النتائج: وملحوظ فيها الرد على الذين يقولون (اوليفرلودج يقول بهذا الآن) ان الروح الحرة ارسلت الى العالم لتتقوى بمصادمة قيود المادة ، اذ يرد عليهم بان الطفل قد يعمر وقد يموت صغيرا فماذا يكون نصيب المعاجل في حياته من ذلك التقوى المقصود من الازل ؟ ؟ وملحوظ فيها عدم اطمئنان الفكر الى بقاء الروح منفصلة عن الروح الكلى في العالم الاخير مع بعدها عن مرتبة الكمال وهى مفطورة على طلبه . وملحوظ فيها غرابة القول بالشقاء السرمد أو حصول الجزاء في عالم غير العالم الذى امتحن فيه الانسان بالذنوب أو تطهر فيه من العيوب ، وملحوظ فيها ما فى القول بالقضاء والقدر من التناقض الكثير الذى لا يخلص العقل من شبكته مهما اجهد نفسه ومهما بلغ من ميله الى التسليم . وملحوظ فيها وحدة الحياة من أسفل مظاهرها الى ارفع كمالاتها المطلقة . وقصارى القول أن هذه العقيدة قد لحظ فيها كل باب موصد ينتهى اليه الباحث في أمر الروح ثم يرجع عنه طائعا أو مكرها

قارن هذا بقنوع العالم الغربي بعقيدة الخلاص على كونها مقتبسة بقضها وقضيضها من البرهمية ، واذكر ان البرهمية كملت قبل ثلاثة آلاف سنة وان الانسان بطيء في تغيره من عقيدة الى عقيدة ومن فرض الى فرض ، وانظر بعد المسافة الهائل الذى يفصل هذين العالمين من هذه الوجهة . أما الفلسفة اليونانية فاعظم فلاسفتها الالاهيين افلاطون . فاما خلود الروح فقد نقل القول به من الشرق وأما فكرة الـ Ideas التى أخاله انفرد بها

بين فلاسفة قومه فهى لعبة أطفال بجانب ذلك المحيط الزاخر العميق . ومن هنا أعذر شوبنهور فى تقديس البرهمية حتى لقبوه البرهمى الحديث . وان كنت لا احسبه فهمها على الوجه الذى افهمنيه منها كتاب سادهانا ، فانى لم اقدر حقيقة المقصود بال Nirvana الهندية الا بعد قراءة هذا الكتاب

يطول الكلام فى هذا المضطرب وارى اننا متى التقينا امكننا التقارب فى النظر والحكم فان مايقال فى جلسة واحدة لا يفى بشرحه عشرات الرسائل . وسلامى اليك والى الاخوان جميعا ١٦ — ١ — ١٩٢٢

الرسالة الخامسة

أخى الفاضل

لم اتمكن بعد من البدء فى قراءة رواية مرديث لاننا فى اسوان وفى هذا الموسم الذى لا ربيع للمدينة سواه نؤثر الجولان فى الخلاء على الجولان فى ميادين الافكار والتفرج بالنظر الى وجوه الغربيات الحسان على التفرج بالنظر الى رؤس الغربيين المتفلسفين . ولا أكذبك أن للمدنية الغربية لدينا الآن شفيعات كثيرات فاذا رايتنى اجور عليها فقد يكون الجور مبالغة فى الحذر وخوفا من المحاباة . . .

انى ابسط لك ما انكره على المدنية الغربية وماأعترف به لها وماأجدنى غير مستطيع الاعتراف به توضيحا للجوانب المختلفة من رأيى فى هذه المدنية . فأما الذى انكره عليها فان تكون قد انشأت من عندها تقدما روحانيا يضاهى تقدم الشرق أو يلحق به . واما الذى اعترف به فهوانها ابدعت فى الصناعة والعلوم مبدعات لم تسبق اليها ، وربما كان من نتائج هذه المبدعات التقريب بين قوى الانسان المادية وقواه الروحية بعد دورة

تحس فيها القوة المادية غاية جهدها فتقصر عند حدها . واما الذى لااستطيع الاعتراف به فالقول بأن للغربيين طاقة فكرية لا تلحق بها طاقة الشرقيين ارتكاناً الى مايشاهد من مخترعات وعلوم فى مدنية اوروبا الحديثة ، لانى اعتقد ان الطاقة البدنية لاتقاس بنفاسة الحمل بل بوزنه فالرجل الذى يحمل قنطاراً من الحديد كالرجل الذى يحمل قنطارا من الذهب على بعد الفارق بين الحملين فى القيمة ، وكذلك الطاقة الفكرية لاتقاس بفائدة الشيء المخترع ولكن بالمجهود الذى استدعاه اظهاره فى ظروفه المحيطة به . واني حين قلت لك ان اليابان اقتبست مدنية اوروبا فى ثلاثين او اربعين سنة لم اقصد الا ان هذه المدنية لا يدل ظهورها على خطوة واسعة فى طاقة الفكر تخطوها الفطرة الانسانية قبلَ ان تصطبغ بصبغتها . وقد قلت ان هذه السرعة من مفاخر مدنية العصر الحاضر لانها تختصر الوقت وتعجل قضاء المطالب فهل المقصود ان مدنية القوم اخترعت لليابانيين عقولا غير عقولهم فبفضل هذه العقول الجديدة اختصروا الوقت فاكتسبوا فى جيل واحد مالم يكونوا كاسبيه لولا ذلك فى عشرات الاجيال ، وانهم اسرعوا فى التفكير قياسا على الفرق بين كتابة اليد الواحدة وكتابة المطبعة الحديثة اوعلى الفرق بين نسج النول القديم ونسج المعمل البخارى ؟؟ انك لاتعنى ذلك طبعا . ومادام العقل لم يتغير فتغير المصنوعات له قيمة محدودة لايعدوها . وأحول نظرك الى ان انفراد الامم الهندوجرمانية ـ التى لاشك فى شرقيتها ـ بالنبوغ الخاص فى عالم الفلسفة والشعر بل فى عالم الصناعات أيضا لهو اكبر معين على اعطاء المواهب الشرقية حقها من تراث الانسانية الخالد وانصاف الغرب والشرق معا ـ حدثنى شاب أديب مجتهد يقيم الآن فى اسوان ويعنى بالمباحث الكهربائية والتلغرافية منها على

الخصوص ، قال ان رجلا هنديا اسمه (رامساراجام بلتورا) ادخل على التلغراف اللاسلكى تحسينا مهما مأخوذا به الآن فى جميع البلاد المتمدينة فلما شرع فى تسجيله بالهند غالطوه وتلكؤا فى اجابة طلبه واضطهدوه. حتى يئس فالتجأ الى اليابان ومنها الى الولايات المتحدة وهناك سجل اختراعه، وقال أن مصريا اسمه . . . . عدل جهاز الاشارات فى السكة الحديدية تمكن من تحويل كلتادائرتى التلغراف الى الاخرى بأسهل وسيلة فأهملوه وثبطوه وهو الآن فى الخمسين من عمره لم يتجاوز مرتبه أربعة عشر جنيها ، فاذا كان فتح المعامل فى الشرق وهي مكان التجربة والاختبار ممنوعا أو معرقلا وكان هذا نوع المكافأة التى يلقاها المجتهد خارج المعامل فنحن الشرقيين أولى من غيرنا بالتريث الطويل قبل اتخاذ الركود الصناعى فى بلادنا عرضا من أعراض النقص الملازم والقصور الدائم . وقد تكون رواية الشاب محدثى صحيحة برمتها وقد يكون بعضها غير صحيح ولكنى على كلتا الحالتين لاأرى لماذا نحكم على رجل بعيد عن الماء بأنه لن يحسن السباحة؛ولماذا نصدق القائلين بذلك ممن لايدلون ببرهان معقول ولا يسلمون من شبهة الغرض ، وأى حجة كانت عند سكان انجلترا قبل الميلاد على من يصمهم بالعجز الاصيل عن تمريد الصروح ودرس الفلسفة ؟ ؟ لاحجة البتة، فما قيمة حجتهم علينا ونحن سبقناهم بتاريخ يدحض هذه الحجج وليس فينا من آفة قط لايمكن ردها الى سبب عارض قريب ؟ ؟ وقد سألتنى هل المدنية الا مصنوعات ومعلومات فجوابى أن المدنية بمعناها الحرفى هى أقل من ذلك ولكن معناها العام يشمل كل مايوضع مع الانسان فى الميزان اذا أريد تقديره فهى بهذه المثابة أقرب الى معنى الـ (Culture) فى العرف الحديث

ـ عقيدة الانتهاء بالنيرفانا بوذية ولكنها برهمية أيضا لان البوذيين ينسبون الى « بوذا » الرسول البرهمى فى كل شىء الا فى تقاليد الطبقات ولا يخفى أن بوذا يعبد « برها » فليست نحلته الانحلة برهمية

ـ انى معك فى ضرورة الاهتمام بتعهد الحركة الادبية المصرية وقد قلبت مشروع انشاء مجلة على جميع الوجوه فان كانت لديكم فكرة عن مشروع آخر يخلو من بعض صعوبات المجلة المعلومة فأرجو أن تشرحوه لى ، لانى لاأرى انشاء المجلة من السهولة بحيث يقدم على كل فكرة سواه. ولا اكتمك انى ارتاب فى علة رواج كتاب الديوان فأرى أن حب الادب وحده لم يكن بأقوى البواعث على لفت الانظار اليه ، فهل تراه كان يحدث هذه الزوبعة التى أحدثها لوخلا من حملة معروفة الهدف شديدة الرماية ؟ ؟ واذا كان ذوق الجمهور لا يستفز بغير هذه الوسيلة فهل تفيده المجاراة فيه . وان افادته فهل يحتمل كاتب أن يقصر قلمه على هذا الباب من الكتابة ؟ ؟ ولست اعدد هذه الصعوبات لميل الى ترك المشروع بل لشدة ميل الى حياطته ووقايته .

سلامى اليكم والى جميع الاخوان واظن انه لم يبق بيننا الا شهر فبراير القادم، اذا اعتدل الجو، ثم تجمعنا القاهرة ومجالسها المستطابة وانديتها الجميلة

٣١ ينايرسنة ١٩٢٢

نهضة المرأة المصرية (١)

قبل عامين أو نحو ذلك ، كنا نعمل فى مكتبنا الصحفى كالعادة اذ طرق مسامعنا من وراء زجاج النافذة هتاف رخيم ولكنه عال ، ضعيف ولكنه سريع متدارك لايني ولا يهدأ . فعرفت انه هتاف الاوانس الصغيرات . لا ننى عهدتهن فى مواكبهن من قبل لايتمهلن فى دعائهن ولا يرحمن حناجرهن وأصواتهن ـ يردن أن يحيا الوطن ، ويحيا الوطن ، ويحيا موات الدنيا قاطبة ـ فى نفس واحد وفى لمحة واحدة . . . ولا أظلم الجنس اللطيف اذا قلت انه اذا طلب لم يصبر على التريث فى الاجابة ، حتى فى الطلب من الاقدار ! !

ألقينا الاقلام وأطللنا ننظر هذا الموكب الجميل ، وما هو بالموكب الذى تمر به لحظة وتطوى هتافه نسمة هواء ، ولاهو بالموكب الذى يمضى عليه سمع الدهر فما ظنك بسمع الانسان ، ولاهو بالموكب الذى تمهده ساعة وتطمس آثاره ساعة . انه موكب أنصتت مصر مئات السنين لتسمع أولى بشائره فلما سمعتها سمعتها الدنيا كلها معها وتلفت الزمن ونودى فى عالم التاريخ بميلاد عصر جديد . انه موكب لايعلم الا الله كم جيل دأب على تنظيمه فى ظلام الماضى ، ولا يعلم الا الله كم جيل سوف يشب وثبة النصر والسعادة على توقيع هتافه فى اضواء المستقبل ؛ وان الذين سيمرحون فى سعادة مصر بعد عشرات الاعوام ومئاتها قلما يعلمون اننا رمقنا مجدهم كله يتتابع أمامنا فوجا بعد فوج فى هذه الطليعة

---

(١) نشرت فى العدد الثاني عشر من الرجاء

أطللنا فرأينا مالا ينقله الى السمع ذلك اللجاج المحبوب وتلك اللهفة الطاهرة ، رأينا وجوها تشرق من الحماسة بما لا يقوى على نقله النداء والدعاء ، رأينا مركبة الاوانس الغاضبات تتقاطر منها الدعوات لمصر كما يتقاطر التغريد من الدوحة الباسقة فى نور الصباح الباكر ، وان الشبه لقريب ، فما كنا نرى اذ رأينا الاعصافير الحرية قد انتبهت تحيى فجر مستقبل مموموق

قال أديب كان معنا : لن تضام أمة هؤلاء بناتها ، والحق اقول اننى اردت أن لا نتعجل الفوز فنفقده . فقلت لصاحبى : أوليس الاولى أن يقال «هؤلاء أمهاتها» ؟ ؟

وأتت بعدذلك أيام مفعمة بالحوادث المنسيات ،والخطوب المذهلات، فنسيت كثيرا وذهلت عن كثير . ولكننى لم أنس تلك اللحظة ولم أر من شبيهاتها الا ما يذكرني بها ، ففى هاتين السنتين توالت دلائل نهضة المرأة المصرية وشجعت بوادرها أشد الناس حذرا من تصديق الامل واكثرهم توجسا من ظواهر الامور ، وأصبحت أجد من نفسى طربا صادقا لأعلى تهليلات الرجاء بعد ان كنت أتردد فى الاصغاء الى أضعف همساته ، ولم أر داعيا لانتظار اليوم الذى يكون فيه أوانسنا الصغار أمهات لجيل جديد فأنهن منذ اليوم خليقات أن يؤتمن على مجد مصر ، وانهن منذ اليوم ينشئن لمصر مستقبلها العظيم ولا ريب أن من أبصر الغاية فقد أخذ فى ادراكها ، ومن عرف الصعوبة فقد شرع فى تذليلها

***

أين هو الرجل الذى يفهم الحرية وهو يسكن الى شريكه فى الحياة مستعبدة ؟ وأين هو الرحل الذى ينعم بثمرة الحرية وهو وليد أم مقيدة؟

وأين هو الرجل الذى تحيا نفسه وقد مات فيها الجانب الذى خلقت المرأة لتحييه ؟ انه العنقاء التى يتحدثون عنها فى أساطير الاولين

ولم يودع الله فى نفس الانسان بعد حب ذاته غريزة هى أقوى من الحب ولاأشد منها تغلغلا فى اطواء نفسه وابتعاثا لكوامن استعداده وخفايا مواهبه ولا اغلب منها سلطاناً على مجامع هواه وبواطن خوالجه وقواه. فالرجل الذى تستولى على قلبه هذه الغريزة النبيلة يريك من العجائب مالا تراه من غير أولئك الجبابرة الذين تستولى عليهم الآلهة، أو المسحورين الذين يستخرج منهم الاستهواء (١) قوى لاعلم لهم ولا للناس بها، وهل الحب الاضرب من التنويم المغناطيسى ؟؟ هل هو الا تنويم تتغلب به ارادة نوع على ارادة فرد ؟ فبهذا التنويم العجيب ينقل النوع الى الفرد ارادته وزكانته وجملة احساسه ، وبهذا التنويم يتسلط عليه تسلط الاحياء على المادة الصماء ، فترى العاشق فى قبضته أكبر من فرد بشجاعته واصراره وشفوف نفسه وتوقد جنانه ، وأقل من حجر بطاعته وانقياده لما يراد به وعماه عن أوضح الشبه وأظهر الظنون — يمده النوع بوحيه فيحس من القوة والجمال فى نفسه مالايكون لفرد أن يحسه ، ويجعله فى تيقظ الحس كالنائم المستهوى الذى يبصر بأعصاب بشرته مالا يبصره المفيقون الابالعيون . ثم هو يدفعه الى بغيته كما يدفع النائم المستسلم . يأمره فيطيع ويزين له المحال فيصدقه ويريه الحلو مرا والمر حلوا فلايشك فيما يخيله اليه، بل يقول له الق نفسك فى الهلاك فيلقى بها لامحجما ولاوجلا ،وعنده انه يعمل على لذة قلبه وراحة خاطره

---

(١) التنويم المغناطيسي

كذلك خلقت غريزة الحب النوعي . فهي تستحث فى نفس أسيرها كل مافيها من استعداد وكل ماتتسع له من شعور ، بحيث لايخطىء من يقول ان العاشق يولد مرة أخرى وان من لم يعشق فقد حرم هذا الميلاد ومات بعض الموت وهو فى قيد الحياة

هذه هى القوة الغلابة التى يلغيْها من ميدان العمل جهل المرأة،وهذا هو الينبوع الزاخر الذى خلقت المرأة لتفجره فى قلب الرجل ، والذى يجففه فى قلبه حرمانه من شريكة مهذبة عارفة بكرامتها وكرامتــه تبادله العطف وتشاطره الحب وتعطيه مثل الذى تأخذ منه من احساس وشغف ونورانية ، فاذا انـكرت على المجتمع ضلالا فى الاذواق وفتورا فى العزائم ونـكوصا عن التسابق الي الامثلة العليا والمراتب الفاضلة وكسادا فى العقول وجمودا فى الشعور وصبرا على الهوان وخللا فى العرف والآداب،فلا تعجب ولا تذهب بعيدا فى البحث عن السبب ، اذ اى نقص لايحــدثه فى الامة خلوها من تلك العوامل البعيــدة الغور وأى قحط لا يسلطه على النفس فراغها من نتاج تلك الغريزة المخصبة ؟ ؟

***

لن تضام أمة عرف نساؤها الحرية . اجل فهذه قولة حق لاشك فيها، ولـكن كم من الشك فى قول من يزعم أن عرفان الرجال بالحرية هو حسب الامة ضمانا لها من الضيم ؟ ؟ فان حرية لايعرفها غير الرجال احرى انـ تـكون حرية شوهاء ، لانها كالتربة الشحيحة التى لا يسرى غذاؤها الى كل فرع من فروع أشجارها . فلا نباتها كله بمروى ولا المروى منـه بسابغ فيه الرواء على جميع اجزائه . والمرأة فى أمثال هذه الامم فرع يابس لاخير فيه ،وقد يكون الرجل اندى منها حالا ،ولـكنها حال لا تنفعه

الا كما ينتفع بالفرع تتمشى فيه الخضرة واليبوسة فلا هو للاثمار ولا هو للوقود ، وليس هذا شأن الامم التى يظفر نساؤها بقسطهن من الحرية فانها امم تستقى الحياة من ابعد اطرافها وترسلها الى أبعد أطرافها . فهى شجرة يانعة لاحطبة لينة

وعلى اننا كثيرا ماعرفنا رجالا خطبّوا الحرية ثم خانوها ونذروا لها أعمالهم ثم كفروا بها ولم يؤدوا حقوقها . وربما استحبوا النفاق لضمائرهم أو اضطروا اليه اضطرارا يخجلون منه ويتلمسون له المعاذير من مضائق العيش ومتناقضات الايام . أما المرأة فما الذى يمنعها أن تؤدى ماعليها للحرية من حقوق ؟؟ لايمنعها منها الامن يمنع اللبن أن يسيل من ثديها سائغا الى ثغر رضيعها ، والامن يمنع المهد أن يهتز على أشجى ترانيم الوطنيـة والفضيلة ، والا من يمنعها فى كسر بيتها أن تربي صغارها التربية التى تختارها وان تناغيهم باللغة التى تحبها . وليس على الارض قوة تمنعها من شيء من هذا اذا ارادته . وان امرأة تريد هذا ولا يمنعها مانع منه لهي معقل للحرية لاتزعزعه الطوارىء ولا يخشى عليه من « مضائق العيش ومتناقضات الأيام »

ومن البديهى ان للمرأة خصائص لا يشاركها فيها الرجل جعلتها أصلح منه لاداء كثير من الواجبات المدنية فضلا عن واجباتها الطبيعية : فهى على الجملة ألطف منـه شعورا وأدق حسا وأصدق زكانة فى العلاقات الجنسية وأحرص على تقاليد الدين وأحكام العرف واشد احتفاظا بما يصون هناءة البيت ، وغير ذلك من الخصائص التى تنفرد بها أو ترجح على الرجال فيها . وسنرى اليوم الذى تظهر فيه آثار هذه الخصائص البارزة فى المجتمع المصري ويتبارى فيه كل من الجنسين فى تنويل مصر انفس ما يملك من

مزايا جسمه وعقله وروحه . وهى فى حاجة الى جهد أصغر صغير من ابنائها وبناتها . وربما سبقتنا بعض الامم الى تقسيم الفروض الاجتماعية بين الرجل والمرأة على قدر معلوم وبقانون مرسوم ، وربما سمعنا فى هذا الباب من الغرائب مالا يخطر الآن على البال . ففى السويد مثلا كاتبة كبيرة تدعى « الن كى » تقترح ان يفرض التجنيد على الفتيات كما يفرض على الفتيان فتقضى كل فتاة تبلغ الثامنة عشر من عمرها مدة سنتين فى الخدمة العمومية . وفيم تقضي هذه المدة ؟ ؟ لا فى حمل السلاح طبعا ولا فى التدرب على اطلاق المدافع وحفر الخنادق ولا فى شن الغارات وتدويخ المستعمرات . وانما تقضيها فى التدرب على وظائف الامومة بين مدارس الاطفال وملاجئ المرضى ومستشفيات الولادة ومعاهد الفنون الجميلة وما هو من هذا القبيل .

ولا يبعد ان ينفذ هذا الاقتراح واغرب منه فى امم الشمال ولكننا هنا لا ننتظر حتى يعلم نساؤنا واجباتهن من القوانين الموضوعة والاوامر المشروعة ، فان المرأة المصرية فى وسعها ان تتدرب على اشق اعباء الامومة وان تؤدى اشرف الفرائض القومية دون ان تضطر الى المبيت فى الثكنات والارتداء بالكسوة العسكرية ولو فى جيش مسالم ! !

وسيغضب على انصار القديم . لا لانى قلت شططا فى ابتهاجى بنهضة المرأة المصرية ، ولكن لامر صغير بسيط : وهو اننى قرنت بين كلمة الحرية وكلمة المرأة وهم يكرهون جد الكره ان تقترن هاتان الكلمتان فى وقت من الاوقات . لا فى العصر الحاضر ولا فى مستقبل قريب أو بعيد

ولو سألتهم هل تحبون الحرية لانفسكم ؟؟ لقالوا نعم نحبها . ولابنائكم نعم ولابنائنا ، ولامهات أبنائكم ؟؟ هنا يسكتون

فهم يتمنون لانفسهم العلم والحرية والجاه والسيادة والحول والطول ولا يجودون على نسائهم من هـذه الدنيا الفسيحة بغير الحلى والثياب . وحتى هذه ماكانوا ليجودوا بها عليهن لو لم يكن لهم فيها حظ كبير

يريدون أن يكونوا ملوكا مستبدين ولـكنهم يأبون لامهات ولاة عهودهم أن يكن ملـكات ،فسبحان الله ! ! هذا ليس من العدل،هذا مخالف على الاقل لاحكام القصص المرعية وأصول الخرافات المدونة ، فاننا نعلم أن الملوك في تلك القصص يهبطون من سماء عليائهـم ليحبوا الراعيات الفقيرات ويتزوجوا منهن ، ولـكننا نعلم كـذلك أن الطقوس المسطورة لا تنتهى هنا . ان الحب الملكى يرفع أولئك الراعيات الى مرتبة ملـكات فيجلسن على العروش ويلبسن التيجان ويتعلمن الامر والنهى كما يتعلمن السمع والطاعة،وهذه سنة الخرافات وهى عندكم لها المنزلة العليا فوق كل منزلة فاذا نظرنا اليوم راعياتنا بالامس يمددن أيديهن الى التاج فيلبسنه ويتقدمن الى العرش فيرتقينه ، فمن مظاهر الابهة ان لم نقل من قواعد الانصاف أن نحييهن ونصفق لهن ، لئـلا نـكون ملوكا بغير ملـكات ، أو لئـلا يكن ملـكات على رغم أنف الملوك

ولـكن ما لنا ولانصار القديم نسود بهم بياض الصحيفة ، لقد خرجت نهضة المرأة المصرية من ايديهم وانتقل لواؤها من صفوفهم ،فليتقدم فى ايدى رافعاته ورافعيه على بركة الله الى قبلته المنشودة . قبلة النجاح والرفعة ان شاء الله

سر تطور الامم

كتاب من الكتب القيمة وضعه عالم فرنسي جليل ، وعربه وزير مصري عامل . والكتاب على صغر حجمه وايجاز أبوابه من الاسفار التي قل أن يلج مثلها الى عقول المصريين من جانب اللغة العربية . وأيسر ما يقال فيه انه سيعود القراء اسلوب البحث الجديد فلا يركنون الى تلك المباحث التي مدارها على التلفيق ، والتي هي براء من المعنى براءتها من صدق النظر والتحقيق . وما أكثر الكتاب الذين كان ينظرون عندنا الى أعضل مسائل الاجتماع وأغلق أبواب المستقبل، فيشكلونها أشكالا كما يتخيل الواهم صور الجمال والثعابين والحيتان فى قطع السحاب المذعذعة فى السماء . وما هو الأأن تتم فى ذهن احدهم صورة ملفقة على هذا النمط حتى يبرزها للناس قضية مسلمة ، ويبنى عليها النتائج البعيدة والنظريات الخطيرة .

أفرد المؤلف اكثر فصول الكتاب لتجلية الفكرة التي يحوم حولها فى أكثر كتاباته . وهى أن لكل أمة روحا تسير أعمالها، وأن هذه الروح هى التي تكيف أطوار الامة وتشكل ملامحها الظاهرة ، واليها يعزى سبب كل حركة من حركاتها . وقد غالى فى وصف ما لهذه الروح من الاثر فى كافة أحوال الامة الى حد يوهم أنه ينكر ما للعوارض الطارئة من الاثر الثابت فى حياة كل أمة ، والحقيقة أن هذه العوارض ذات شأن كبير فى تاريخ الامم لا يحسن أغفاله ولا سيما من وجهة النظر السياسي ، لان السياسي كالربان الحاذق يجلس مجلسه من السفينة ليرقب ما يهب عليها من الاعاصير ؛ ويثب اليها من الامواج ، ولا يغنيه علمه بأدوات سفينته ونجاح البحر الذى تسلكه

عن الدربة على قيادتها بين تلك العوارض، والا فان ثورة واحدة منها خليقة أن تهوى بالسفينة الى القرار. وهل العوارض الطارئة الا الخيوط التي ينسج منها روح الامة ويتكون من مجموعها سلسلة اختباراتها وذكرياتها الماضية!! فهى لا تجهل فى الامة شخصاً غير شخصها ولكنها تغير بنية ذلك الشخص، ولا شك أن لروح الامة دخلا فى تاريخها ولكن بقدر ما للارادة فى تاريخ الفرد، وكثيرا ما تكون الارادة منفعلة بما يطرأ عليها ولا تكون هي الفعالة الا اذا جاءت الحوادث بما يوافقها . فالمؤلف مبالغ فى تقدير طول الزمن الذى يرسخ فيه المبدأ فيصير عقيدة موروثة وجزأ من أجزاء تلك الروح، وهى مبالغة غير محمودة لانها تقف المصلحين موقف الحذر الشديد عند كل حركة جديدة وتصغر من قيمة الفرص الوقتية فى حسابهم . لاسيما اذا علمنا كما يقول المؤلف أنه لا سبيل الى تشخيص روح الامة ومزاجها تشخيصاً يقطع الشك باليقين، فيعتمد عليه السياسى دون الاعتماد على الفرص العارضة الوقتية، وذلك واضح من غموض الفكرة فى كتابه ومن إلمامه بها إلماماً لا يضبط دقائقها . حتى ان القارئ ليخرج من الكتاب وهو لا يدرى حد الفارق بين روح الامة الانجليزية والامة الفرنسوية مع أن هذا المبحث يكاد يكون موضوع الكتاب الذى جاهد المؤلف غاية الجهد لتبيينه وتفصيله ، ولا ريب أن مثل هذه الفوارق التى لم يعتمد فيها المؤلف على الحس القريب لا يصح أن تكون أساساً للاحكام العريضة التى سجلها على أكبر مبادئ العصر بل على الدين الجديد فى عرفه ونعنى به الاشتراكية، فان كان الغرض من تقرير تلك الفكرة المبهمة الاشارة الى اختلاف الامم فى الامزجة فذلك مالا نزاع فيه أما ان كان يرمى به الى أبعد من ذلك فالحق يقال ان قدمى هذه الفكرة لا تحملانها الى أبعد من تلك

الغاية . اذ ليس في الكتاب ما يبين بياناً جازماً أن الحادث الذي يقع في هذه الامة لن يقع مثله فى أمة أخرى ، وليس فيه حجة دامغة تنفى القضايا التى قررها علم مقابلة التواريخ وأيد بها قول القائلين ان للامم أطواراً تمر بها كل أمة حية ، وأنه اذا اختلفت الازمان بعدا وقربا فذلك لاختلاف المناسبات والطوارئ ، ولشئ قليل من تباين الامزجة ، ولكن هذا التباين لا يمنع الامة أن تعتنق كل رأى فى حينها المقدور لها ، وان كانت ربما دعته بغير ما يدعى به في الامم الاخرى . تبعاً لاختلاف اللغات ، وتفاوت الاحوال والعادات

فليس فى مجلس انجلترا مثلا حزب اشتراكى كحزب فرنسا الاشتراكى ولكن فيه حزباً للعمال . وكلا الحزبين غايته واحدة ومطالبه متشابهة وهى انصاف طبقات العمال من أصحاب الاموال . والدكتور لوبون يقول مع ذلك ان الاشتراكية شاعت فى فرنسا لان مزاج أهلها يميل بهم الى الاعتماد على الحكومة ولم تشع فى انكلتره لان الانكليز أهل استقلال لا يعولون على غير أنفسهم — دع ذلك وانظر صوب المانيا فانك ملاق فيها شعباً اشتراكياً صريحاً وحزباً يمثل الاشتراكية فى مجلسها هو أقوى الاحزاب وأوسعها نفوذا . والالمانيون كما تعلم شعب سكسونى قريب مزاجه من مزاج الامة الانجليزية، فما باله فى هذه الحالة أشبه بفرنسا اللاتينية منه بانكلتره السكسونية ؟؟ وكأن الدكتور آنس ركة فى تعليله فى هذه النقطة فجعل الاشتراكية آفة أوربية عامة !! وعبر المحيط الاطلسى ليجد له فى الدنيا الجديدة برهاناً يدعم به رأيه . فقال : «واذا أردنا أن نعرف بكلمة واحدة ما بين أوربا والولايات المتحدة من التفاوت قلنا ان الاولى مثال ما يمكن أن تنتجه الامة التى قامت فيها الحكومة مقام الفرد . والثانيـة مثال ما

يمكن أن تنتجه همة الافراد الذين خاصوا من كل ضغط رسمي . وليس لهذه الفروق الكلية منشأ الا الاخلاق ومن المحقق أن الاشتراكية الاوربية لا تجد لها مكاناً تنزل به في البلاد الاميركية . لان الاشتراكية آخر دور من أدوار استبداد الحكومة فلا تعيش الا في الامم التي شاخت بعد أن خضعت قروناً طويلة الى نظام أفقدها الاهلية لحكم نفسها . . » اه

ولكننا نقول للدكتور ان الاشتراكية قد سبقته الى الولايات المتحدة أيضاً . وأنها ليست في بلد من البلدان أجهر صوتاً مما هي هناك .

فقد طاردت حكومة الولايات المتحدة منذ سنوات أكبر شركات الاحتكار لحلتها وألزمتها غرامة فادحة . وكان الجمهور الاميركي يهلل لها ويثني عليها . وربما ظهر ميل الجمهور الامريكي الى الاشتراكية بمظهر أقوى من هذا في برامج الاحزاب أيام الانتخابات ، وفي تسابقها جميعاً الى ارضاء طوائف العمال ومهاجمة كبار الماليين ، وفي تحبير الصحف الفصول الطوال في تقبيح مطامع الاغنياء والعطف على الفقراء ، فان كان الدكتور يعني بالاشتراكية بمظهر أقوى من هذا غير هذا فليهدأ بالا فليس في أمريكا ولا في أوربا ، لا بل ولا في الدنيا بأجمعها اشتراكية

***

أما فيما خلا وصف روح الامة وشرح ما لهذه الروح من التأثير في تكوينها ، فالكتاب بجملته حملة منكرة على المساواة والاشتراكية ، يخيل اليك أن الدكتور لوبون يكتب عن المساواة بقلم شارل الاول أو لويس السادس عشر . وأنه يكتب عن الاشتراكية بايعاز من روتشيلد أو روكفلر ، فتراه ينعي على مبدأ المساواة ولكنك لا تعلم منه كيف يكون عدم المساواة ، وتراه يتشاءم من الاشتراكية كما يتشاءم الناس من نعيب البوم . لا يعلمون

لذلك التشاؤم سبباً .

فمن أقواله عن المساواة : « غاب عن بعض الفلاسـفة تاريخ الانسان وتقلب ماهية قوته العاقلة وتغير قوانين تناسله الطبيعية فقاموا ينشرون في الناس فكرة المساواة بين الافراد وبين الشعوب »

«خلبت هذه الفكرة أذهان الجماعات فارتـكزت فى عقولهم ارتـكازاً قوياً وآتت أكلها بعد زمن يسير فزعزعت أسس الجمعيات الاولى وولدت أعظم الثورات ورمت أمم الغرب في اضطرابات شديدة لا يعلم مصيرها الا الله » ثم يقول « ألاان العلم تقدم وأثبت بالبرهان بطلان مذاهب المساواة وأن الهوة التى أوجدها الزمان فى عقول الافراد والشعوب لا تزول الا بتراكم المؤثرات جيلا بعد جيل » . ثم يقول بعد ما تقدم : « ما من عالم نفسى ولا من سائح ذى نظر ولا من سياسى مجرب الا وهو يعتقد الآن خطأ ذلك المذهب الخيالى أعنى مذهب المساواة الذى قلب الدنيا رأساً على عقب وأقام فى القارة الاوربيـة ثورة ارتج الكون منها وأذكى فى القارة الاميركية نار حرب الاجناس وصير جميع المستعمرات الفرنسوية في حالة محزنة من الانحطاط ومع ذلك فقل مايوجد بين أولئك المفكرين من يقوم فى وجهه بمعارضةما . . »

كل ذلك جرى من سريان مذهب المساواة !!! على أن دعاة المساواة لم يشطوا فى مذهبهم ولا قالوا ان الناس طبعوا على غرار واحـد فى العقل والفضل .وهل ترى أن دعوتهم الى تساوي الناس في الحقوق أمام القانون تعطل تنازع البقاء بينهم وتذهب بمزايا التفاوت بين قادرهم وعاجزهم ؟؟ أليست هي أحرى أن تفسح المجال لهذا التنازع وترفع العوائق التى يضعها في طريق المنافسة استئثار بعض الناس ببعض المنافع بلا موجب للاستئثار؟

يحق لاعداء المساواة أن ينكروا على دعاتها كل الانكار ، ويحق لهم أن يحتجوا عليهم بأن العلم تقدم وأثبت بالبرهان بطلان مذاهب المساواة ، يحق لهم ذلك اذا كان دعاة المساواة في شك من هذه الحقائق ، أو اذا كان قد قام منهم قائم يمنى العامل الجاهل بأن يتبوأ منصة الفيلسوف في الجامعة أو يسول له أن يطالب بوظيفة الطبيب أو المهندس . ولكننا نعلم أن داعياً كهذا لم يقم ولن يقوم لان مديرى البيمارستانات لا يفرطون في مثله اذا ظهر . وكل ما يمنى به الداعي الى المساواة ذلك العامل الفقير انه يكون متساوياً مع سائر الناس في الامن على حياته . وهل في ذلك من ضير ؟؟ ومتى كان مبدأ المساواة لا يمنع انساناً حق التمتع بثمرة تفوقه فى المعارف أو المواهب العقلية على سواه فأى ضير فيه ؟

يصم الدكتور هذا العصر بأنه عصر الجماعات وأنه يبيح الفرد الجاهل من الحقوق السياسية ما يبيحه المتعلم ، وأن صوت الدكتور الفيلسوف كصوت الزارع الغبى فى إنابة النواب وانتخاب الحكام... الى آخر ما يقول فى تنديده بروح الديمقراطية ، ولكنه ينسى أن التساوى فى أصوات الانتخاب ليس الا تساوياً صورياً وأن لكل انسان من الاصوات فى الواقع بقدر ماله من العقل والقدرة على اقناع سواه باختيار من هو أفضل من غيره للنيابة ، وكذلك يصبح أكبر الناس عقلا واستعدادا للاقناع أكبرهم قسطاً فى سياسة بلاده . فان كان بعض الموسرين يستعين بالمال على شراء الاصوات ويستخدم تلك الاصوات المتعددة فى غرض واحد . فذلك ما يشكو منه الاشترا كيون الذين ينقم عليهم الدكتور لوبون

وهبنا أبطلنا اليوم مذهب المساواة . فمن يا ترى يحكم بين الناس ويقدر لكل منهم ماهو أهل له من الحقوق السياسية والادبية ؟؟ أترانا نلجأ فى ذلك

الى الحكومة ؟ ذلك ما يأباه الدكتور لانه يريد أن يقصر عمل الحكومة على الضرورى الذى لا يسع الافراد القيام به. فأولى به وهذه ارادته أن لا يدعها تتدخل بين الناس حتى فى ترتيب أقدارهم وتمييز درجاتهم كانما هم كلهم موظفون فى دواوينها ــ فلم يبق اذن الا أن نترك الناس يدعى كل منهم من الحقوق مايقدر على تحصيله بذراعه ــ وبمثل هذا النظام نثوب الى الصواب ولا نكون قد تركنا أضغاث احلامنا بالمساواة العامة تغشى بصائرنا لاننا « اذا تركنا أضغاث احلامنا بالمساواة العامة تغشى بصائرنا كنا أول ضحاياها فما المساواة الا بين المنحطين وهي مطمح آمال صعاليك العقول يحلمون بها وهم بأحلامهم من التعساء » الخ الخ ــ اليس كذلك ؟؟

***

ذلك حديث صاحب الكتاب عن المساواة . أما الاشتراكية فهو كما يرى من الشذرات التى نقلناها عنه شديد الطيرة منها . وهو يمثلها تمثيلا مشوهاً . ويعمد الى شر مذاهبها فيعرضه على القارئ فى حالة مشنوعة ثم يعمم حكمه على مذاهب الاشتراكية بحذافيرها . فتارة يحكم بأنها ستؤدى بالامم الى أرذل درك الانحطاط حيث يقول : « نعم لا حاجة لان يكون الانسان ضليعاً من علم النفس ولا من علم الاقتصاد ليتنبأ بأن العمل بمقتضى مبادئ الاشتراكية يفضى بالامم الى أرذل درك الانحطاط وأخزى صور الاستبداد »

وتارة يعرضها لك كما تتصورها اذهان الجهلاء الواهمين . فيسبق الى ظنك أن هذه الاشتراكية صنف من الافيون استورده أئمة الاشتراكية من بكين . فهى كما يقول الدكتور « تمثل فى ذهن النظرى الفرنساوى صورة جنة تساوى الناس فيها فتمتعوا بالسعادة الكاملة فى ظل الحكومة

وتمثل للعامل الالمانى حانة طبق دخانها وطفق رجال الحكومة يقدمون لكل قادم أطباقا من لحم الخنزير والكرنب المملح ودنانا من الجعة الخ »

ولا يخلو كلام الدكتور من بعض الصواب ولكن أى مذهب من مذاهب الاجتماع أو دين من اديان الامم سلم مما تعرضت له الاشتراكية من التحريف والتشويه ؟؟ وأى فكرة كبيرة امكن أن تصل الى اذهان العامة على حقيقتها دون أن يمزجوها باحلامهم ويضيفوا اليها من تفسيراتهم وخطرات اوهامهم ماهى بريئة منه ؟؟ فمن الظلم أن تعد هذه الاحلام اكثر من ظل للاشتراكية يقترن بها ويحاكيها ولكنه شئ آخر منفصل عنها . وقد تكون هذه الاحلام لازمة لها كما تلزم الاحلام كل نحلة ورأى ولكنه يجب أن لا يخلط فى الحكم بينها وبين مبادئ الاشتراكية وقواعدها العملية . وهذه المبادئ والقواعد لاتدحض بالسفسطة ولا تنقض بالتعوذ والحوقلة ، لانها نشأت من حاجة ضرورية شعر بها الناس وتكلموا فيها قبل أن يعلنها الفلاسفة وأهل النظر . وكيف تدفع الحاجة الى الاشتراكية بالسفسطة والمغالطة أو بالمنطق والبينة وهى كما يقول الدكتور سر «لا يعرفه الا علماء النفس الواقفون على أسرار الحياة » و « لا تأتى الادلة التى تقنع به من طريق العقل » ؟؟

يقول بعض الكتاب كما يقول الدكتور ان الاشتراكية نذير الانحلال والضعف وانها لا تفشو فى الامم الا على وشك من ادبار مجدها واختلال نظامها ونفاد ما فيها من قوة حيوية . وبين القائلين بما يقرب من هذا الرأى رجل يقتبس آراءه فى الاجتماع من أطوار التاريخ المصرى وهو العلامة فلندرس بترى الباحث الاثرى المشهور . فهذا العلامة قد استخلص من ابحاثه فى تقلبات الدول المصرية ان الدول تنشأ فى مبدأ ظهورها على

يد فرد قوى مستبد ثم تحدر منه الى فئة من العلية والمقربين ثم تحدر الى الحكم الديمقراطي أو حكم الطبقات الوضيعة فيعتريها من هنا الضعف فالسقوط فى قبضة مستبد جديد . وهكذا دواليك . وقد طار أعداء الاشتراكية فرحاً بهذه الشهادة وراحوا يقذفونها فى وجوه الاشتراكيين معتدلين ومتطرفين وحملوهم وزر اسقاط الدول والجناية على الحضارة . كأنما هذا الترتيب الذى استنبطه بترى ـ على فرض صحته ـ قاطع فى الدلالة على أن الاشتراكية أو الديمقراطية هي علة السقوط الذى يعترى الدول وانها لا يجوز أن تكون عرضاً من أعراضه ونتيجة من نتائجه !! وكأنما يكفى لمداواة ذلك السقوط أن تمحى الاشتراكية ويمحق الاشتراكيون ولا يجوز أن يكون الدواء الناجع مرتبطا بدواء العلة الدفينة التى أطلعت الاشتراكية واطلعت أعراض السقوط معاً ... واذا كانت الاشتراكية على هذا التقدير عرضاً للعلة وليست هى العلة نفسها فماذا يجدينا أن نمحوها ونكم أفواه الداعين اليها وماذا فى محوها من الدواء للانحلال والتدهور الذى لا مفر منه ؟؟ ألا يكون ذلك كمعالجة الجدرى بنزع قشور طفحه من ظاهر البشرة وترك جرثومته تسرى فى الدم وترتع فى باطن الجسم ولا من يلتفت اليها فيعمل عمل الجد على استئصال شأفتها أو تخفيف ضررها ؟؟ فأن كان ثم دواء فليكن الدواء للعلة الاصلية والا فلا معنى للقدح فى الاشتراكية ولا فائدة من اضطهاد دعاتها

والحقيقة أن نظام مجتمعنا الحاضر مشتمل على نقائص ومثالب لا ينفرد بالسخط عليها وطلب تبديلها الاشتراكيون . ومن العلماء من لا يحسبون انفسهم من الاشتراكيين ولا يحسبهم الاشتراكيون منهم وهم مع هذا يشكون ظلم النظام الحاضر شكوى غلاة الاشتراكية ويرون رأيهم فى بعض

الحلول التى يقترحونها – ومن هؤلاء العلماء السير اوليفر لورج – رجل لا يتهم فى هواه ولا فى تفكيره من هذه الناحية ولا شبهة عليه من جانب الاشتراكية ولا من جانب أى حزب اجتماعى آخر ولكنه يقترح فى فصل كتبه عن وظائف المال أن تهتم الحكومة بشخصية الحائزين للمال كما تهتم بشخصية الحائزين للسلاح ، لان المال ربما كان اخطر فى يد الشرير من السلاح فى يد القاتل ، وفى رأيه ان الثروات العظيمة خطر على المجتمع وان هذه الثروات تكثر من جراء انظمة مصطنعة يمكن تبديلها وليست هي مما تقضى به طبيعة سير الامور ، وانه يجب أن يعاد النظر فى قانون التوريث وأن ينقح . ويقول فى فصل آخر عن « الاصلاحات الاجتماعية » بعد التساؤل عن علة مصاعبنا الحاضرة فى ملكية الارض : « ولا يسعنى الا القول بان عادة السماح للأفراد بحق الملك المطلق على الارض بدلا من المجاميع هى أساس كثير من هذه المصاعب » وليس السير اوليفر لورج بالوحيد بين العلماء المخلصين الذين يصفون أدوية الاشتراكية ولا يدخلون فى غمار أهلها

فالواجب على ولاة الأمر في كل أمة ان يعترفوا بنقائص المجتمع ولا تفتنهم عن اصلاحها عصبية الطبقات ، لان الكثير من هذه النقائص قابل للاصلاح والتخفيف لولا تعنت من بعض الطبقات القوية يجر الى تعنت الطبقات الأخرى وتفاقم النزاع بينها على غير جدوى . ومن حق جميع الطبقات أن تنال كل حظها من المعيشة الصحية وأن يسوى بينها فى فرص العمل التى تؤهلهم لها كفاءتهم الطبيعية ، ولا نذهب بالمساواة الى أبعد من هذا الحد فان كل مساواة لا ينظر فيها الى الفوارق الطبيعية بين أخلاق الناس ومداركهم ومواهبهم المختلفة لا تكون عدلا ورحمة بل ظلماً وإجحافا

معكوساً مناقضاً لسنن الطبيعة

ان الاشتراكية الصحيحة ليست اسطورة من الاساطير ولا هي وعد خيالي يبشر الناس بالتعادل في الاقدار والتشاكل في المنازل والارزاق . كلا ! فليست المساواة بين الناس من همها ولكنها انما تدعو الي المساواة بين الاجر والعمل وتطلب أن يعطى كل عامل ما يستحقه بعمله ، وأن ينتفع المجموع باكبر مايمكن الانتفاع به من قوى الأفراد

فان كانت الدنيا قد حم أجلها وكارب يومها لان جائعاً يريد أن يشبع ، ومنهوكا يتمنى أن يستريح ومظلوماً يود لو ينتصف ، فلقد ماهزلت هذه الدنيا وضعف مزاجها وتبدل حالها بعد أن احتملت في ماضي العصور طغيان الجبابرة وبطر النبلاء ، وبعد أن صبرت على دسائس الدعاة وأكاذيب الدجالين !!

ومن العجيب أن الدكتور لوبون لايستقبح من انظمتنا الحاضرة شيئا الا كان له دواء حسن أو علاج لابأس به في الاشتراكية ، فاذا تجاوز هذا الدواء الى غيره وقع في الحيرة والتضارب . مثال ذلك انه يصف الدواء لنهوض الامم المائلة الى السقوط فيحيلها الى النظام الجندي ويقول « فأهم الشروط التى تلزم لنهوض الامم المائلة الى السقوط تعميم نظام الجندية وجعله قاسياً جداً وأن تكون الامة على الدوام مهددة بحروب طاحنة »

ويعتقد الدكتور ان الجندية سوف ترجع للرجل المتحضر رجولته واستقلاله وتشفيه من مرض الاشتراكية التى هي « فناء الفرد في الدولة » والتى « تفضي بالأمة الى أخس درجات الاسترقاق وتقتل في نفوس من خضعوا لحكمها كل همة وكل استقلال » . ولكنا لا نخاله يجهل

ان الرجل أضيع ما يكون استقلالا في الجندية، وأن الجندى فى الجيش ليس الا آلة تحرك باشارة من القائد وليس لها ان تعرف الى أين هى مسخرة ولا فى أى غرض يسخرونها . فان كان في الجندية شئ من الخشونة فليست كل خشونة تعد رجولة واستقلالا ، ولا نخاله نسى أيضا ان المانيا هى أكثر الامم جنـدية وهى كذلك أكثر الامم اشتراكية . فكيف اجتمع فيها هذان النقيضان المتباعدان فى رأيه ؟ ؟

ويقول الدكتور فى الفصل الرابع من الباب الاول :« أشار توكفيل الى تدرج الفرق الذى نبحث فيـه بين طبقات الامم فى زمن لم تبلغ الصناعة فيه من الارتقاء مبلغها فى الوقت الحاضر فقال« كلما توسع الناس فى تطبيق قانون توزيع العمل ضعفت قوة العامل وحد عقله وزادت تابعيته لغيره . فالصناعة تتقدم والصانع يتأخر والفرق ينمو كل يوم بين العامل ورئيسه »

وهى ملاحظـة صادقة من توكفيل . اذ لا مراء فى أن النظام الاقتصادى الحاضر قد صير العامل قوة آلية وسلبه كل وسيلة لاستخدام ذكائه وحذقه . فبعد أن كان العامل يصنع الاداة وحـده فيفرغ ذكاءه فى تجويدها ويتفنن فى تكميلها وتحسينها . اذا هو الآن يتناول الجزء الصغير من تلك الاداة فيصنعه بلا روية . ويجئ المهنـدس أو رئيس الصناع فيؤلف من تلك الاجزاء تلك الاداة على الوجه الذى رسمه . فاذا خرج الصانع من المعمل لم ينتفع بصنعته وعجز عن العمل على انفراد ففقد مزية الاستقلال .

وهـذا النظام الاقتصادى المودى بالمواهب، المعطل للعقول ، هو النظام الذى تثور عليه الاشتراكية . فما قامت الاشتراكية الا لترقي مدارك العامل وترفع عنه حيف صاحب المعمل ، وتجعله انسانا ذا رغبة في عمـله.

وغيرة عليه . وليس كما هو الآن آلة تدير آلة . وخير للدكتور ان يفتش عن الاستقلال الذى يريده للفرد فى مبادئ الاشتراكية من أن يفتش عنه فى ثكنات الجنود .

* * *

والاشتراكية ليست من مصطنعات هذا الجيل ولكنها قديمة ظهرت فى كل مكان يحرم فيه العامل ويغنم العاطل وتطور هذا العصر فى فهمها وتوسع فى تطبيقها تبعا للتطور الشامل لكل مرافق الحياة ومن بينها علاقات الافراد والأمم

وهكذا كانت تدور دورتها فيما مضى : —

كانت الامم الغازية تفتتح البلاد فيستأثر قواد الجيش الفاتح وجنوده بأطيب الارزاق ويميزون أنفسهم عن سائر الامة بمزايا يحرسونها بالقوة ويذودون عنها بالسلاح . ثم تؤول هذه المزايا بالوراثة الى أعقابهم فتصير حقوقا ثابتة . ويجنح هؤلاء الاعقاب الى الدعة والكسل جيلا بعد جيل فيجنون ثمرة مالا يزرعون . ويجشمون غيرهم مشقة السعي وهم نائمون . وتفسدهم البطالة فيتمادون فى اللهو والخلاعة ويتهالكون على المجون واللذة . ولا يزالون ذلك دأبهم حتى يضجر الناس منهم ويحنقوا عليهم . فتنقض عليهم فى هذه الآونة جارة ترقب غفلتهم . فلا تصادف فيهم الاسراة لا هين ورعية ساخطين

كذلك ثار ارقاء الرومان على سادتهم . وكذلك ثار الفرنسيون على نبلائهم . فقال المؤرخون فى الاولى عبيد تمردوا ، وقالوا فى الثانية سوقة عربدوا — وما هى الا الاشتراكية تبدو وتخفى فى تاريخ الناس من حين الى حين

لسنا نحن فى عصر يتحكم فيه سادة على عبيد ؛ أو يستبد فيه شرفاء على سوقة . ولكن المسألة ظهرت فى طورها الجديد وكان ظهورها فى هذه المرة بين أصحاب الاموال وطوائف العمال .

ومنذ أخرج العلم للناس تلك الآلات الضخمة ، أصبح كل صاحب معمل يتمتع بتعب الالوف من الصناع الذين يستخدمهم فى معمله . فكان التعب والحرمان من نصيب فريق والراحة والربح من نصيب الفريق الاقل ، فتجددت الشكوى القديمة ، وعادت الاشتراكية ، ولكن هل تراها عادت اليوم لتشهد خاتمة هذه المدنية وهل لا مفر من هذه الخاتمة بعد عودة هذه الاشتراكية الجديدة ؟ ،

لا نظن ذلك — لاننا اليوم فى مأمن من غارات القرون الاولى . ولان العلم والنظام قد أصبحا فى هذه العصور ملكا للانسانية عامة وليسا من خواص أمة يذهبان بذهابها

*
* *

واذا صح رأى نورد فى كتابه التأخر والاضمحلال Degeneration فهذا الضعف الذى استولى على الجيل الحاضر أثر من آثار النظام الاقتصادى ، فلقد أفرط الناس فى اجهاد أبدانهم افراطا حط من قواهم وأتلف أعصابهم . وكلما أحسو بالضعف انكبوا على المنبهات من خمر وحشيش وتبغ وقهوة الى أشباه ذلك فزادتهم ضعفا على ضعف . ولو انقصت ساعات العمل قليلا وزيدت الاجور زيادة تمكن العامل من تعويض خسارته اليومية بالطعام وأسباب الراحة ، لكانت الاشتراكية قد أنقذت الجيل القادم من غوائل هذا الاضمحلال . وبهذا الرأى — أى رأى نوردو — يسهل تعليل قول الدكتور فى ختام الفصل الاول من الباب

الثانى اذ يقول « فالامم تموت متى ضعفت صفات خلقها التى هى نسيج روحها . وضعف هذه الصفات يكون على قدر حظ الامة من الحضارة والذكاء » اذ لا تخفى علاقة بعض أنواع الضعف العصبي بالذكاء

قال عبد الله ابن معاوية « ما رأيت تبذيرا قط الا والى جنبه حق مضيع » وغريب أن يهتدى كاتب من كتاب القرن الثانى الهجرى الي هذه الحكمة الجامعة . ولو شاء زعيم من زعماء الاشتراكية اليوم أن يتخذ لمذهبه شعارا لمازاد على تلك الحكمة حرفا . فالاشتراكية الصحيحة تقوم اليوم لتسترد ذلك الحق المضيع ، ولا مطمع لها فى العدوان على انسان

* * *

يتذمر الدكتور لوبون تارة من انحطاط الخلق العام وفقدان أفراد الامة ملكة ضبط نفوسهم وانصرافهم عن المرافق العامة الي حب الذات » ويأسف حينا لتلك الحقائق القاسية التى « جلبت على أهل العقول الصغيرة فوضى الافكار التى يمتاز بها المرء فى هذا الزمان . وغيرت تلك الشكوك أطوار الشبيبة المشتغلة بالآداب والفنون . فغرست فيها جموداً مشوباً بالكآبة وذلك افقدها الارادة . ونزع منها القدرة على الاهتمام بأى أمر . وجعلها تعبد المنافع الذاتية الوقتية دون سواها »

وقد تكلم ماكس نوردو فى كتابه المتقدم عن هذا الخلق الذى دعاه الدكتور لوبون عبادة المنافع الذاتية . ومن رأيه انه ناشئ عن أمراض الاضمحلال التى ألمعنا اليها وانه شعبة من جنون الانانية Egomania ، ونقول أن حب الذات ينشأ عن ضعف حاسة الواجب وهو مرض من الامراض العقلية . ولكن يزيده إعضالا تأكد الناس من فقدان التوازن

بين حقوق العاملين وواجباتهم ، فيرون كيف يثرى الوسيط ويعدم التاجر ، وكيف يكرم القوّاد الوضيع ويهان العامل الامين ، وكيف أن الكسب المباح يحسب بالدانق والسحتوت وأن ربح الاحتيال يعد بالدنانير والبدر ، ومتى رأوا ذلك فأى أمل لهم فى الاعتراف بما لهم من حقوق ، وأى باعث عندهم على القيام بما عليهم من واجبات ؟؟ وكيف بعد ذلك لا تغلب عبادة المنافع الذاتية على روح الواجب وصوت الضمير ؟؟

لا أمل فى الخلاص من هذه السوآت الا اذا ساد اعتقاد الناس بتضامن الانسانية . وأيقن كل فرد أن على حقوقه حارساً من أمته ، وانه موضع عناية الانسانية أجمع . بذلك تثوب الخواطر ويرعى الناس حرمة الواجب . والا فلو ظن الانسان انه ليس ثمت ضمير عام يؤنب الناس كافة على مايحل به من الغبن والاذى ، وانه لا حق له فى الرحمة أينما يمم وجهه . فقد مات ضميره وغلبه الحرص فتعلق بالجشع ونبذ المبادئ والفضائل ، الا ماوافق منها هواه ، وفشت فوضى الاخلاق فارتفعت الحدود واندثرت معالم الشرائع ، إلا فى الدفاتر والاوراق

يقول الدكتور لوبون : « اليوم تميل الامم القديمة الى السقوط فهى تهتز من الوهن ونظاماتها تتداعى واحداً أثر واحد وعلة ذلك فقدانها كل يوم شيئا من ايمانها الذى قامت عليه حتى الآن فاذا فقدته كله قامت حتما مقامه حضارة جديدة مؤسسة على معتقد جديد »

نعم فلا بد للامم من معتقد جديد . أفتدرى ماهو هذا المعتقد ؟؟ نحسبه هو وحدة الاخاء أو هو التضامن الانسانى أو هو ــ فى بعض مظاهره التى يفهمها سواد الناس ــ الاشتراكية

ذلك انك اذا زرعت فى قلب الانسان ثقته بعطف الانسانية اكبرته

فى عين نفسه ومسحت عن قلبه ذلة المخلوق الذى نبذته السماء ولم تعبأ به الطبيعة الا كما تعبأ بأحقر المخلوقات

وينبغي أن يعتقد الانسان انه يعمل للانسانيـة لا ابتغاء المثوبة أو خوفاً من العقوبة ولـكن مسوقاً بحرض من غرائزه التى لاطاقة له بالخروج عنها . فاذا عمت هذه العقيدة رضى كل انسان بحظه ولم يطلب الجزاء على عاطفته النوعية فى غير إرضاء تلك العاطفة ومطاوعتها فيما توحى به

للانسانيـة اليوم حاسـة تسمى « الضمير العام » ولكنها ضيقة الحدود لا يحتمى بها فى كل أمة غـير ابناء تلك الامة . وقد أشار الدكتور الى ذلك فى قوله « انك لا تجد بين ساسة الانجليز واحـدا لا يرى جواز استعمال أمور فى جانب أمة أجنبيـة لو أتاها فى بلاده لانزلت به السخط من كل ناحية » والحقيقة أن ذلك دأب ساسة الامم كلها وليس الانـكليز وحدهم . بيد اننا نرى حدود ذلك الحرم تمتد يوما بعد يوم حتي يوشك أن يشمل كل أمة جديرة بالدخول فى لجة الاخوة العامة . وكذلك كانت عهود الاخلاق فى مبدإ أمرها ، فانها لم تـكن مرعية الا فى حق ابناء القبيلة وحدهم . قال داروين فى كتابه أصـل الانسان « ولـكنها ــ أى أصول الاخـلاق ــ لم تـكن معتبرة الافيما بين أبناء كل قبيلة على حـدتها وكانوا لا يعدون مخالفتها فى حق أبناء القبائل الغريبة جريمة مستنكرة » . ثم مازالت هذه الاصول تنداح من نطاق الى نطاق أوسع منه حتى شملت أبناء الجنس الواحد ثم شملت ابناء كل دين على تباين أجناسهم ثم أصبح الناس يسلمون بها نظريا فى حق نوع الانسان بأسره ، وان خالفوها عملا . وهم سائرون فى طريق الوحدة ، والطبيعة تقوم بعملها لهذه الغاية فتقرض الشعوب الذابلة ولاتذر منها الاماهوأهل

للرعاية والبقاء ـ تمهيدا لوحدة الانسانية وشمول أحكام الضمير العام

***

لا يفوتنا بعد أن نقدنا ماخلنا فيه شيئا من الغلو من آراء الدكتور لوبون أن نعرض لما في كتاب (سر تطور الأمم) من الآراء الصائبة والافكار القوية الحقيقة بانعام النظر وطول التدبر . ونقول على وجه الاجمال أن المؤلف لو أخلاه من الاحكام والنتائج وقصره على الملاحظات والآراء لما كان فيه مأخذ ينتقذ . فأنه لا العلم ولا الفن ولا الادب جمع حتى الساعة الادلة والمقدمات التي تكفي لاصدار تلك الاحكام المبرمة والنتائج المحتمة

ومن تلك الملاحظات والآراء مايهمنا نحن المصريين لأنه ينطبق على حالتنا تمام الانطباق

فيظهر أننا لا نفهم بعد معنى الوطن حق الفهم . قال الدكتور « كان وجود الروح أولا فى العائلة ثم انتشر منها فى القرية ثم فى المدينة ثم فى الاقليم، ولم يعم جميع السكان الا في أزمان قريبة منا. هنالك وجدت فكرة الوطن بالمعنى المفهوم لنا فى هذا العصر لانها لا تصير واضحة الا اذا تم تكوين الروح ولهذا لم تترق فكرة الوطن عند الاغريق الى أبعد من فكرة المدينة ودامت مدائنهم فى حرب مستمرة لان كل واحدة منها كانت أجنبية فى الواقع عن البقية . كذلك لم تعرف الهند منذ ألفى عام غير وحدة القرية فعاشت من ذلك الحين تحت حكم الاجنبى تقوم فيها ممالكه بسهولة كما تدول بسهولة »

وذلك شبيه بمعنى الوطنية فى مصر، فانها لا تعرف غير وحدة القرية، وما أظن هنالك أن أمة غير الامة المصرية تقام فيها المناحات لسفر قريب أو صديق من اقليم الى اقليم يجاوره ويقسم فيها الرجل بغربته وهو فى

عاصمة وطنه . ولا أحسب أن لهذه الحالة دواء أنجع من نشر الكتابة والقراءة وذيوع الادب المصرى بين قراء المصريين فى كل قرية ومدينة

والمصريون لايكاد يؤلف بينهم شيء من وحدة المشاعر . ويكاديكون أبناء النيل اثنى عشر مليون فرد ولاأمة . ولاريب أن ذلك انما نجم عن اختلاط العناصر وتوالى الامم الفاتحة كما أنه يعزى الي سوء فهم الوطنية الذى قدمنا ذكره . ومن الحكمة استحياء أشد العصبيات أخذا بقلوب هذه الشراذم المبددة . ولا فرق بين أن تكون عصبية مصلحةأوعصبية تاريخية أوعصبية وطنية (٢) مادامت تفضى الى لم شعثهم وتوجيه نفوسهم الى وجهة واحدة

ومن عيوب الامة المصرية فقدان التخصص وشدة التقارب بين الصنائع والصناع وهو نقص بين « فأن مستوى العقل — كما يقول الدكتور — يكاد يكون واحدا عند جميع أفراد الامم الدنيا ذكورا واناثا . . . . . واما عند الامم الراقية فالقاعدة هي اختلاف الافرادوكذا النوع اختلافا كبيرا »

وقد نرى ان للخصوبة دخلا فى هذا النقص . فان الزراعة فى البلاد المخصبة لا تبعث الحاجة الى المنافسة كما تبعثها الصناعة ؛ والمنافسة هى باب التفاوت والتنوع فى الحرف والمصنوعات . ولن يطول الزمن حتى تضطر الامة الى الصناعة لان الزراعة لا تقوم فى هذه الايام بمطالب الناس. وربما رجعنا بشيء من احجام الاغنياءعن فتح باب المنافسة بانشاء المصانع

---

(١) وجدت هذه العصبية القوية والحمد لله فى الحركة الوطنية الحديثة التى بدأت ظواهرها على أثر الحرب الكبرى

وتبادل النفع مع الامة الى احتفاظهم حتى اليوم بنحاهم الغريبة عن البلد فقد ظل أكثرهم الى زمن غير بعيد ينظر الى القطر المصرى نظرة المهاجر الى هجرته ، ويعامل المصريين معاملة الاجانب عنه . وكان أهل الثروة من أبناء النيل فى الجيل الماضى أقل شأنا من أن يستقلوا بعمل وأجهل من أن يقدموا على غير الزراعة .. ولكننا أصبحنا نرى سراة مصر يستوطنونها ويولون وجوههم صوبها وترتبط مصلحتهم بمصلحتها فلا يبعد أن يكون شأنهم في المستقبل غير شأنهم فى الماضى ولا سيما متى عمت الوطنية سكان مصر على السواء وعد من ابنائها كل من ينفعها وينتفع فيها من الوطنيين والنزلاء . فأن مصر بحاجة الى تآلف الاغراض الفة تشبه ما يعوزها من وحدة المشاعر

***

ولا ننسى الاخلاق . فقد لحقتنا كل اضرار المدينة الغربية ولما نصل الى شيء كثير من مزاياها . ولا جرم فقد سهل على حواسنا أن تدرك ملذاتها فانغمست فيها وقصرت عقولنا عن ادراك معانيها فحيل بيننا وبينها . ولا يخفى ان اقتباس ظواهر المدنية سهل على من يريده لا يكلفه قسطا كبيرا من الدراية والمزايا النفسية . فلو انك حملت زنجيا حقيرا الى باريس لتمتع بكل رذائلها فى اسبوع واحد ، ولكنه لن يقدر على التمتع بمعارفها وآدابها ولو طال عمره ، لان الفرق فى الحواس قريب بين أرفع الناس واحطهم ولكنه بعيد جدا فى العقول والسجايا

فنحن اليوم نعب من ناحية المدنية الاوروبية ومنكراتها ولا نذوق قطرة من عظمتها وطيباتها وما كنا لننتظر أن نجنى ثمرة المدنية بغير

شوكها . فان المدنية شباب الانسانية . وفى سن الشباب تتولد الشهوات كما تتفتح القوى وتنمو المـدارك . وليست طهارة الفطرة الا كطهارة الطفولة التى لا تأثم لانها فارغة من الشهوات كما انها فارغـة من القوى والمدارك . ولـكن الرزيئة أن نضيع سلامة الفطرة ولا نبلغ رقى المدنية، وذلك ما نوشك ان نصنعه

ولقد أصاب الدكتور لوبون كل الاصابة اذ يقول : « الخلق لا العقل هو الذى تقوم عليه الجمعيات البشرية وتؤسس الديانات وتبنى الممالك وهو الذى يجعل الامم تحس وتعمل وما كان كسب الامم كثيرا من شحذ الاذهان والتعمق فى التفكير »

أى والله . فان الانسان بغرائزه . وان الحياة بخيرها وشرها لا شىء اذا نظرنا اليها من ناحية الطبع ولكنها من ناحيـة الغرائز كل شىء . بل لا شىء سواها . وليست الفضيلة ما سلم به الانسان بتعليل عقله ولكن الفضيلة ما نشأ عليها وتضمنه طبعه وزجلته اليه فطرته

فلتكن عنايتنا بالاخلاق فوق عنايتنا بالعلوم . ولتتضافر على هذا العمل المدارس والمحاكم والكتب . ومما يهون الامر أن الاصابة محصورة فى طائفة قليلة من ناشئة المدن ، فاذا وقيت الامة من عدواها كان الامـل فى الجيل القادم وثيقا .

ولا ننكر ان الامر يلزمه شىء غير يسير من التضحيـة والمفاداة . ولا بد له من قادة من عظماء الاخـلاق والنفوس يقفون فى وجـه أهل الفساد ولا ييأسون من اصرارهم، فانهم على التفافهم لتسرح فيهم كلمة الحق كما تسرح شرارة النار فى الفاف الاجمة اليابسة

يقول الدكتور لوبون « ان الفارق بين الاروبيين وبين الشرقيين هو

«اختصاص أولئك بفريق راق من العظماء دون هؤلاء»

كلا . بل لكل نصيبه من العظماء . فللغرب عظماء العقول وللشرق عظماء النفوس . وما أحوج الشرق اليوم الى عظيم من أولئك العظماء الذين كان يجود بهم أحيانا . فيقوم من أوده . ويعزر من أيده . ويأخذ في طريق الحياة بيده ؟ ؟



الفضائل الجنسية (١)

كانت صيحة القرن الثامن عشر بتحكيم العقل صيحة قوية عاتية . صاح بها فاقتلع من الجهالة أوتادا ، ودك من العقائد اطوادا ، واجترف دعائم وسدودا ، وأزال معالم وحدودا ، ثم غير من ذلك ما غير وابقى ما ابقى فأحسن كثيرا ، واساء كثيرا

احسن بما ازاح من طريق الانسانية من ركام دارس كان يعتاق خطاها ويضل بصيرتها فخلا ما بينها وبين الفضاء ، واتسع لها سنن الهداية لو احسنت اليه الاهتداء .

وأساء بما هدم من قواعد راسخة ، واجتاح من حوائط شامخة ، ظنها القوم عراقيل فالفوها فيما بعد حصونا ، وحسبوها من عبث الخرافة فعلموا انها من تدبير الحكمة ، ثم عادوا يبنونها من جديد بعد جهد بذلوه في الهدم والبناء كانوا هم في أشد الحاجة اليه

والفضائل الجنسية أول ما اصابه معول الهدم من دعاة ذلك القرن الكثير المعاول . فقد ولع بها ادعياؤه ومجانه يعرضونها لتهكمهم الابله وضحكاتهم الخرقاء ؛ فظنوها من عسف رجال الدين وبقايا القيود الاولى ، وجعلوا يعجبون من الرجل الحر المستنير العقل كيف تقف بينه وبين تسويل نفسه ورقة يكتبها قسيس أو موثق يتعارف عليه القوم بلا مسوغ من الفكر ، ولم يروا لتلك الفضائل أصلا ابعد من العرف وأقوى من سيطرة الكنيسة ، فسخروا منها واستخفوا بها . ثم وجدوا مسلك

(١) نشرت في العدد الحادى عشر من الرجاء

الاباحة سهلا وطيئا فأوغلوا فيه وهم يزعمون انهم فى وجهة العقل يوغلون وعن وجهة الوهم والجهالة يصدفون . فكأنما المؤتم بالعقل عندهم هو كل من لا يزعه من نفسه وازع ، وكأنما الواهم أو الجاهل عندهم هو كل من له خلق ينهاه أو عقيدة تكبح جماح هواه

ولا أشك فى انهم مصيبون في بعض الشيء ، على ما يشين صوابهم من العجلة وقصور النظر وخفة الاحلام . فهم مصيبون فى قولهم ان الفضائل الانسانية يجب ان لا يكون معولها كله على ورقة مكتوبة أو أمر يمليه واعظ باسم خالق أو مخلوق ، ومن الزراية بالانسانية حقاً أن يكون التمايز بين فاضلها ومفضولها تمايزاً في باب الخضوع والتسليم الاعمي، وانما الذى يليق بالانسان أن يكون رجحانه رجحانا فى خصائص النفس والفكر فان لم يكن كذلك ففى خصائص الخلق والجسد ، وهكذا يجب أن تكون الميزة بين كل صاحب فضيلة وكل صاحب رذيلة . فهل الشأن غير ذلك فى الفضائل الجنسية ؟؟

لست أعتقد ذلك. ولكنى اعتقد أن الفرق بين الناس فى الاهواء الجنسية لم ينجم عن فرق فى الانخداع للوهم أو التمرد على القيود ولكنه نجم عن فرق فى مناعة النفس ووثاقة الخلق وفى الصلاحية للابوة وبقاء الذرية ، بحيث يمكن أن يقال ـ بل يقال على التحقيق ـ أن الفضائل الجنسية الصحيحة كانت فى أول نشأتها مزايا جسدية فزيولوجية قبل أن تكون مزايا أدبية أو دينية

فالذى نراه أن لكل من الجنسين شروطا معلومة، أو مجهولة ، يشترطها فى الجنس الآخر حتى يتم بينهما الحب والتآلف ، وأن هذه الشروط هي بمثابة التعاقد الفطرى على المزايا الضرورية للغاية التى تعنيهما معا ، وهى

انجاب أوفق النسل وأمثله

وكلما تعددت هذه الشروط كان تعددها فى الامة عنوانا على ترقيها ونضجها ووفرة مزاياها ووصولها من التقدم الى منزلة يضن بها على الضياع ويرجى النماء من بعدها . فلايجيء نسلهم اعتباطا بلا احتراس ولا اعتصام كفعل الذين يعتقدون فى قرارة غرائزهم ويشعرون من دخيلة أنفسهم بأن كل نسل لائق بهم ، وانهم بفطرتهم لا يأنفون من أن يكونوا آباء لأى صنف من الابناء

وأى قوام لتلك المزايا فى أخلاق أصحابها المحسوسة ؟ وأى ضمان لبقائها مصونة فى أهلها ؟؟ قوامها وضمانها هو العفة . ومعناها الترفع عن العلاقات التى لا تجمل بمزايا صاحبها

فليس أدل على اضمحلال أمة أو على قرب اضمحلالها من سهولة الشروط « الفطرية » التى تبنى عليها العلاقات بين الجنسين وشيوعها فى جميع الناس على السواء . فالرجل الذى لايتخير لعاطفته الجنسية يقول بأصدق لسان ينطق به ـ لانه لسان كل ذرة من ذرات جسمه ـ انه أب حقير لاخير للعالم فى نسله ولا موجب للتمييز والتدقيق فى ذريته . ولا يصدق هذا على الهمج والزعانف وحدهم ولا على الذين لايشك فى ضعة شأنهم وضعة شأن أبنائهم من باب أولى ، ولكنه يصدق عليهم كما يصدق على أناس غيرهم ممن تبوئهم الامم مكانا عليا وتحتفى بهم وبأسمائهم وأعمالهم وتحسبهم خلقاء أن يكونوا أحسن الآباء لأحسن الابناء ، وهم على خلاف ذلك فى الحقيقة . أولئك الذين ينخدع فيهم الناس والطبيعة بهم أعرف وأخبر ، ويضل فيهم حكم العقل ، والغريزة عليهم أدل وأظهر ، فربما شوهد بين المستخفين بالعفة أفذاذ من ذوى العبقرية أو المعرفة أو السن أو الشهرة

يبهرون الناس بمواهبهم فيخالونهم أهلا لا كمل الابوة وأنجب البنوة وينتظرون منهم أحسن الازواج وأفضل الاصهار ، حتى اذا تركوا لأهوائهم ثم فعلهم على مقدار استحقاق ذريتهم للاشتراط والانتقاء ، وأظهرت التجارب أنهم عقماء أو كالعقماء ، فيما يرزقون من ولد ضاوى وخلف ضعفاء .

وعلى الجملة فكل عيب مهما خفى فى تكوين الانسان فله محك من هذه الشروط التى تتقيد بها ميوله الجنسية. فاذا كان عيبه هبوطا فى مستوى الامة ظهر فى أباحية الهمجى وتساوى النساء عنده وان اشتد اسره وتوثقت بنيته . واذا كان شذوذه في الخلق ظهر في غواية ذلك الشاذ وان أتى شذوذه بالفلق المعجز فى معاريض الفنون والآداب . واذا كان نقصا فى التكوين ظهر فى إسراف الفتى الغر الذى لم تنضج ميوله ولم يكمل استعداده وان سلم من عيبى التأخر والشذوذ . واذا كان فسادا فى مزاج الامم ظهر فى تهالك أبنائها على الرذيلة وان ظفروا من الحضارة بأوفى نصيب . وليس لواحد من هؤلاء نسل يستحق أن يبالى بالتمهيد والحرص عليه . فهم سواسية في طلاقة الميول الجنسية من القيود ، سواسية فى كفاءة الابوة ، سواسية فى نقص المزاج على تباينهم فى الاجناس والاذواق والاعمار .

فحيثما برز فى الرجل أو المرأة امتياز يتلاشى إن لم ينتقل بالوراثة برز بإزائه شرط أدبى لضبط العلاقات الجنسية ، يترتب عليه بقاء ذلك الامتياز عقبا بعد عقب ويتبعه حتما الاحجام عن بعض هذه العلاقات والرغبة فى بعضها ، وحيثما امتنع الاحجام انعكست الآية وصارت الرغبة بلا ضابط دليلا على أن ليس فى الفرد أو الامة امتياز ينقل بالوراثة ، وقديما كان

شيوع الرذيلة فى بلد مؤذنا بانقراض الدولة وضياع الشوكة ومرادفا لقول الامة بلسان حالها : ان جيلها المقبل همل لا يعتنى به ولا تصان حوزته

على هـذا ليس الاستعصام كما يزعم بعض المتفلسفة من الاباحيين تحكما فضوليا من وضاع العرف والشريعة . ولكنه أصل فى خلاقة الجسم يعاب فقدانه وينطوى على مغازى كثيرة : أقربها فى الفرد أن له خلقا مكينا قادراً على صد ميوله والقبض على عنان أهوائه وأقربها فى الامة أن لها مستقبلا ناميا وخصائص لا تبذل جزافا . والذين يقولون انهـم حكموا العقل بحكم لهم بنبذ الفضائل الجنسية يظلمون العـقل ويتقولون عليه مالم يقله ولن يقوله . لانه لا يحكم العقل من لايحصى جميع العوامل المختلفة ويدخـل فى تقـديره حساب كل قوة مؤثرة فى قضيته ، ومن العومل المسيطرة على الحياة الانسانية ما يجهله العقل ولا يفقه من مراميه الا قليلا . كالغرائز مثلا . فالذى يريد أن يخضع الناس لسلطان العقل دون سواه لا يهمل الغرائز وحدها ولكنه يكون أشد من ذلك اهمالا للعقل نفسه ، وهو يظن أنه باسم العقل يدعو وبدين العقل يدين .

مصطفى كمال (١)

بطل الشرق ورجل الساعة

رجل وثيق الايمان ، نقى الاخلاص ، محصد العزيمة ، حازم فى مشتجر الفكر ، ناضج الرأى ، مجبول على الكفاح ، عزيز الامل ، قيضه الله لوطنه فى محنة مطبقة قلما تهوى الى مثلها الاوطان فنصره نصراً مؤزرا قل أن يذكر التاريخ مثله . وكان جهاده الوطنى كله أعجوبة بل معجزة لو كان فى نظام الوجود خوارق للعادات لقلنا انها من خوارق الطبيعة .

وللذين يتحدثون اليوم بنصر مصطفى كمال — والعالم من مشارقه الى مغاربه يتحدث به — أن يسألوا سؤال المعجب من توقف الحوادث الخطيرة بعض الاحيان على صغار الصدف : ما الذى كانت تؤول اليه حركة الاناضول لو لم يغفل الانجليز عن مصطفى كمال عند احتلال الاستانة فلا يعتقلوه مع من اعتقلوا من رجال الترك الذين كانوا يخشون صولتهم ويحترزون من تمردهم وانتقاضهم ؟؟ وما الذى كانت تؤول اليه هذه الحركة لو لم يهف فريد باشا على كره منه هذه الهفوة السعيدة التى ملكت مصطفى ناصية الاناضول والقت فى يديه مقاليد مستقبله ؟؟ وكيف كانت تتقلب الحوادث لو لم يأمنه على قيادة جيش فى قلب ذلك الوطن القديم الذى نشأت فيه دولة بنى عثمان وما استمدت جيوشهم القوة الا منه ، فيطلقه

---

(١) الافكار ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٢

من الاستانة فى الساعة التى كان يصبو فيها الى الابتعاد عنها ، ويخلى بينه وبين ميدان العمل الفسيح كمن يبحث عن حتفه بظلفه ؟؟

ونظن أن الفضل فى ذلك راجع الى صفة فى مصطفى كمال هي سر عظمته كلها ، وهى « اكتمال جوانب العقل » ، فهذه الصفة جنحت به الى ايثار العمل المنظم القائم على أوطد الاساس وأبعد الغايات . فليس هو برجل القحم والقلاقل ولا ببطل الفتن والنزوات . ولو كان كغيره من المتهجمين القوالين الذين تغلب القوة المرتعدة على جانب واحد من جوانب عقولهم ونفوسهم فيندفعون فى كل ثائرة ولا يزنون الامور بميزان الحكمة وصدق النظر لسمع الانجليز من انباء هجماته وشططه ما خوفهم بأسه ، ولكان عندهم حينئذ الرجل « الخطر » الذى يرهب شره وتخشى بوادره ولحبسوه مع من حبسوا فاضاعوا عليه فرصة هى فرصة الحياة لرجل عظيم ولامة مستبسلة . وربما انقضى بذلك تاريخ هذا المجاهد الكبير وخسر الشرق بطلا من أجل ابطاله القدماء والمحدثين . ولكنهم جهلوا موضع « الخطر » الصحيح فاطلقوه ولم يحذروه ، لانه مسالم موادع ، ولو دروا لاطلقوا كل معتقل واعتقلوه ، على انه حظ للترك جاءهم من طريق المصادفة ، وما يعلم أحد كيف كانوا يعوضون عنه لو فقدوه .

ولعل هذه الصفة التى طبقت الخافقين بذكر بطل الاناضول هى نفسها سبب خموله وخفاء قدره فى إبان القلاقل والطوارق التى كانت تجرى على أيدى المشهورين من رجال تركيا الفتاة وجماعة الاتحاد والترقى . مع انه كان من أوائل المنشئين لجماعتهم ومن أخلصهم نية وأسماهم مطلباً وأشدهم عزماً ، ولكنه كان لا يتهجم ولا تستخف حلمه الراجح صغائر الامور ولا يزج بنفسه فى أعمال مقتضبة لا يلم بأطرافها وخواتيمها ومواقع الحزم والتدبير

فيها . فلذلك خمل ونبهوا وتأخر وتقدموا وتريث وتعجلوا وكانت له فى آخر الامر الفرصة العليا لحسن حظ بلاده . ومن غرائب جهل الناس بحقائق النوابغ الذين يعيشون بين ظهرانيهم ان هـذا الرجل الذى كدنا نحسبه من (العمليين) الخالين من صفات النظر والخيال كان عندرؤسائه يعد من الحالمين تباع الخيالات حتى بعد الثورة الرجعية التى أثارها عبد الحميد على الدستور فى سنة ١٩٠٨. وفى ذلك العهد كان مصطفى كمال قد ناهز الثلاثين وأوفى على سن أتم فيها كثير من العظماء خيار أعمالهم . ولكنه كان يقترح الرأى البعيد وينظر النظر السديد فيهملونه ولا يعبأون به ، لظنهم انه من أبعد الناس عن ادراك الوقائع وسبر غور الحقائق، وروى هو ذلك عن نفسه فى حديث نقل عنه فقال : « كنت كثيرا ما أرفع الاقتراحات النافعة والانتقادات المفيدة لاصلاح شأن الجيش . فكان ذلك من الاسباب الجوهرية فى حقد بعض القواد القدماء على ، وقد ذهب بهم قولهم انى أقرب الى النظريين منى الى العمليين » . وكذلك يعدون كل رأى لا يفهمونه حلماً أو وهماً ولو كان فى اعتقاد صاحبه من المحسوسات المتحجرة

واكتمال الجوانب العقلية فى مصطفى كمال ظاهر من تعدد ميوله ومواهبه وتيقظ الاذواق المختلفة فى نفسه . فهو مع ميله الى الرياضيات مولع بالادب والشعر ، ومع براعته فى فن الحرب حسن الدراية بالسياسة ينفذ بنظر منه ثاقب فى خلال شباكها المعقدة ومعضلاتها الملتوية ، ومع صلابته واصراره يأخذ بالرأى النافع اذا اقتنع بصوابه واصالته ، ومع شظفه وشدة طبعه واعتياده الجلد والخشونة فى معيشته لايحرم نفسه جمال الطبيعه ولذة الانس بخلائقها اللطيفة ، من طير صادح وزهر نافح

ومحاسن لا تلج الى النفس لا من أسلس مداخلها وأجمل نواحيها ، ومع احاطته بحقائق الحياة ونقائص الطبائع البشرية وثاب الامل. يخيل اليك أنه مسلوب الروية عازب اللب اذا نظرت الى مرمى بصره ومطامح قلبه

وليس على شخصية هذا البطل حجاب غامض أو سر من الاسرار كما يغلب على كثير من عظماء الرجال . فأنت تسمع باعماله فتعرف من هو ويغنيك ظاهرها عن باطنها وآثار الرجل المسموعة عن ترجمته المجهولة . وكذلك عرفناه حين سمعنابءاثره . عرفنا أن الرجل الذى يجمع من الفلول المبددة جيشاً منظما خطيرا لابد أن يكون قائداً قديرا . وان الرجل الذى ينشيء من الفوضي حكومة دستورية يستخرج لها الثروة من بلاد محصورة مجتاحة لابد أن يكون اداريا خبيراً . وان الرجل الذى يبرم المعاهدات ويعقد الاتفاقات ناظراً فى ذلك الى مصالح بلاده وعلاقاتها بامم الشرق والغرب لابد أن يكون سياسياً حازما . وان الرجل الذى تأبى عليه حميته مطاوعة التيار الطاغي فيجازف بمغاضبة سلطانه وأكبر دول اوربا من ورائه لابد أن يكون وطنياً مخلصاً . وان الرجل الذى يقف ساعات فى مجلس الامة يبسط الخطط ويسوغ التدابير لابد أن يكون خطيباً مبيناً . وان الرجل الذى تسبق حكومته الامم الاوربية الى اتخاذ الوزراء من النساء لابد أن يكون مستنير الذهن بصيرا بعوامل التأثير فى نفوس الاوربيين الذين يتهمون أمته وينعون عليها الشهوانية واحتقار المرأة — واذا عرفت من رجل انه قائد قدير وادارى خبير وسياسى حازم ووطنى مخلص وخطيب مبين وبصير مستنير الذهن فالسر الذى خفى عليك من ترجمة حياته قليل

ووضوح الشخصية نافع فى المواقف العصيبة التى يجب انقاذ الامة منها

ودرء أخطارها فى حينها . فليس يجدى فى هذه المواقف رجل لا تظهر آثار شخصيته فى حياته ولا يحس سواد الناس معالمها حين ظهورها، أما مصطفى كمال فمن هؤلاء الذين يشهد كل من لحجهم ولو لمحة واحدة انه فى حضرة رجل فوق مستوى الرجال . ولسيماء الرجل هيبة ناطقة ولا سيما نظرات عينيه فأنى ماقرأت وصفاً له الا رأيت فى مقدمته التفات الواصف الى وقع تلك النظرات . فهى نظرات تنفذ من خلال زرقة العينين حادة كالسهم كما قال مكاتب « اللستراسيون » الفرنسية، وهكذا وصفته الاميرة قدرية فى قولها « وهو مربوع القامة رقيق أبيض اللون مشرب بالحمرة الوردية . له عينان زرقاوان حادتان . نظراتهما تكتنه الخفايا وتخرق الحجب الكثيفة، وجبينه العالى آية النبوغ » وهكذا وصفه كلود فارير الكاتب الفرنسي المعروف والجنرال تونشند القائد الانجليزى ، فدلالة تلك النظرة واحدة فى نفس الرجل والمرأة والكاتب الأديب والقائد الحربى على اختلاف فى الجنس والنحلة

وقد جرت العادة عند ترجمة رجل عظيم من رجال الحرب المحدثين أن يقارن بينه وبين رجل يعد أعظم اساتذتها فى العصور الحديثة ، وهو نابليون بونابرت ، ويتخذون هذه المقارنة محكا لكفاءة كل قائد كبير ومقياساً للمواهب النابغين ممن جمعوا بين الخبرة بالفنون العسكرية والقدرة على زعامة الشعوب . ونحن لا نرى حرجاً من المقارنة بين مصطفى كمال ونابليون أو أى عظيم من العظماء المخلدين الذين أنجبهم العالم قديماً وحديثاً . وليس يعنينا فى اظهار فضل مصطفى كمال وتقدير شخصيته النبيلة أن نعقد المفاضلة بينه وبين نابليون فى أساليب القتال والمعرفة بفنون تعبئة الجيوش ورسم الخطط وابتداع الحيل ، فهذا خارج عن بحثنا وليس هو مما يتيسر لنا

ولا مما يرتبط ارتباطا وثيقاً بالابانة عن شخصية الرجل وعظم نفسه ، ولكننا نقول أن مصطفى كمالا لايخسر شيئاً فى أى مفاضلة تعقد بينه وبين نابليون من وجهة الصفات النفسية والعظمة الخلقية . بل لعله يربح كثيراً ويرجح عليه رجحاناً ظاهراً

ان نابليون خان بلده (كورسيكا) وخذله فى النزاع الذى كان قائما بينه وبين فرنسا . ولما شرع فى فتوحاته ومغازيه التى أمامه روح الثورة تكاد تلتهم الدنيا وحيوية الشعب الفرنسي تتفزز للنهوض والعمل ، فاستغلهما اسوأ استغلال واتخذ منهما وسيلة لاشباع نهمته وتشييد مجده وتأثيل ملكه . ولم يأت منه النفع الاعفوا أوعلى سبيل الاضطرار

أما مصطفى كمال فماذا استغل من الفرص ، وأى أمل كان امامه يغريه بالعمل ساعة شمر لتلك الغاية البعيدة التى تكل عنها الهمم وتظلع دونها الآمال ؟ ؟ انه استغل الضعف والفوضى والفقر ودسائس الخونة فى داخل بلاده قبل دسائس الاعداء فى خارجها . انه استغل الهزيمة الفاضحة فاستخرج منها فوزا باهرا ومجدا سامقا . ولكنه فوز لقومه لالنفسه ، ومجد دولة لامجد زعيم ، لم يصبه منهما الا مالابد منه من فخر يعود على صاحب العمل الصالح الضخم . أراده أم لم يرده ، وسعى للوصول اليه أم سعى للتخلص منه

وهذا الرجل على اهتزاز الشرق كله وجل أوروبا بقوة حركته لا يعرف الصخب ولا الخيلاء وقل أن يرى فى أوقات فراغه الاساكناصامتا. توالت عليه كما تقول الاميرة قدرية « عوامل الاخفاق وخيبة الامل والمرارة اللازبة وأحوال شتى تركت لها أثراً بيناً فى حياته ان لم تكن قد غمرتها برمتها فصارت عاملا مهما فى تكوين خلائقه » على أنه قد يبتسم فيريك الحديد يفتر فجأة عن الورد كما يقول كلود فارير ، وربما شبهه بعضهم بالنمر كما

يقول مكاتب اللستراسيون ويحسبهم المكاتب مصيبين فى هذا التشبيه «الا أن ابتسامات كابتسامات الاطفال تغير أحياناً ذلك الوجه وتكسبه عذوبة مدهشة» وهذه الابتسامة الطفلية معروفة على أفواه كثير من العظماء، حتى الذين تمرسوا منهم بآلام الحياة واكتووا بنارها، ولا غرابة فيها فان النابغ لا يزال عمره كله طفلا، لان شباب عقله ونفسه لا يقترن بالتجارب الشخصية والسنين المحدودة التى يحياها على هذه الارض، وانما يقترن بحياة أمم متجددة بل بحياة العالم أجمع فى بعض الاحايين — وأظن تلك الابتسامة الصغيرة التى تتردد على شفتى مصطفى كمال أدل على عظمته من كل ماتجشمه من الاهوال، وما امتاز به من كرائم الخصال

هذا هو الرجل الذى تدوى الدنيا باسمه فى هذه الايام. والذى يشعر الآن بسعادة مامثلها سعادة فى هذا العالم المترع بالهموم. ويكرع من كأس نشوة نادرة هي نشوة الشعور بأن الحق ينتصر بين مصارع الشهوات والمطامع. وما أندرها من نشوة سماويه!! — السعيد من ظفر برشفة من كأسها. ولكنها سعادة لا يستحقها الا القليلون، ولا ينالها الا الاقل من هؤلاء القليلين

مهاتما غاندى (١)

١

لايجد الكاتب بعد الكتابة عن مصطفى كمال صورة هى أبعد منه شبهاً من صورة الزعيم الهندى، أو النبى « غاندى » سجين الحكومة البريطانية اليوم . وليس بين الرجلين بعد جامعة الدعوة الوطنية من مناسبة تذكرك بأحدهما اذ ذكرت الآخر غير مناسبة التباين فى نوع القوى النفسية والصفات الخلقية . فكلاهما زعيم وكلاهما عظيم ، ولكن شتان نبعاهما من الزعامة والعظمة . والفرق بينهما فى الحقيقة هو فرق بين نموذج عال من الجنس التركى ونموذج عال من الأمة الهندية ، فهذا مثل الشجاعة والبأس ووضوح الشخصية والاخذ بحقائق الملموسة ، وهذا مثل التضحية وانكار الذات من نوع آخر، وماشئت بعد ذلك من غموض فى قوى النفس وأسرارها يتصل بغوامض الهند القديمة الاسرار ـ أحدهما بطل والآخر نبي ، وما البطولة فى أعم أشكالها عند الهنود الاضرب من النبوة لامعجزة له غير القدرة النفسية الخارقة . فاذا طلب السامى أو الطورانى من الرسل المبعوثين اليه أن يقيموا له البرهان على صدق دعواهم بنقل الجبال وتحويل الافلاك والانباء بما يجرى فى الاماكن البعيدة أى بما يستطيعون عمله لو تضاعفت قدرتهم المادية أضعافا معينة كأن يزدادوا فى الطول أو القوة أو السمع أو البصر آلافا مؤلفة من الاضعاف ـ فالهندى لايطالب نبيه

---

(١) الافكار ١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٢

ببرهان كهذا ولا يكلفه هذا النوع من القدرة . انما يكلفه معجزة نفسية بحتة تسبر له غور قدرته على قدع شهواته واحتمال آلامه وانكار جسده . ففريق يميل الى التسليم بحاسته وفريق يميل الى التسليم بضميره

أن أعمال مصطفى كمال تدل عليه كما قلنا ولكن أى دلالة على غاندى تصل اليها من مجمل أعماله ؟ انه حمل فريقا عظيما من الهنود على الاعراض عن زخارف المدنية الغربية والف فى كثير من المواطن بين أصحاب الديانات المختلفة ونصح وخطب ونقلت عنه أخبار شتى من بعيد ، ولكنها فى جملتها أعمال قد يأتي بها عشرة من الرجال مختلفون لا يشابه أحدهم الآخر وكلهم من الزعامة بالمنزلة المطاعة ـ قد تجتمع فيهم الشجاعة والمراوغة والدهاء والصراحة والنبل والضعة والاخلاص والرياء والطمع والعفة والانتقام والمروءة ، وقد ترى أحدهما من البعد عن الآخر بأقصى ما يكون عليه الرجلان المتباعدان . ولاسيما فى بلاد قديمة شاسعة الاطراف مختلطة كالهند يتسع فيها المجال لعوامل متناقضة . فأى هؤلاء العشرة يكون غاندى ياترى ؟؟

لم يظهر بعد « طيلاق » الزعيم الهندى الذى مات فى الاعوام الاخيرة زعيم كان أجل خطراً وأبعد صيتاً وأكثر اتباعا من غاندى هذا الذى لقبه قومه بالنبي أو القديس . وقد اعتاد غاندى ان يقول عن سلفه الراحل : « انه لو ظهر فى القرون الغابرة . لانشأ له دولة وعرشاً » وهو انما قال فيه هذا القول لما عرفه من شدة مراس « طيلاق » وقوة شكيمته وبعد أمله واعتداده بنفسه وبروز شخصيته . ولا نظنه الا كان شاعراً بالتفاوت بينه وبين صاحبه فى هذه الخلال حين التفت اليها ونوه بها أكثر من مرة . فان الاختلاف فى الخلق من هذه الناحية هو أوضح مواضع التباين بين الرجلين.

صاحب العرش الذى تأخر به الزمن عن عرشه والنبى الذى لم يتأخر به الزمن عن شرف النبوة!!

والعهد بالاغلب الاعم من أبطال النهضات وقادة الحركات الاجتماعية والسياسية أن يكونوا صعاب الطبائع ضخام الانانية أولى طماح وكبرياء، وانهم الى أخلاق الغزاة الفاتحين أقرب منهم الى أخلاق الانبياء والنساك، ولو قدر للهند أن لا يتولى الزعامة فيها أحد من غير ذلك الطراز الذى نبغ منه طيلاق لما سمعنا باسم غاندى قط ولما كان له دور يؤبه له فى رواية الهند الحديثة — نعم فليس غاندى بذلك الرجل الجبار بشخصيته الغلاب بجبلته! ولا هو بالمزاول المداور القوى العارضة الخلاب الفصاحة، ولا هو بالرجل الذى تروعك هيئته وتستحوذ على اعجابك هيبته. لا بل خلاف ذلك يراه واصفوه من اتباعه وغير اتباعه. يقولون انهم يبصرونه فى ضواه ونحافة جسمه ورخامة صوته ووداعة نظراته فكأنما يبصرون طفلا صغيرا لا بطلا مسموعا يقود الملايين وينهض لمناوأة اكبر دولة فى الارض. وقد رأيت له عدة صور مطابقة لهذا الوصف وقرأت اخباره مع حكومة الهند وأساليبه الغريبة فى مصاولتها فلم أشك فى أن رؤساء الحكومة هناك كانت تمر بهم لحظات لا يتمالكون فيها من الا بتسام من هذا القدر الذى امتحنهم بكفاح هذا النبى السياسى، فأصبحوا أمام حملاته التى كان يصبها عليهم صبا لا يدرون فى أى باب يسلكونها: أفى باب اللدد فى الخصومة أم فى باب عناد الطفولة الطاهرة البريئة؟؟ ولا يكادون يعلمون هل يجد هذا الخصم العنيد؟ أم هو يداعب حكومة الهند برهة ثم هو تاركها وشأنها حين يلهمه هواه.

الى هذا الحد يتصور الفكر غاندى غير مطبوع على اثارة البغضاء،

وهى خصلة افادته أجل فائدة فى مهمته التى قيضته الظروف لها، وما كانت لتقيض لها رجلا هو أخلق بها منه . انها كانت مهمة صاحبها فى غنى عما يتصف به الزعماء الجبابرة من خلق غضوب يستنقرون به فى جانبهم وجانب خصومهم أقصي ماعند الفريقين من نعرة الجنسية وعداوة العصبية ، فهى مهمة جهاد سلمى: سلاحها الرفق والصبر وأصلح الناس لقيادتها ذلك الرجل المسالم بطبعه الوديع بحكم تكوينه الذى يحذر اتباعه أشد الحذر من مقارفة العدوان والعنف ويقول لهم : اذا كان لابد من العدوان فكونوا انتم ضحاياه ولا تكونوا أنتم جناته، ويعظهم أن يعلوا بأنفسهم عن غضب السباع وشراسة الحيوانية . وهى كذلك مهمة تأليف بين عنصرين فرقتهما ترات تاريخيه كانت الى عهد قريب تسيل الدماء وتذكى ضرام البغضاء وتبعث الانفة والاعتزاز بالآباء ، فكلما كان القائم بها سهل العريكة بعيداً عن الكبرياء الشخصية والخنزوانة الدينية كان ذلك أعون له على الاصلاح والتوفيق ومسح الترات ولم الصفوف . وهى مع هذا وذاك مهمة قناعة واعراض عن لذات المدنية وغواياتها، ومن لها غير غاندى المتواضع المتقشف القانع باليسير من الغذاء والرخيص من الكساء ؟ ولو أنه كان من رجال المطامع وعشاق الدنيا المفتونين بجاهها وزينتها ولذاتها وملاهيها أتراه كان يخطر له أن يتخذ نفسه قدوة لاتباع دعوته فيغدو ويروح فى ثياب من أرخص ماتنسج الهند أو يعيش على الفاكهة والارز المسلوق ؟؟ ولقد صار للدين ومكارم الاخلاق كل ماعمله غاندى ونطق به . حتى الدعوة الى نبذ مظاهر المدنية الغربية وجد لها حجة من مكارم الاخلاق تحث عليها!! فكان يقول لجماعته : « انى لأستحى أن اخاصم رجلا يمن على بنسج ملابسى »

وما هو بهازل ولا متكلف فى مايقول

ويخيل الى أن ضمور الشخصية أفاد غاندى أكثر مما أضر بنفوذه وأكسبه من الانصار أكثر ممن أبعد عنه . اذ كانت الشخصية الضامرة هى التى ساعدته على بلوغ تلك المنزلة الدينية الرفيعة التى مهدت له سبيل التمكن من أقوى جوانب النفس الهندية ـ وهو جانب الشعور الدينى ـ فانه مازال من سمات النساك والروحانيين بساطة المظهر وخشوع النفس والجسم والبعد عن صور السطوة والوجاهة الدنيوية . بذلك يتسم النساك الصادقون . وكذلك يتراءى للناس النساك المتصنعون ، فصاحبنا غاندى فى بنيته النحيلة وقده الصغير أصدق عنوان للزهد والورع وأقرب صورة الى الصلاح والتقوى . ويمكن أن يقال على سبيل المجاز ان الطبيعة تورعت فى تركيبه فلم تعمد الى البذخ والروعة : فكان الرجل متقشفا فى الحياة وكانت الحياة متقشفة فيه !!

وكثيرا ما رأينا الكبراء من ذوى الصلف والنفوذ يقبلون الطاعة لامثال غاندى ممن لاسلطان لهم فى ذواتهم ولكنهم مظهر من مظاهر سلطان الله الذى لا يتعالى على سلطانه عظيم ولا حقير ، يقبلون الطاعة له ولا يقبلونها لمن يتقدم اليهم بمزايا من جنس مزاياهم ، لان الاول يترك لهم الدنيا التى هى موضع تفاخرهم وتناحرهم ومثار التنافس والحسد بينهم فيخرجونه من ميدان المنافسة ولا يرون على أنفسهم غضاضة من تقديمه عليهم جميعاً . والثانى يتقدم اليهم بحظه من تلك المزايا لينافسوه أو ليستكبروه عن منافستهم فيسلمون له عند العجز مجبرين أو مختارين كمجبرين

وللضعيف الهيئة فى بعض الاحيان أن يغتبط بضعفه الظاهر ويحمد عواقبه . لان الناس لا يكلفونه مايكلفون القوى ولا يقيسون أعماله بمقياس ذوى القدرة والخطر . يستكثرون منه القليل اذ يستقلون من غيره

الـكثير ، ويعجبون منه بما ليس يعجبهم من سواه. مثله فى ذلك كمثل الطفل الصغير يرفع اللبنة فتسير بحديثه الامثال وليس هذا ولا اضعافه مما يذكر للرجل الـكبير . وتراهم قلما يستغربون الاساءة من الضعيف اذا أساء ولا يلتفتون الى اساءته الاعاطفين أو غير مبالين . واذا أحسن لم ينفسوا عليه احسانه لقلة مايحفزه من دواعي العداء فى النفوس

مهاتما غاندى

— ٢ —

ظن بعض قرائنا اننا غمطنا البطولة حقها وأصغرنا من قدرها حين قلنا فى عرض الكلام على مصطفى كمال ان البطل لا يزال طول عمره طفلا ، وخيل اليهم ان الاخلق بالبطولة والأشرف لها أن توصف بالحنكة والحصافة والنضج قبل الأوان . فكتب الينا قارئ أديب يستغرب ما قلناه ويستفسره ويحسبنا أخطأنا الرأى فيه وعدونا الصواب . ولو فطن الى حقيقة ما أردناه لرأى ان الغمط لحق البطولة والاصغار من قدرها هو ما توهمه وقارأ جديراً بها حين خطر له انها أسرع من غيرها الى ادراك تلك الحكمة الدنيوية التى أساسها أن لا يدخل المرء فى ما لا يعنيه وأن لا يعنيه الا مايعود على شخصه من خير وشر . فان هذه الحكمة الرخيصة انما يجاد بها على من ليس يرجي منهم خير لغير أنفسهم ولا تفضل من قواهم بقية تزيد على مصالحهم . وأما الذين ندبهم الله لنفع أممهم أو لنفع الناس عامة وأنساهم في الغيرة على هذا النفع العام غيرتهم على أنفسهم فقد سلبوا — والحمد لله — هذه الحكمة وجردوا من هذه الحصافة ولم يسلم منهم أحد من مظنة الجنون والغرارة ، لا لانهم أقل من غيرهم عقلا وأبطأ ادرا كا ولكن لانهم أكبر نفساً وأبعد مطلباً وأعلى شأواً فى الحياة من عامة الناس

---

(١) الافكار ١٨ ستمبر سنة ١٩٢٢

ولسنا نند عن موضوعنا اذا نحن فصلنا هذا الرأى بعض التفصيل على القدر الكافى لدفع الالتباس والخطأ ، فان عاندى أيضاً ممن شرفتهم العناية الالهيـة بروح الطفولة الخالدة . فلننظر هنا ما معنى الغرارة التي يوصف بها الابطال ، ولننظر قبل ذلك فى معنى غرارة الطفولة ومعنى الحكمـة الفردية التى تؤدى اليها التجربة .

يكون الطفل غراً لانه لم يزن طاقته ولم يقس نفسه على القوى المحيطة به . فهو لا يعرف أين يقف بهواه ولا كيف يكبح شوقه لانه لا يعرف القدرة الضرورية لتحصيل مطالبه. ولا يزال يصادم «الظروف» والظروف تصادمه حتى يقيس ذرعه بمعيارها ويلائم بين قوته وقوتها ولا يذهب الى أبعد من الحد الذى عرفه لقوته ، فيقال حينئذ انه رشد ونضج عقله وتعدى طور السذاجة الاولى . لانه وفق بين نفسه والوسط الذى يعيش فيـه . ولكن هل هذا النضج الذى يتاح لعامة الناس مما يمكن أن يتاح لنوابغ الابطال ؟ ؟ وهل فى وسع بطل أرسلته العناية لاصـلاح وسطه أن يوفق بين نفسه وهذا الوسط الذى ليس يرضى عنه ولا هم له الا أن يغيره ويهذبه على حسب ما يبدوله أنه الكمال والصواب ؟؟ أنه ان فعل ذلك لم يكن اكبر من بيئته والتهمته البيئة كما تلتهم اللجة غريقها فـلا يخرج من جوفها ولا يبين له أثر فى غمارها . وما كان العظيم عظيما الا لانه أكبر من البيئة المحيطة به وأعلى مطلباً من أن يندس فيها كما يندس سائر الناس . فاذا رأيته بعـد تجربته للحياة « غراً » يقدم على تجربتها مرة أخرى وثالثة ورابعة فذلك لان قوته لا يحدها زمنه ولا ينتهى أمله عند معرفة ما يطلبه لنفسه . وما هو فى الحقيقة بغر الا من وجهـة النظر الى مصالحـه الخاصة . أما اذا كان مقياس الحكمة فى اعتبارنا هو أن يقيس

الانسان قوته على قوة بيئته فالبطل هو المثل الاعلى للعقـل الحى لانه فى الحقيقة لا يمنعه أن يخضع للواقع الا هذا السبب . وهو إنه قاس قوته على القوى المحيطة بها فوجد — شاعراً بذلك أو غير شاعر — انه قمـين أن يكافحها ولا يخضع لها ، وما دام بينه وبين دنياه هذا الكفاح فهو الطفل الكبير الذى تعاوده الغرارة ولا يفرغ فى التجربة

***

ونستأنف الكلام على غاندى فنقول :

إن غاندى كما رأينا مما تقدم صاحب زعامة خاصة بموقفه ومهمته — أى أنه لم يخلق ليكون زعيما على كل حال . ولا نقول ذلك بخساً لشمائل الرجل ولا تنقصاً من قدرته ، فانه فضلا عن فصاحته وسهولة اجتذابه للسامعين حاصل كما نعتقـد على صفتين من ألزم صفات الزعامة على الناس ، بل هما ألزم صفاتها قاطبة ولولا هما لما أفلح داع قطْ ولا استحق الكرامة زعيم . وهاتان الصفتان هما الاخلاص والايمان

فاخلاص غاندى فوق كل شبهة ، وايمان غاندى قد صفته المحن ومحضه النسك وتنزه عن الشكوك الهادمة والوساوس القائمة . عرف له اخلاصه وايمانه ابناء قومه فعظموه وأكرموه ورفعوه بينهم مكاناً لا مطمع فوقه لطامع . وما أدراك ما مكانه عندهم ؟ انهم يلقبونه النبي أو الروح العظيم (ماه — آتما) وهى منزلة ليس بعدها ولا أرفع منها فى دين البراهمة الا منزلة واحدة . هى الروح الكلية (بارام — آتما) وهى روح برهما : روح الله

ولم ينفرد بتنزيه غاندى عن التهم أبناء وطنه من البراهمة والمسلمين . فقد شهد بنزاهته كذلك كل من رآه من الاوربيين ، حتى أنصار الاستعمار من الانجليز ، بل شهد له قاضيه الذى أمضى الحكم بالسجن عليه . ورأينا

بين كتاب الانجليز من يقول في مجلة « نيشن » غير متلعثم ولا محـترس « انه ليس من التجديف أن يقارن بين غاندى والمسيـح » وهى كلمة كبيرة من انجليزى مسيحى !! ولم يستطع السير فالنتين شيرول أن يلقي عليه الغبار الاسود الذى لا يعييه القاؤه على مخلوق يناهض الاستعمار البريطانى ؛ فقال انه في الحركة الهندية « بلا فأس يشحذها لنفسه » وهذه الفأس عندهم هى كناية عن المصلحة الشخصية والاغراض المريبة ، وكم من فأس خلقها شيرول وشحذها على حسابه لاناس لا يحملون الفؤس ! !

وغاندى الآن يمشى فى أول الحلقة السادسة من عمره ولا يدرى أحد كيف يتم هذه الحلقة . أيعود الى الحياة العامة قريباً أم يتم أيامه في السجن فيكاد ينقضى من الآن دوره فى سياسة بلاده ؟ . على انه قضى فى هذه الحياة العامة فى ما هو حسبه — قضي ثلاثين سنة فى أشرف الاعمال وأطهرها لم تؤخذ عليه فى أثنائها سيئة واحدة تشينه ولم يخامر الشك أحداً فى صدق نيته ، واذا كان لا بد من الاستقصاء فنحن نستثنى تلك الحادثة التى جرت له فى افريقية الجنوبية فى أول عهده بالاعمال العمومية . فقد قيل ان الهنود كادوا يقتلونه هناك لسوء ظنهم به واتهامهم اياه بالخيانة وأنهم أوسعوه ضربا حتى أغمى عليه وتركوه وهم يحسبونه قد مات . وهى ريبة غريبـة يعذرون عليها لفاقتهم وحاجتهم الى الانصاف . ولعلها خامرتهم من فرط تشدده في انكار العنف وكثرة الحاحه بتوخى المسالمة والتزام حـدود الاعتصاب الرصين . وكان القوم لا يفهمونه يومئذ فاتهموه وأضمروا له السوء ثم ألفوا منه هذه الدعوة فزال ارتيابهم فيه

ولقد رأيت أناساً كثيرين كانوا يعتقدون حتى بعد محاكمته انه انما كان يوصى بالسلم والمودة احتيالا على القانون وهرباً من العقاب ، وليس

أظلم للرجل من هذا الاعتقاد . فانه لأرفع من أن يخشى عقابا وهو الذى يدين بانكار الذات والصبر على الالام ويرى المثل الاعلى للحياة فى الاستخفاف بأكدارها وشرورها . وعدا هذا فان وصايا غاندى قد نشأت قبل ان يولد غاندى ، وقبل ان يضع الانجليز قدماً فى الهند ، وقبل ان ينشق حجاب التاريخ عن كيان الدولة الانجليزية — نشأت من عبادة بوذا المبشر بدين الرحمة والاخاء القائل لتلامذته « ان الواصل الى الله لا يغش أحداً ولا يضمر حقدا لاحد ولا يحركه الغضب الى الاضرار باحد » وان « عليه أن يطوى قلبه على حب لا يحصر لجميع المخلوقات ، يحبهم كما تحب الوالدة ولدها الذى تحميه بحنانها . ومن فوقه ومما دونه ومن حوله فليمدد رواق حبه . وليكن حباً لا تعترضه الحواجز والعقبات ولا مسحة فيه من قسوة أو تحزب ، وعليه واقفاً كان أو قاعداً أو ماشياً أو مضطجعاً الى أن ينام ان يظل فكره عاملا على الخير لجميع العالم »

وهذه وصايا تكررها كتب الهند المقدسة بلا ملل ولا اختلاف ، ولنذكر ان غاندى رجل متعبد ولدته أم متعبدة فى أمة الديانات والنساك ، فليس يجوز لمنصف أن يؤول كلامه على غير معناه الصريح

بيد أننا لا نعجب من هذا الخطأ عجبنا من كتاب الصحف الاوربية الذين يأبون الا أن يضطروا غاندى الى اقتباس قواعد دينه من كتاب أو قصة يخترعها الغربيون او اشباه الغربيين . فانه لمن المضحك حقاً أن يسترسل هؤلاء القوم فى الغرور بمدنيتهم الى هذا الحد فلا يسلمون لشرقى بمأثرة لا يكون لواحد من أبناء الغرب أصبع فيها . وهل تدرون من صاحب الفضل على غاندى فى فلسفته وآدابه ومن الذى لقنه أصول دين البراهمة ؟ ؟ انه هو تولستوى ! ! كذلك قال شيخ صحافتهم لورد نور ثكليف غفر الله له بمد

عودته من الهند ! !

وما لنا نلوم كتاب الصحف وهـذا رينان المؤرخ اللبيب والباحث النزيه يقارن بين الشرقيين والغربيين فيخالف المعروف المتفق عليه ويميز الغرب على موطن الاديان ومهبط الوحى بخلوص النية وصفاء العقيـدة وبراءة العاطفة الدينية من الزغل والمواربة ! ! ويقول فى هـذا المعنى فى صدد كلامه على معجزات السـيد المسيح : « اننا نحن بما لنا من طبائع باردة مترددة قلما نفهم كيف تستحوذ على الانسان الى هذا الحد فكرة كان هو صاحبها الذي ندب نفسه للدعوة اليها . فنحن أبناء الشعوب التى تأخذ الامور مأخذ الجد نفهم ان الاقتناع معناه اخلاص الانسان بينـه وبين نفسه . ولكن الاخلاص للنفس شيء ليس له كبير معنى عنـد الامم الشرقية ، فاليقين الصادق والادعاء نقيضان في عرفنا لا يقبلان التوفيق ، أما فى الشرق فالمنافذ الخفية والسراديب الملتفة التى تصل بين هذين النقيضين كثيرة لا تحصر . وكم من رجل من أرفع الناس نفوسا كأصحاب الاسفار الدينية الضعيفة السند ـ ولنذكر منهم مثلا دانيال وأخنوخ ـ قد اقترفوا بغير حرج من ضمائرهم أعمالا قصدوا بها تأييد دعوتهم لا يسعنا نحن الآن نسميها افتراء ؟؟ فالتدقيق فى الصدق الحرفى خصلة قليلة القيمة جداً فى نظر الشرقي ، وهو مفطور على أن ينظر الى كل شيء من خلال خواطره ومصالحه وخوالج نفسه »

واذا كان هذا رأى مؤرخ بعيد عن الشبهات السياسية كرينان فالحق أن نورثكليف وغيره من سماسرة السياسة لهم العذر الواضح اذاهم خلطوا بين الحقائق والاهواء وعبثوا بحرمة التواريخ والوقائع الملموسة واقترفوا بغير حرج من ضمائرهم أعمالا قصدوا بها تأييد دعوتهم لا يسعنا نحن الا

أن نسميها افتراء ! !

وعلى أنه ان كان لا بد من فضل للمدنيـة الغربية على غاندى فانه فضلها اذ علمته كيف يشمئز منها ويحتقر أباطيلها وما يستوعب نفوس أبنائها وعقولهم من صغائرها وشهواتها . وهذا وايم الله فضل ليس بالقليل . وما فتئ النبي الهندي يشكره لها الشكر الجدير به

المتأنقون

فى التاريخ حوادث عظام لا تعـد ، أحدثها رجال على حالات مختلفة من الاخلاق والمواهب ولكن لم يكتب لاحد من المتأنقين أن تجرى حادثة منها على يديه ولا أتيح لاحدهم أن يكون ذا قوة منشئة أو أثر دافع فى تاريخ عصره ، وقد يصل منهم من يصل الى مقاوم الرفعة والنفوذ بفضل النسب والحسب أو بفضل المال أو الصدف ولكنه يظل بعد وصوله الى تلك المقاوم ذلك العاجز الحصر الخابى النفس والعقل الميئوس من همته واجتهاده . وتراه فى دست الاحكام كما تراه فى مجلس المـدام : انسانا مستظرف المحضر ، ان كان به ظرف ، والا فمشجب حي عليه من أدوات الزينة ما كان قبل هنيهة على مشاجب أخرى من الخشب والحديد

وفى تاريخ الكياسة والتأنق والادب مثلان واضحان على هذا العجز الذى يبدو عند التصدى لعظائم الامور وجسام الاعمال ممن جعلوا همهم فى الحياة التأنق واللباقة واتخذوهما وظيفة فى الدنيا ينصبون لها ويزدهون بها ، أحد هذين المثلين عصرى والآخر أقدم منه بنحو قرنين

فأما الاول فهو « دى شانل » الاديب السياسى الكيس الذى ارتقى الى رئاسة الجمهورية فى فرنسا بعد بوانكاريه . كان هذا الرجل كاتبا بارع الانشاء مصقول العبارة وسياسيا يسمع له رأى فى دوائر الاحزاب ، وكان متأنقا جد التأنق تتوجه اليه الانظار ويقتدي به أنداده في هندامه وآدابه ، فلما صعد أو صعدت به الظروف الى دست الرئاسة ظنوا به خيرا

وانتظروا منه الشيء الكثير ، ولكنه لم يوفق لسوء حظه الى تصديق ظنونهم وارضاء تشوفهم ولم تمض عليه هنيهة حتى ظهر عليه ضعف العقل الذى كان مكنونا فيه قبل ذلك ، والذى هو من طبيعة هذه الامزجة المشغولة بالاناقة والمظاهر

أما الآخر فهو لورد شسترفيلد الذى يعرفه كل دارس لآداب الانجليزية،صاحب الرسائل البديعة التى خط بها لولده دستور الكياسة والظرف ، فجاءت طرفة من طرف البلاغة وآية فى جمال اللفظ والاسلوب ، وُلد هذا الاديب فى بيت من بيوت المجد والغنى وتثقف عقله كاحسن ما تثقف العقول فى عصره ، ووصل الى مجلس النواب فحسب عارفوه ممن كانوا يلتفون به ويكبرون لباقته فى الاندية ومجالس السمر أنه سيشرق على المجلس نجما ساطعاً وسيرقى منه الى أرفع منزلة فى المملكة بجده واناقته وحسن تخريجه للامور !! فما كان الا أن خيب فيه كل أمل ولم يسمع له صوت يذكر في المجلس ، وقد لزم الصمت في دور نيابته ، وكان خطيباً مقبولا ، لسبب مضحك مزر لكنه ملائم لطبيعة مزاجه . ذلك أنه كان بين الاعضاء رجل هزأة يحسن محاكاة الخطباء في حركاتهم وجرس أصواتهم ولهجاتهم ، وكان اذا خطب الخطيب قام فرد عليه بصوت كصوته ولهجة كلهجته وايماء كايمائه فيعرضه للضحك والسخرية أحياناً ويتغلب على سخريته الاعضاء الاقوياء كثيرا ...

فمن هذا الرجل خاف لوردشسترفيلد وقبع فى المجلس لا يتكلم . فكان هذا السكوت منه خوفاً من الضحك ، كتلك العناية الدقيقة التى يعنى بها فى انتقاء كل قطعة من ملابسه لئلا تعاب أو لا يستحسنها الناظرون

ليس بعجيب أن يخفق أمثال دى شانل وشسترفيلد فى عالم الجهاد

السياسى أو يظهر منهما ضعف العقل عند المعمعة . اذ ماهى طبيعة التأنق
فى لبابها ؟ ؟ أليست هى أن يعيش الانسان عنـد ما يستحسنه الناس منه
ويلفت أنظارهم اليه ؟؟ فالمعقول فى هـذه الحالة أن لا تكون للمشغولين
بالتأنق تلك القوة الدافعة المتجبرة التى لا تحفل باراء الناس ولا يكرثها
رضاهم وغضبهم ولا يصدها عن طريقها استحسانهم واستهجانهم،والمعقول
أن لا يكون منهم زعماء فاتحون لعهود جديدة أو معتسفون أطوارا كانت
مجهولة ، لان الزعامة لا تتم بغير تلك القـوة الدافعة ، فلا جرم يكون محل
المتأنقين في السياسة اذا ولجوا بابها محلا خاملا لا يؤبه له . نعم ان التأنق
يستدعي بعض الغرابة للفت الانظار فيخيـل اليك ان أصحابه على نصيب
من الجراءة ، ولكنها جراءة كاذبة وغرابة مرجعها الى مايرضى الناس ويبهرهم
ويروقهم . فهى منوطة بهم وموليه اليهم

ان التيار الجارف هو الذي يشتق لنفسه طريقه ويقذف فيه بأمواجه
أما الماء الفاتر فلا محيص له عن الوقوف عنـد الشطوط يدور معـها
وينحصر في نطاقها ، ومهما ظهر لك من مظاهر المتأنقين وقيامهم بما يغضب
الناس منهم أحيانا وصبرهم على المخالفة فى بعض المعضلات فلا يغرك هذا
من أخلاقهـم وأذواقهم فانما أساسها كلها فقدان تلك القوة الدافعة التى
يقدم بها المرء على اقتحام العقبات ، وقرارها كلها ذلك الماء الفاتر فى طباعهم
الذى يقف بهم أبدا عند الشطوط

والمتأنقون لأجل هذا كانوا أقل الناس صلاحية لقيادة الامم ولا سيما
فى عهد النهضات القومية . لان النهضة تحتاج فى كل عصر الى المجددين
المقتحمين لا الى الفاترين المتدللين ، وتريد النفوس الطامحة القلقة ، ولا تريد
النفوس الوادعة المترفقة . وليس من قوانين النهضات التوفيق بين الانسانية

وبين مايجده من ميسور حاله ، وانما قوانينها أن يتمرد الانسان على حاضره شوقا الى ما يرجوه من مآله .

ولعلماء الجرائم الذين ليس أمامهم مثل للشذوذ ومخالفة البيئة غير أمثلة المجرمين وحثالة الناس أن يعتبروا الملاءمة بين المرء وبين بيئته نموذجاً لما ينبغي أن تكون عليه آداب الفرد في الجماعة ، ومثالا للحياة المستوية السليمة ، ذلك لانهم يطلبون سلامة المجتمع ويحرصون على أن تجرى الامور فى مجراها ويحسبون ذلك غاية الامم التى لاتنزع الى أبعد منها ، وقسطاس الشرائع والانظمة الذى لا يقبل التغيير والتحول . لكنهم يظلمون العلم ، ويظلمون أنفسهم ، ويظلمون الحياة اذا جعلوا الملاءمة بينها وبين البيئة التى هي فيها قانونها الاسمى أو حسبوا هذه الملاءمة طبيعة عنصرها والمحرك الاول لها . فانما قانون الحياة الاسمى وعنصرها الاصيل قائمان على الشذوذ لا على مشابهة البيئة ، وأول ما نشأت الحياة كانت شذوذاً مخالفا لما حولها ، وكذلك أول كل ارتقاء فيها كان اختلافا مباينا لسنة البيئة وثورة قائمة على النظام المألوف فى الطبيعة ، فكلما كان الانسان أقرب الى الحياة وأبعد عن الآلة الميتة كان شوقه الى التجديد والاقتحام أشد وأقوى ، وكلما كان أعمق مستقى من ينبوع الحياة وأوفر نصيبا من دفعة تيارها كان الاختلاف بينه وبين عامة الاحياء كبيرا بعيدا ، والاندفاع فيه الى التغيير ملحا شديدا ، تلك سنة الحياة منذ نشأت وتلك هى الروح الالهية التى تستفزها الى طلب الكمال وتحثها أبدا على التوغل فى أسرار الوجود والتزيد من حظوظه وأفراح فتوحاته . ولولا هذه الروح لركدت الحياة وأسن ماؤها وانعزلت فى بؤرة حاضرها عن المجرى المطرد بين الماضى والمستقبل ، ولولاها لكانت الحياة كالتربة القاحلة تلقي فيها الحبة فتأخذها كما ألقيتها حبة واحدة لا تزيد

ولا تتغير ، اللهم الا أن تكون زيادتها وضرا ورجسا، وأن يكون تغيرها تعفنا ويبسا ، وانما وظيفة الحياة أن تعطي أضعاف ما تأخذ وأن تكون فى داخلها أكبر مما يحيط بها من خارجها . لا أن تجعل ما تعطيه على قدر ما تأخذه ولا أن تكون هى وما يحيط بها على حال سواء

أليس من الغريب اذن أن يكون الوادع المتأنق الذى لا يشغله من الدنيا الا الرضى من نفسه ومن غيره ، قائدا للامم فى نهضاتها وقدوة لها فى ابان انطلاق آمالها و نشاط حياتها ؟؟

بلى والله انه لغريب طريف ، وأنه لبدع فى التأنق ولكنه غير جميل ولا ظريف ! !

تقدير الشيخ على يوسف

لايقنعنى بان الصحافة المصرية لم تجاوز بعد سن الحداثة مثل آفتين مما تبتلى به كل صحيفة : أحدهما مماطلة المشتركين والثانى اعارة الصحف والمجلات .

وكثيراً ما سأل الصحفيون : ما بال الصحافة المصرية مبتلاة بداء المطل من مشتركيها حتى لاتكاد تظهر صحيفة الا صادفها من ذلك عقبات تقضى عليها أو تلجئها الى غير مواردها ؟؟

ولا علة لذلك سوى أن الصحافة لم تدخل بعد فى عداد الضروريات فى حساب المصرى ، وانه لاينتظرها كما ينتظر الرجل شيئا لازماً لا غنى عنه ، ولا يتعقب آراءها تعقب من يعتقد أن لتلك الآراء مساساً به ودخلا فى حياته .

تبلغ الصحافة هذه المنزلة فى « البلاد الاجتماعية » وأريد بالبلد الاجتماعى ما تتكون فيه جامعة قومية محسوسة تربط بين سكانه بصلة من التضامن فى الشعور والمرافق العامة ، وليس المصريين هذه الجامعة اليوم ، ويكاد لايدور لها خيال فى أذهان الكافة من ابناء هذه الديار . فانهم لا يزالون يرددون اسم المصرى ويقصدون به المولود فى مدينة القاهرة ، وليس عندهم الى اليوم كلمة للقومية المصرية اللهم الا ماتلقفه بعضهم أخيرا من مستحدثات الكتابة ، وما هم بالكثيرين

نشرت فى يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٣ باحدى الصحف الاسبوعية

أما فى الاوطان الاجتماعية فالصلة بين أهلها أقرب من ذلك ، هناك يترقب القارئ الصحيفة كما يترقب الرسائل الشخصية ويرى فى كل خبر رسالة من الامة اليه أو منه الى الامة . فلا يخطر لمثل هذا القارئ أن يماطل الصحيفة فى أجرها ، ولا يستحسن احد أن يستعير منه صحيفة ليقرأها كما يفعلون هنا ، لان الناس يخجلون من استعارة الشئ الضرورى الذى يعتقدون انه لازم لكل فرد من الناس

ليست المماطلة من طبيعة المصرى ، ولا الاستعارة من ديدنه ، فأننا لا نسمع بالمماطلة فى ثمن الخبز الا نادراً ، ولانراهم يستعيرون الملابس مثلا ، الا أن تكون محلاة أو نادرة (وذلك فى القرى التى تعد الحلى من قبيل الزينة الكمالية) . ولكن النفوس مجبولة على أن لا تحسب حسابا لغير ما يلزمها . والمصرى اليوم لايحس الحاجة الماسة الى الصحافة ، فلا جرم نراه يسقطها من حسابه ولا يفرد من دخله قدراً يدفعه الى الصحيفة متى طالبته بحقها عليه

نقول ذلك بمناسبة موت ذلك الصحفي الذى قال بعضهم فى رثائه انه كبر بالصحافة ، وانه استمد نفوذه منها ، لنقول ان الصحافة المصرية ليست من القوة بحيث تكسب صاحبها نفوذاً صحفياً كالذى يكسبه بأقلامهم كتاب الافرنج . وانه على كون الصحافة الافرنجية لاتنهي ولا تأمر ، ولا تنصح ولا تزجر ، فالكاتب فيها اكبر شأناً من الوجهة الصحفية من كاتبنا الذي لا يعول فى الصحافة على غير قلمه

ليس الشيخ على يوسف صحفياً كبيراً . كلا ولا هو بالرجل الكبير . وان كنا لا ننسى انه ولد خاملا فمات شهيراً . ونشأ نشأته الاولى متربا ثم قضى نحبه مسموع الكلمة وجيهاً .

ولكن هل ذلك حسب الرجل من حياته ؟؟ أوليس على المرء الا أن يسمى الينجح فيذكر اسمه على كل لسان ثم لا يسوغ لاحد بعد ذلك أن يذكره بغير المدح والتبجيل ؟

ذلك ما لا يقوله قائل . فأنما للنجاح وسائل كثيرة واكثر من وسائله غاياته . وقد ينجح الرجل فلا يكون له حظ من العظمة غير اسمها وزيها . وينجح غيره أقل من نجاحه فيكون نجاحه عرضاً غير مقصود لذاته وكانه يخرج لما يمتلئ به صدره من الرغبة فى النفع وكراهة النقص وحب الكمال

كنا ليلة دفن الشيخ على يوسف فى مجلس مع بعض الاصدقاء فقال واحد منا : اليوم يحزن فلان وفلان ، وعدد أسماء جماعة ممن كان الشيخ على سبباً فى إيصال النفع اليهم ، وتمهيد سبيل الوظائف لهم . قلت بل اليوم فليفرح هؤلاء لانهم لا يدينون للشيخ بالحب والاخلاص ولكنهم يدينون له بربا ذلك النفع ، وقد استراحوا اليوم من الغريم الذى كان يستأديهم ذلك الربا . وما مساعدة هؤلاء الناس لاصحابهم الا كمقارضة المقامرين . يقرض أحدهم زميله ليسترد ماله وقرضه قبل أن يبرح مكانه ، فلا بدع أن كان احدهم يفرج عنه بعد صاحبه كما يفرج عنه بعد الغريم الملحاف

قال بعض الجالسين : لكانك سمعت معى ما قاله أحد اصدقاء الشيخ الاقربين ، فقد سمعته يعجب لنفسه كيف لم يغتم لوفاة رجل كان موضع سره . وشريكا له فى اكثر مساعيه ، ويقول انه على جلده لفراق الاصحاب وصبره على كوارث الموت ، ما كان يحسب أن يقابل موت ذلك الصديق بمثل هذا الفتور

وقال : لقد حضرت اليوم الجنازة فرأيت فلانا يتأبط ذراع بعض اخوانه وهما يتغامزان ويضحكان ، وكنت أتوقع أن أراه فى ذلك المشهد

باكيا أو خاشعا ـ أما فلان هذا الذى رآه محدثنا فرجل جرى له على يد الشيخ رزق لا يقل عن خمسين جنيها فى الشهر

ولا عجب فى هذا الكنود ، فان الناس يحبون من ينفعهم اذا كان بره بهم صادرا عن حب لهم ، أما ان كان لغير ذلك فهم يقبلون بره ويحافظون على ظاهر الود له ليستزيدوه منه ، ولكنهم لا يحفظون له جميلا ، اذ كانوا يعلمون أن جدواه عائدة عليه قبل أن تعود عليهم

فالشيخ على قد أفاد بعض الناس ولكنها فائدة لا تنتمى الى عاطفة من حب الخير ، فلم يفجع الموت فيه صديقا مخلصا ، ولم يقم له من أسدى اليهم البر بحق الوفاء . وفرق بين هذه الحالة وحالة العظماء الذين يخرجون من الدنيا وما تركوا فيها صديقا يبكيهم . لان الناس ربما جهلوا اقدار أولئك العظماء فلم يفهموهم ولم يحزنوا لفقدهم ، وأما هؤلاء فليس جمود الناس عن بكائهم الا لانهم قد فهموهم حق الفهم

ولقد أراد أكثر من كتبوا عن الشيخ على يوسف أن يستدلوا بوصوله الى منزلة يضر بها وينفع على نبوغ عظيم فيه ، وهذا جهل عظيم بمعنى النبوغ ، فما يليق بهذه الهبة السماوية وهى ثمرة الانسانية جمعاء وبنت الخلود بأسره أن تقاس بمقياس المهارة فى الوساطة عند فئة من الناس فى فترة من الزمن ، ومن شاء فلينظر الى أضراب الشيخ على ممن وصلوا معه الي مثل منزلته يجد بينهم من ليس له في النبوغ اقل دعوى ، ومن ليس هو من رجال الادب ولا من رجال العلم او العمل ، ومن لم يفكر قط فى ان يكون واحدا من هؤلاء . ولكنه مع هذا ينفع ويضر ، والناس يزدرونه وان كانوا يرجون منه ويخشون

انما يعين هؤلاء على النجاح نشأة نشؤها لم تجعل لمبادىء الكرامة سلطانا

على عقولهم ، فخف على اقدامهم وقر الدم ، فنهضوا ، وهذه سير العظماء الاجلاء تراجعها وننعم النظر فيهافترى ان اصعب ما كانوا يعانونه من العراقيل والعقبات انما هو ما ارصدته لهم ضمائرهم واقامته امامهم وجداناتهم ، لا ما يقيمه فى طريقهم اعداؤهم ومنافسوهم . ولذلك يقل بين ذوى الخصال الكريمة والسجايا النفسية العالية من ينجح فى هذه السبيل نجاح أناس هم دونهم ذكاء وقدرة واخلاقا

ولا ننكر على الشيخ علىّ ذكاءه واستنارته . لكنه ذكاء رخيص المعدن ونور مختلس كالمصباح الذى يحمله المدلج المتسلل فى الظلام . فليس هو من النبوغ المشرق ولا مما يلحق بسموّ اللب وسعة الذهن . وعندى انه اشبه بالحذق فى حرفة من حرف الكسب ، وأقرب الى السر المحتكر الذى يحتفظ به صاحبه منه الى المواهب المباحة التى يشرك فيها غيره ، وهناك نسبة بين هذا النوع من الذكاء وتلك الحيلة التى يبثها الله فى طباع مخلوقاته لتستعين بها على مراوغة أعدائها والأمن على حياتها

لو كان الرجل سامى اللب واسع الذهن لكان تقديره للعظمة اسمى وأكبر من تلك الغاية التى نصبها غرضا له فى حياته ، وبذل كل ما يعز على النفس بذله لاجل دركها

ولو أن الشيخ على جدد سيرته هذه الايام لما قدر على أن يعيدها كما بدأها ، ولما كان مستطيعا أن ينال من السمعة مثل ما ناله بين أرباب الاقلام ، أو قريباً منه

أصدر الرجل جريدة الآداب فى أول نشأته ، وكان كل من يكتب من أبناء مصر يومئذ كاتباً كبيراً . لانه لم يكن ثمة من هو أصغر منه ، وكان الادب لذلك العهد فى حضيض من الضعف والتدلى يقرب من الموت .

فلا كتاب فى البلد ولا شعراء ، ولا تصنيف فيها ولا قراء . ولم تكن المطابع قد أخرجت دقائق الأدب العربي القديم فيتخذها الناس معيارا يقيسون عليه مقدرة الادباء اذا أعوزهم المثـل من كتاب عصرهم وأدبائه . فكان الذوق الادبى ممتلا والحاجة الى الكتاب شديدة . وفى ذلك العهد كتب الشيخ على يوسف فاستحق التفات رياض باشا ، وفتح له ذلك الالتفات باب الامل ، فلم يقصر فى السعى الى غايته

وكان الشيخ على يقرض الشعر ليمدح به السراة والاغنياء ، فلما حصل من الكتابة على ما يزهده فى طرق هـذه الابواب رأى انه استغنى عن الشعر ولم تمد به حاجة اليه ، فتركه ومضي فى الكتابة ، وكانما صارت هذه له حرفة رابحة بديلا من تلك الحرفة الكاسدة ، لا أكثر ولا أقل ، فأصبح بعد مزاولتها عشرين عاما اخصائيا فى الباب الذى اختاره من الكتابة الصحفية . اذ تخطاه زلت به القدم .

وقد عنف بعضهم عليه فى حياته لانتقاضه على رياض باشا ، وقالوا : لقد رأينا الرجل أياما لم يبق أحد من أصحاب الايادى الا أحسن اليه ثم رأيناه أياما لم يبق فيمن أحسنوا اليه أحد الا قد أساء اليه بقلمه أو بكيده . ونحن لا يهمنا نكرانه جميل هذا الانسان أو ذاك ، ولكننا نعيب عليه هذه الخلة . ثم نحن نرى له بعض العذر فى الارتداد على فريق ممن أسلفوا له الخير ، لانهم ساعدوه وهو فقير خامل فلما أصبح من أهل الرتب والوجاهة أبوا ان ينسوا خموله وفقره وظلوا يرون فيه ذلك المجاور القديم الذى كانوا يعرفونه من قبل . وأبى هو أن ينسى مكانته الجديدة التى جاهد لها ذلك الجهاد كله ، فقلب لهم ظهر المجن ، وكانوا فى امتنانهم عليه أحق باللوم منه فى جحوده لاياديهم عنده

وانى ليشق على ان لا أجدله عذرامن نقيصة غير هـذه ، وأن لا أرانى قادرا على ان أنعته بتلك النعوت التى جمع فيهامؤبنوه كل مزية من المزايا الموزعة بين كبار رجال العالم ، يفعلون ذلك وهم لا يؤمنون بصـدق ما يكتبون ، ولماذا ؟ ؟ لان الرجل ليس بحي اليوم ، فهل حقيقة أمس وغد تتغير اليوم ؟؟ وهل يسوى الموت بين جميع الاعمال ؟ ؟أما أنا فلست أعلم كيف يمحو الموت السيئات ويكبر الحسنات . ولا لاى شيء ندع الحكم للتاريخ البعيد الذى يجهل الرجل ونحن أقدر على أن نرى الحقيقة كما هى عن كثب ، وعلينا قبل غيرنا واجب الصدق فى تأبينه وتقديره

ألا ان أحق موقف بأن تقيد فيه السيئة الى جانب الحسنة هو موقف الرثاء . واولى الاوقات بان تتمثل فيه عبرة الحياة هو الوقت الذى تنتهى فيه الحياة . وذلك أمر هدى اليه الناس منذ فقهوا معنى الثواب والعقاب ، الم تكن عقيدة الحساب بعد الدفن من أوليات العقائد التى تخيلها الناس فى أقدم الاديان الوثنية ؟ ؟ فلو تغاضينا عن النقائص والمعائب لبطلت حكمة الذكر ولحق الخبيث بالطيب . وما كان التساهل فى النقد والمؤاخذة محمودا فى وقت من الاوقات ، فكيف به فى وقت طمس معالم الضمائر وضلل الابصار والبصائر — فحسبنا هذا ولا يبلغن من فساد وقتنا أن يغنم فيه المرء غفلة الفضيلة حيا وميتا

وغاية ما يقال ان الشيخ على يوسف جـد في حياته وراء مآرب تستهوى امثاله فاستطاع قضاءها . ولم يستطع أن يكون عظيما حتى فى قلوب أشياعه واتباعه

البخيل (١)

كان في من أعرف من الناس رجل لا يعرف الناسُ أبخل منه . كان هذا الرجل اذا اشتهت نفسه الشيء مما تشتهيه الأنفس من طيبات المأكل والملبس أخرج القرش من كيسه فنظر اليه نظرة العاشق المدنف الى معشوقه ثم رده الى الكيس وقال : هذا القرش لوأضيف اليه تسعة وتسعون مثله لصار جنيها ، والجنيه بعد الجنيه يجلب الثروة العريضة ويجمع المال الحير (٢) وهبني تهاونت بانفاقه اليوم وسمحت نفسي به فلا آمن أن تسخو بغيره غداً . فانما القروش كلها واحدة في القيمة وليس قرش بأغلى من قرش . والشهوات حاضرة في كل وقت ، فكأنني انفقت اليوم بانفاق هذا القرش جميع ماسوف أملكه وأدخره من المال . وفتحت على نفسي باب الفاقة الدائمة والعوز المستمر مطاوعة لشهوة حمقاء ، ان أنا وقمتها (٣) الآن ماتت واسترحت منها وان آتيتها على ماتدعوني اليه كل ساعة كنت كمن يرمى الوقود في النار ليخمدها ، وكنت كمن يشتهى الفقر ويتمنى الاعدام ، وتلك والله الحماقة بعينها

وكان اذا تم عنده الجنيه على هذه الكيفية أسقطه في صندوق ثقب له ثقبا في غطائه ، ولم يجعل له مفتاحا لئلا يتعود الفتح والاقفال ، ويجرأ على ذلك الذخر بالكشف والابتذال ، وخوفا من أن تراوده نفسه لفرط

---

(١) من مقالات الشذور التي طبعت سنة ١٩١٥

(٢) مال حير أى كثير جدا

(٣) ردعتها

شغفة بالذهب على مس جنيه من تلك الجنيهات فيجر المس الى التحريك ويجر التحريك الى الأخذ فالاخراج فالصرف ، وهناك الطامة العظمى والداهية الشؤمى ، ويقول ان سلما أنت واقف على قمته حرى أن تصل يوما ما الى أسفله . ومالك أن لا تغلق الشر من بابه وترقع الفتق من أوله وتتلافى الامر فى بدايته قبل أن تتعذر عليك نهايته ! ! وكان يرى الفقر من بعيد فيظنه أدني اليه من حبل الوريد . فالفقر عنده محيط بكل مكان ، شامل لكل زمان ، ومادام فى الارض درهم فهو فقير اليه ومادام فقيرا فالاطمئنان محال عليه

ولقد ألفنا أن نسمي البخلاء عبيد الذهب . وكان الأصواب أن نسميهم عبيد الفقر لانهم يضحون الذهب للفقر . وهم يحبون الفقر ويخشونه . يحبونه فيعيشون عيشة المعدمين والبؤساء ، مع تمكنهم من الثراء ويخشونه فيتقونه ، وعندهم له من كل دينار وقاء

فاذا سقط الجنيه فى ذلك الصندوق . . . . لا بل فى تلك الحفرة ، كانت تلك السقطة آخر عهده بالهواء والنور ، وآخر عهده بالهبات والبيوع ، وآخر عهده بالأنامل والكفوف ، وهوى من ذلك الصندوق فى منجم كالمنجم الذى كان فيه . وشتان المهد واللحد . ومات ميتة لا تنشره منها الا يد الوارث ان شاء الله . وقد فعل

ولو أتيح لتلك الجنيهات أن تتحادث فى ذلك السجن المطبق عن ماضيها كما يفعل السجناء ، اذن لسمعت من أحاديثها العجب العجاب . فبين جنيه رحالة جواب ، يتنقل بك من السويد الى الكاب ، وينبؤك عن الاعاجم تارة وتارة عن الاعراب . وجنيه فرار غدار ، ما سلم بالليل الا ودع بالنهار ، وجنيه نشأ فى الحانات والمواخير ، فاسترق رنته من رنات

الكؤوس والقوارير . وجنيه عاشر الابرياء والجناة ، ورافق النساك والغواة ، وجاور المعوزين والسراة ، ومر بالمساكين والعتاة ، وطفر من الاصدقاء الى الاصدقاء ، ومن العداة الى العداة . وكلها تشهد شهادة لابهتان فيها أن مالكها الاخير أقدر من قنص الدينار ؛ من الابرار والفجار ؛ وأخبر من صاد النضار ، من الشطار والاحبار ، وأول من راض هذا المعدن السيار ، على السكينة والقرار

ولو أتيح لك أن تشهد ذلك البخيل وقد مثل عند صندوقه وألجأته الضرورة الى الاستمداد منه — وناهيك بها من ضرورة — اذن لحسبت انك تشهد فى جنح الليل الأعكر سارقا ينبش القبور عن أكفانها ، وقد تملكه الهلع من حراسها وسكانها ، أو لحسبت انك تشهد كاهنا متحنثا يقوم عند صندوق النذور يهم بأن يمد يده اليه فيتحرج من أن يستحل ودائعه لئلا يحل عليه قصاص الله ويحيق به غضبه ، فان الحت عليه الحاجة أقسم أن لن ينام ولن يهدأ أو يرد الى الصندوق ما استعاره منه . وقد لاتجد بين ألف كاهن كاهناً واحدا يقسم هذا القسم ويبر به ، ولكنك لا تجد بين الف بخيل بخيلا واحدا يحنث فى هذه اليمين

ففى وقفة من تلكم الوقفات اقترض البخيل من صندوقه جنيها وآلى بالطلاق من عرسه أن لايدخل البيت الا والجنيه معه . وذهب الى السوق فكدح فيها ما كدح واحتال حتى استرجع الجنيه نصفا ذهبا والنصف الباقى قطعا فضية . وكانت تلك عادته اذا أبدل الفضة بالذهب . كى تكون كل قطعة صحيحة صماما حديديا يحبس فيها ماتحتويه من القطع الصغيرة أن تتناثر وتتسرب الى احداها نزغات الجود ووساوس النفس الامارة بالجميل ، والخبيث يسيء الظن بنفسه ويتهمها بالسخاء عن القليل الطفيف مداعبة لها

وادلالا عليها . والا فقد وثق وثوق المؤمن بايمانه انه لو انثالت (١) عليه نقود المشرقين والمغربين دراهم ودوانق وسحاتيت لما سولت له نفسه أن ينفق سحتوتا منها فى غير مايدفع التلف جوعا والهلاك عريا فما تمهل حين صار الجنيه فى يده الا ريث أن اهرع الى الصيرفى فناوله اياه مفرقا وقال أعطنى به جنيها ذهبا

قال له الصيرفى : هات خمسة ملليمات

قال البخيل : وعلام هذه الملليمات الخمسة : انك تأخذ هذا الجعل من الناس على أن تنقدهم الفضة بدل الذهب . وأنا أعطيك فضة وأطلب ذهبا أفلا تحمد الله على انى صفحت لك عن حقى وجئتك ساعياً الى مكانك ؟ ؟

فما زاد الصيرفى على أن وكزه فى صدره وكزة قذفت به الى الجانب الآخر من الطريق . فما تململ الرجل ولا تأفف . بل وقف حيث قذفت به الوكزة صامتا والصيرفى لا يشك فى انه ينتظر أن يمر الشرطى فيستعديه عليه . فمر شرطى وثان وثالث لايدعوهم ولا يبرح مكانه . والناس يظنون انه يحدث نفسه بالانقضاض على الصيرفى فيوسعه ضرباً ولكماً فيخطئونه ويلومونه وينصحون له بأن يعتذر اليه ويسترضيه وبينا هو كذلك اذ أقبل على الصيرفى شيخ ريفى ، فكذب البخيل كل ظن وعاجل الشيخ فكان أسبق من يده الى جيبه وصاح به : رويدك ياهذا . انك تريد أن تبدل جنيها وهذا اليهودى يتقاضاك خمسة ملليمات ، وأنا أقنع منك بمليمين ، فهاك الفضة وهات الذهب . والتفت الى الصيرفى فقال بارك الله فيك ، فقد قيضت لنا رزقا كنا فى غفلة عنه ولا يزال هذا دأبنا كلما اجتمع جنيه عندنا ثم ولى والصيرفى يكاد ينشق عن جلده من الغيظ والناس يضحكون

---

(١) انهالت

وكأنى بك أيها القارىء تظن أن الرجل آلى بالطلاق وحرص على أن لايمين فيه وفاء لزوجه وضناً بذات فراشه واحتفاظاً بأم بنيه، فاياك أن تظلم الرجل بهذا الظن . ان الاحتفاظ والضن بشىء غير المال ضعف يربأ بنفسه عنه . ولكنه تحرى أفدح الايمان كفارة وأصعبها كلفة ، فرأى أن كفارة الحلف بالله سهلة وربما كان فى الصيام من الاقتصاد مايغريه بالحنث كلما أقسم بالله . فاختار يمين الطلاق يهدد نفسه به ويخوفها من مؤخر الصداق ومؤونة الاولاد ومصاريف القضايا ثم لابد له من زوجة تكفيه نفقة الخادم وشراء الطعام من السوق وهذه الزوجة لابد لها من مهر قل أو كثر ، دع عنك الاعراس وماتستدعيه من الخروج عن العادة فى الانفاق ليلة أو ليلتين . فاذا آلى بالطلاق ذكر كل ذلك وأكثر منه فكان قيدا لا يستطيع منه فكاكا . ولايفوته مع هذا أن يصانع نفسه بأنه من القابضين على دينهم الذين يجتنبون حدود الله ولايلعبون بيمين كيمين الطلاق . والحقيقة انه لايجتنب حدود الله الا لان اجتنابها يوافق هواه . ولو كلفه خوف الطلاق معشار مايصون من ماله لجار عن كل حد لله وللخلق . وعلى انه لم يضطر يوما الى امتحان دينه ولم يقف بين ارتضاء الطلاق وجرائره وانتهاك حدود الله وأوامره . لأنه لم يكذب على صندوقه مرة . فاذا استعار منه فى فى الصباح سدد له الحساب فى المساء

ومرض هذا البخيل مرض الموت فجزع جزعا شديدا ، وكان جزعه لانه سيموت عن أقل من عشرة آلاف جنيه كاملة ، وكان ذلك كل أربه من الحياة . واستحضر الطبيب بعد أن نهكته العلة ودب السقم فى أوصاله وعظامه ، فأمره أن يتعاطى دواء وأن يقصر طعامه على لحم الطيور . وكان صاحبنا على مذهب النباتيين اقتصادا لا فلسفة . فتملص يحايل الداء ويتملق

الطبيب عسى أن يعدل عن وصفته ، والداء يأبي الا لحوم الطير والطبيب مصر على رأيه . ولما كان أربه فى العيش لم ينته والعشرة الآلاف لم تكمل فقد رضى أهون الشرين وأصاخ لقول الطبيب وصار يأكل كما أمره وهو يتلهف ويتغصص ويتبع كل لقمة يزدردها بعملية حساب . . . . وهل أصعب فى الهضم من الحساب وأثقل على المعدة من الارقام الصماء ؟؟ ولم يزل يقول بعد كل أكلة : الله الله على الصحة !! لو كنت الآن صحيحا أما كانت تكفيني أكلة بدرهم !! فلم يسعفه الدواء ولم يمرأه الغذاء . وماذاك الا لأن الطبيب داواه بالطب الذى يداوى به الناس ووصف له ما كان يصفه لكل مريض مصاب بمثل مرضه ، ونسى انه يداوى دائين لا داء واحدا ، وفاته ان دائين أحدهما مزمن والآخر طارىء لا يصلحان بفرد دواء ، ولو سمعه كيف كان يأسف على الصحة ولماذا كان يأسف عليها لعلم أن صحة هذه البنية غير صحة سائر البنى وأن لها مرضا غير أمراضها ، وان الغذاء الذى ظن انه يشفيه ويقويه قد حز من بدنه وأضاف مرضا على مرضه . فقد مات المسكين بدائه ذاك ، وما أحسبه ندم على شىء وهو يفارق هذه الدنيا ندمه على تلك الدراهم التى أطاع فيها الطبيب جزافا . وماذا عليه لو قد عصاه فلم يفقد سوى حياته ؟ ؟ ! !

ولهذا البخيل نوادر عديدة يذكرها معارفه ، فكان لا ينقضي له يوم الا على نادرة ظريفة مع بائع أو زميل أو شريك أو مدين ، وكنت أستظرفه فأتودد اليه وأشايعه على مذهبه فلا اقتصد فى اطراء الاقتصاد ولا أبخل بكلمة فى مدح البخل ، واذا طارحته الادب أو طالعت معه فى الكتب لم يكن أحقر على لساني من اسماء هرم بن سنان وحاتم طىء وكعب بن مامة ومعن بن زائدة وأبي دلف وغيرهم من أجواد العرب ، فأشنع بهم وأسأل

الله السلامة من مثل مصيبتهم فى عقولهم وأموالهم ، وأقول : ما أجدرمادرا؛ بتمثال من الذهب ! ! فيقول أى وأبى ! لولا مافى ذلك من الاسراف

ولشد ما كان يتهلل وجهه حين أتلو عليه نكبة البرامكه . فيقول حيا الله الرشيد ماأحكمه وأحزمه ، وقبحهم الله ماأخرقهم وأحمقهم . بادواوخلفوا وراءهم للناس مثلا سيئاً وقدوة ذميمة . وكانت له فى أسباب نكبتهم فلسفة خاصة لم يفتح الله بها على أحد قبله . يقول لك لا تصدق مايتمشدق به كذبة المؤرخين عن أسباب نكبة البرامكة . فوالله . مانكبهم ولا قتلهم الا الاسراف والتبذير . أسرفوا فى البذخ وبذروا أموالهم فى الصلات. فحسدهم الموصول وسخط عليهم المحروم ، فترصدت لهم العيون وتوغرت عليهم الصدور واستعظم الرشيد عليهم ماهم فيه فمثل بهم ذلك التمثيل وفجعهم فى أرواحهم وأموالهم وآمالهم فلم يغن عنهم صنائعهم وذووهم . ولو أنهم بخلوا لنامت عنهم الأنظار وخرست عنهم الافواه ، لان من نعم الله على البخلاء انه يجمع لهم بين مزيتى الغنى والفقر ، فلهم من الغنى المال الكثير ولهم من الفقر الامان من حسد الحاسدين . ولهم من الغنى القدرة على مايبتغون ومن الفقر القناعة بيسير مايأكلون ويلبسون . وهما مزيتان لايجمعهما الله الا لمن رضي عنه من عباده ! !

بيد انى فى صحبتى له كنت لاأستطيع ساعة أن أفكر بأنى أصاحب أنساناً له على مثل الذى لى عليه ، وكنت أحمل نفسي على أن تصدق أنه من البشر كما تراه عينى فلا تذعن . وكيف وهى لاتحس أدنى اختلاف بين ملاطفتى اياه وملاطفتى الكلب أو القرد ألاليف ليأنس بى ولا ينفرمنى؟ ؟ ولقد ضل والله من يتألف الكلاب والقردة ويلهو برؤية الحيوانات العجيبة وعنده البخلاء يضمهم واياه جنس واحد ومدينة واحدة فلا

يتألفهم ولا يخف الي رؤيتهم . أليس لو جاءك رجل فأخبرك بان فى مدينة كذادابة تموت من الطوى (١) وبين يديها الطعام الفاخر ؛ ويفرش لها المهاد الوثير فتجفوه الى الارض الخشنة ، وتطلق فى الفضاء الفسيح فتزجر وتئن وتسجن فى قفص الضيق فتضطرب وتطمئن ، وقيل لك ان هذه الدابة منفردة بهذه الاطوار بين بنات جنسها . أما كنت تبادر الى تلك المدينة أو تتمنى أن تساق اليك تلك الدابة ؟ ؟ فالبخيل هو تلك الدابة الغريبة فى تكوينها الشاذة فى أطوارها ، التى تعد من الناس وليست منهم، وتجانسهم فى الصورة والقوام ولا تشاكلهم

أن الناس يعرفون البخل بأنه الحب المفرط للمال وهذا تعريف ناقص من جميع أطرافه . فهل العلاقة بين البخل والمال الا كالعلاقة السطحية بين العلم والاوراق ، وبين الشجاعة والسيف ، وبين الزمن والساعات ؟ ؟ وقد وجد البخل قبل أن تحتجن الاموال وتسك النقود ، كما سلف العلم قبل أن تصنع الاوراق ، وتقدمت الشجاعة قبل أن تطبع السيوف ، ودار الفلك قبل أن تخترع الساعات . ولو أصبحت الدنيا قد انقرضت منها الاموال وفنى من أيدى الناس الذهب والفضة لما قضى ذلك بفناء البخل من قلوب البخلاء ، لما قدمنا من أن البخل شيء بمعزل عن المال !!

وانما البخل عاهة تحجب الفكر وتفسد الطبع ، وتفرد المرء عن الفطرة العامة بين بنى جنسه بفطرة منكوسة عوجاء . وتذره خلقا عجيبا كل حظه من الحياة أن يحرم نفسه حظوظ الحياة . يستغرق الوسع فى طلب الوسيلة ثم لا هو يقنع بالوسيلة ولا هو يطالب بها الغاية . وليس البخل عاهة واحدة بل هو جملة عاهات ممثلة فى هذه العاهة . فهو مزيج من الجبن الدنىء الذى

---

(١) الجوع

يصور للمرء الخطر المستحيل كانه قضاء حتم لا مرد له ، ومن الخسة التى يتساوى عند صاحبها الفخر والعيب . وتلحق عنده مراغة الهوان بمقاوم السؤدد ، ومن البلادة التى تميت فيه كل أريحية حتى لا تهتز فى نفسه أمنية أو عاطفة تقوى على كسر قيود شحه وجبنه .

وقد ظهرت هذه الخلال للناس قبل أن يتمدينوا بآلاف السنين، ومقتوها فمقتوا البخل متفرقا قبل أن يمقتوه مجتمعا . وغاية الفرق بيننا وبينهم انهم كانوا يستضعفون من تكون فيه خلة من هذه الخلال فينبذونه عنهم ويهضمون حقه ويدوسون حرمته ولربما طلوا دمه وتبرأ منه ولاة ثأره . وأما فى مدنيتنا هذه التى وضعت سنة المال موضع سنة الحياة فقد صار البخيل فيها يحل ويبرم ، ويؤخر ويقدم ، ويحلل ويحرم ، ويستشفع اليها بيد فيها المال ويد فيها جبنه وخسته وبلادته فتقبل منه هذه لتلك. وانها لعمرى لمن الخصال التى انحطت بها المدنية عن الهمجية، وما هى بالقليلة. فكم من خصلة فى المدنية يستحب المدنى الهمجية لاجلها ويأنف الهمجى بحق أن يتصف بها ؟ ؟ .

اللغات والتعبير (١)

لولا أن الناس من أصل واحد فى الخلق ، ومن لحمة قريبة فى النسب ، بحيث أن مايعرو أحدهم يعروهم جميعا ومايصدق على جميعهم يصدق على كل واحد منهم ، لما أجدت عنهم اللغات فى كتابة أو كلام ولا اعتقلت ألسنتهم عن كل فهم وأفهام

ولوكان التقارب بينهم تاما ، والشبه فى السن والميل والسليقة محكما لما افتقروا الى اللغة ، ولكان يستشعر أحدهم فى روعه ما يقوم فى روع الآخر من غير حاجة الى الشرح والبيان

ولاريب ان الناس يتفاهمون ببواطنهم أكثر مما يتفاهمون بظواهرهم ، وان لاح لنا أن الامر خلاف ذلك ، لطول عهدنا باستخدام اللغة فى الاعراب عن مرادنا ، فما اللسان الا الموضح والمفسر لما عساه أن ينبهم على السامع من مجمل سر المتكلم ومما قد تحتويه أفكاره ولايمكن أن تعبر عنه تمام التعبير وجداناته . أما حالته النفسية فهى أفصح من أن يفصح عنها اللسان بل أفصح من أن يخفيها اذا حاول اخفاءها

وما كان الانسان قبل آلاف الحقب أيام هو بعد بهيم سارح فى مراتع العجمة — يعول فيما يراه من رضى صاحبه أو غضبه ؛ ومن صدقه أو مكره ومن أمانته أو خيانته ، على شىء غير ما يتفرس فى أسادير وجهه وغمزات طرفه وحركات أعضائه . وكان اذا كلمه لم يكد يشق بكلامه ويأمن اغتياله أو (٢) يطابق مدلول أقواله ماوقر فى قلبه من مغزى

---

(١) من مقالات الشذور التى طبعت سنة ١٩١٥.

(٢) أو هنا بمعنى حتى.

اشارته ومعنى ملامحه ، فهو يأتمن السليقة ويرتاب فى اللسان .
وهذا سبب أعجاب الناس بالاشعار والخطب والكتب التى مصدرها السليقة وامترائهم فيما تعبث به يد الصنعة . لانهم يقرأون نتاج السليقة فينفذ الى سلائقهم ويصيب مواقعه منها ويحرك من نفس القارىء مثل ماحرك من نفس الشاعر أو الكاتب ، فيعلمون أنه صدقهم وحسر لهم عن سريرته فيركنون اليه

ويقرأون نتاج الصنعة فلا يجاوز ألسنتهم ؛ وكأنهم يقرأونه وهم ينظرون الشاعر أو الكاتب وهو يتعمل للظهور لهم بغير مظهره ، ويتنقب لهم بنقاب يخفى وجهه أو يبديه فى غير صورته ، أويرائيهم بتجميل هيئته وتدميم طلعته فيخالجهم الشك فيه ويعرضون عنه . الا اذا كان القارىء من الغرارة بحيث يصدق كل مايقال أو من الجهل بحيث لا يميز بين السليقة والصنعة ، فانه يقبل حينئذ كل قول على علاته ، فلا تمنعه المماذقة عن المصادقة ، وتنكسر خزانة نفسه بمبرد اللص أسهل مما تنفتح بمفتاح صاحب المال .

ولقد والله أحسن جولد سمث اذ يقول فى احدى رواياته : « لسنا نستعمل الكلام للافصاح عن حاجاتنا بقدر مانستعمله لمداراتها » . فقد طمس الكلام الى اليوم من الحقائق أضعاف مافند من الاكاذيب . وضلل من المهتدين أكثر مما هدى من الضالين ، وانك ربما تقترب من الرجل فتطلع من سيماه على مايريبك فتتوجس منه فاذا سألته وكان من ذوى اللباقة والبراعة فى المراء والمخادعة لبس عليك الحقيقة وأزال الريب من نفسك ، فينصحك لسان حاله ويغشك لسان مقاله . وكان آمن لك لو انك صدقته ساكتا ولم تصدقه ناطقا .

هذا فيما يملك الناس أن يبينوه أويكنوه . وان هنالك لافكاراً تلتوى على اللغات وتشمس عن التقيد بالكلمات . فمافضل الناطق فى هذه الافكار على الاعجم ؟؟ ومازيادة الفصيح على الابكم ؟؟ لافضل ولازيادة

ومن الافكار ماهو أعوص من أن يعبر عنه ولكنه أقوى من أن يكتم السكوت عنها محض والتعبير عنها ممتنع . لم يتغلغل الكلام الى أعماقها فيخرجها ، وليست هى بالتافهة الضئيلة فتدفنها فى مهدهاوتدرجها، وقد خصت ولم تعم فلم يكن لها حظ من اللغات العامة ، وتفرقت ولم تجتمع فليس بين أصحابها المتفرقين لغة متبادلة . فاعلم انه لايريحك من هذه الافكار الا سكوت كالخطاب . وذلك أن تجد ولو على البعد من يعانى مثل هذه الافكاو فيحيط بكتابك من عنوانك ، وتلهمه الكلمة العاجلة ماتضيق به الفصول المذيلة ويسبح معك برهة فى عالم لاألسنة فيه ولا آذان . . !!

يتحادث الرجلان وبينهما تنافر فى الامانى والاذواق فيفرغ أحدهما جعبة بلاغته ، ويعتهى غرار حجته ، ويستنفد أفانين حيلته ، ويحسب انه أقنع جليسه واستولى على لبه ثم ينهض هذان الجليسان وان بينهما من البعد لما هو أبعد مما بين الميت ومناديه ، والنجم ورائيه ، ويجلس غيرهما وقد توافيا على أمنية ، وتمازجا فى الطوية ، فيقضيان الساعات لا ينبسان الا بالكلمة بعد الكلمة ثم ينهضان وقد نقل كلاهما الى أخيه خلاصة نفسه وطبع صورته فى صدره . وما منامن لم يشاهد الحالتين فتبين له لغة الصمت أحيانا مقدار حداثة لغات الكلام

واني لاصغر شأن هذه العلوم والآداب القائمة كلها على تفاهم اللغات كلما تأملت فرأيت الأشياء الكثيرة التى تقوم بوجدانات الانسان ولا يحس بها، والتى يحس بها ولا يعبر عنها، والتى يعبر عنها ولا تصل برمتها الى عقل

سامعها ، فيتأكد لى ان الناس فى حاجة الى تفاهم أرقى من هذا التفاهم اللغوى . ولعل هذا النقص هو علة كثير من المشاكل التى تقع بينهم أمما وافراداً ، وتزول لو كان التفاهم بينهم كاملا

فليتخذ الناس اللغات رموزاً وأشارات تنوب عن المعانى لمن يعرفها ، ولا تمثلها لمن لا يعهدها أو يأنس بها . وليعلموا انهم ماداموا لا يقولون كل مايريدون أن يقولوه فهم خرس وان نطقوا . وانما البليغ المبين من الناس رجل يجيد الاشارة بلسانه أو يراعه . ولن تغنيه هذه الاجادة عن أن يكون سامعه ممرنا على التنجيم والتخمين . وأما من أخطأه هذا المران ، فسيان عنده الاشارة باللسان ، والاشارة بالبنان ! !

قوة الارادة (١)

خطر لى أن أبتدع فى التجارة بدعة حسنة فاخترت أن أتاجر بالاخلاق النافعة للمصريين . فاقتديت بأولى الخبرة والنظر البعيد من التجار اذا عزموا الاتجار بسلعة من السلع فى بلد من البلدان ، توخوا حاجة السوق واستقصوا عادات أهل البلد ثم يقدمون على بصيرة من عملهم وأمل وطيد فى رواج بضاعتهم . فتوخيت حاجة السوق فى مصر وتقصيت عادات المصريين وفتشت عن الخلق الذى ينقصهم أكثر من أى خلق سواه فعلمت أنه قوة الارادة فعولت على أن يكون اشتغالى بهذا الصنف من الاخلاق

وراقنى هذا الخاطر فمنيت نفسى رواجاً سريعاً وربحاً جزيلا وأنى سأكون أنفق تجارة وأكثر عائدة من المتاجرين بيننا بالوطنية والدين، لأن حاجتنا الى الوطنية والدين أقل من حاجتنا الى الاخلاق ولا سيما قوة الارادة . وفى مصر كثير من الوطنيين والمؤمنين ولكن قل فيها من كملت عليهم نعمة الأخلاق فغنوا فيها عن المزيد . وذهبت أحصى أرباحى ومكاسبى فى السنة الأولى فالسنة الثانية وفى السنين التالية فضاق بها الحصر ولم يستوعبها الحساب . وسرني أن أحلم بأنه سوف لا يكون فى الاثنى عشر مليونا الذين يسكنون وادى النيل مصرى واحد الا لديه مقدار كبير أو صغير من تجارتى ، فقلت إنها والله للتجارة التى لا تبور

واكتريت الدكان فى أوسع أحياء العاصمة وأحفلها بالسابلة والقطان وزخرفته أيما زخرفة فصفحته بالبلور وغشيت جدرانه بالذهب وصنعت

---

(١) من مقالات الشذور التى طبعت سنة ١٩١٥

رفوفه من خشب الهند ونقشت عليه لوحة من أجمل ماخط الكاتبون كتبت عليها « هذا دكان قوة الارادة . يعطيك على نفسك سلطانا لاحد له » ثم جلست على بركة الله أشمر للتعب والعمل وأخففهما عنى بما أرجوه من المنفعة لى وللناس

فكان أول من سنح لى فى صباح أول يوم فتحت فيه الدكان رجل سكران قد تخالعت أعضاؤه من الوهن واحمرت عيناه من السهر وانعقد لسانه من الخمر فوقف قبالة الدكان يترنح ذات اليمين وذات الشمال وأوشك أن يميل على ألواح البلور فيحطمها ويكدر علينا صباح الاستفتاح بطلعته المشؤمة . ولو كنت ممن يتطيرون لأغلقت دكانى لساعتى وجزمت بالفشل ولكننى تصبرت ولبثت ألاحظه وهو تارة يحملق الى وتارة يتهجى العنوان حرفا حرفا حتى أتى على حروفه بعد شق النفس، ثم قال لى وكأن روحه تصعد مع كل كلمة

أأنت صاحب الدكان ؟ قلت نعم . قال أنت بعينك ؟ قلت أنا هو بعينى لاسواى . . . . قال وتبيع قوة الارادة ؟ ؟ قلت من جميع الاصناف والاثمان . قال ولنا أيضاً تبيعها ؟ ؟ . . . لاتؤاخذنى فانى أحب أن أسأل

قلت أجل . لك ولكل من يشتريها

قال : فأنا أسهر كل ليلة كما ترى وأسكر وأقامر وأجيء فى هذه الساعة فيثقلنى النوم ولا أحب أن أنام . فهل عندك صنف من الارادة أتسلط به على النوم ويقوينى على السهر ليل نهار ؟

قلت : ليس هذا الصنف من الاصناف الموجودة ولو وجد لما بعناه . ونحن باعة الاخلاق لانقل فى الامانة لصناعتنا والحفاظ بذمتنا عن الصيادلة . وقد تعلم أنت أن الصيادلة لايبيعون كل دواء لكل طالب ولكن عندنا

أصنافا أصلح لك من هذا الصنف فهل لك فيها ؟

قال أرنيها

فسردت له أسماء الاصناف التى فى الدكان وأريته كل صنف منها فى علبته ولم آل له تفصيلا لفوائدها وترغيباً فيها، وبسطت له أسماء الارادة المانعة وخواصها منع الناس عن مقارفة العادات الضارة ، من التدخين الى المقامرة ومن الكذب الى الوقيعة. وتختلف المقادير والاثمان، باختلاف الادمان والازمان

وأصناف الارادة العاملة وخواصها ايلاء الناس عزيمة وصبرا على تذليل مصاعب الاعمال وتحقيق همامات الانفس . وأرخصها قضاء المرء واجبه ، وأنفسها قضاؤه واجب أمته ونوعه . وهى أغلى من الارادة المانعة لان القدرة على أداء الواجب أندر من القدرة على اجتناب المحظور . وأعلى من هجرك ماتؤاخذ به فعلك ماتحمد عليه . وعددت له أسماء نفر من عظماء الرجال الذين دفعتهم قوة الارادة ودفعت بهم أممهم الى ذروة من الشرف تتقاصر عنها الذرى . وأطنبت فى الوصف والتحسين وهو يصغى الى بما بقى فى حواسه من الانتباه ، فأطمعنى اصغاؤه فى أن يكون أول تجربة ناجعة وأصدق اعلان عن الدكان . ورأيته يطرق مليا ثم قال : ولكن من يضمن لى جودة الاصناف ويكفل نقاوتها من الاخلاط والاوشاب

فقلت فى نفسى سبحان الله : هذا الذى يذهب كل ليلة الى الخمار لا يسأله أيسقيه سماً أم خمرا ، ويغشى موائد القمار يخسر كل ليلة صحته وماله ثم ينساق اليها بغير سائق لايريد أن يشترى قوة الارادة الا بضامن؟؟ ولكننى جاريته وقلت له ٠ لاخوف عليك من هذه الجهة، فسأعطيك علبة نموذجا فجربها وسل من شئت من التجار . ولك بعد ذلك الخيار

***

انصرف السكران بالعلبة ذلك اليوم وعاد الى فى اليوم الثانى مفيقاً صاحيا فجلس بتؤدة وأدب وقال لى : لقد تعاطيت أمس علبتك ولم أعاقر ولم أقامر ولا أدرى أبفضل العلبة ذلك أم لنفاد المال منى . وكنت اذا نفد المال منى اقترضت ، فلم أقترض أمس ، فلا أدرى أيضاً أكان ذلك قوة فى الارادة أم حياء من الرفض . وكنت لا أستحى فلا أدرى والله أكان حياءى خلقا جديدا اكتسبته منذ تعاطيت قوة الارادة أم هو لتكرار الطلب واليأس من الاجابة

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم ومن أكثر التسآل يوماسيحرم

على انى سألت التجار تاجراً تاجراً فاستغربوا اسم الصنف ولونه ورائحته ومعدنه واتفقوا على أنهم لم يسمعوا به لا فى الشرق ولا فى الغرب ماعدا التاجر فلانا فقد عرفه وفحصه قليلا فرده الى مشمئزاً وهو يقول : خذ ياشيخ ! فقد سئمنا هذا السخف والتدجيل ! وهل فرغ الناس من سلطان الهموم فيسلطوا عليهم قوة الارادة أيضاً ؟؟ واذا كانت عوائق الدهر تحرمك شطراً من ملذات الحياة وأنت تحرم نفسك الشطر الباقى فأنت لاشك الذى يقال فيه انه عدو نفسه . . نحِّ عنك هذه الاضاليل ولا يغرنك ما تقرأ من العناوين وما تسمع من المواعيد ، فلو كان فى هذه التجارة خير لما غفل عنها الناس الى اليوم ، ولم ينسها دهاقين التجار الازمان المتطاولة لتكون بدعة من بدع هذا الزمان المنكود

فأسكت هذا المهذار وندمت على التفريط فى العلبة ، وكان أعجب ماعجبت له كلام ذلك التاجر لعلمى بأنه ممن يميزون أمثال هذه الأصناف ويحسون نقص السوق فيها . ولم يكن بيننا مجاورة أو مشاركة . فخفى عنى غرضه من تبغيض الناس فى بضاعة ليس بينى وبينه منافسة عليها . ولكنى

وقفت فيما بعد على سبب ذلك وهاك بيان ماوقفت عليه : —

***

رأى فلان المذكور هذه التجارة المستحدثة فقدر لها الربح الطائل والرواج السريع ورأى أنه ليس أيسر عليه من تقليدها . شأن الاعلاق النادرة: تزييفها كثير والغش فيها جائز ، وذاك لأن عارفيها معدودن ولأن جاهليها يحكمون عليها باللون والرونق . وليس بالثمرة والجوهر . فقرر بينه وبين شيطانه أن يستفيد من هذه الفرصة ويختص نفسه بذلك الربح فما وني دون أن فتح له دكانا تجاه دكاني وتأنق في تزويقه وتنظيمه ، وكتب عليه « هذا دكان قوة الارادة الصحيحة . يعطيك سلطانا لاحد له على ملذات الحياة »

فتح الدكان واستأجر له دلالا سليطا يفتأ سحابة النهار يصرخ بصوت كقصف الرعود أو قرع الطبول : ياطالب الارادة الصادقة ، حي على الغنيمة قبل فواتها ؟ ؟ يا عشاق العزيمة الماضية ، هلموا الى أعظم معمل للعزيمة الماضية من معدنها ، هيا الى ارخص سلعة سعرا واسرعها فعلا وأصمدها على الطوارئ أثراً . أرادة لا تتكاءدها (١) عقبة ولا تصدها عن غايتها طلبة . فمن اشتهى السكر فصدته عنه مرارة الراح فليشتر من هذا الدكان فيستعذب تلك المرارة ويعاف عندها كل حلاوة ، ومن صبا الى الشهوات فأشفق من عقابيلها ومغباتها زودناه بقوة ارادتنا فأصبح لا يحفل بالعذل والملام ، ولا يبالى بالضيم والسقام . ومن تورط في القمار ثم تهيب خشية الاملاق والدمار ، ومخافة الفضيحة والعار ، فعندنا ماينزع منه تلك المخافة ، ويضحكه من هواجس تلك الخرافة . وعندنا لكل مريد ارادة ،

---

(١) تكاءدته العقبة وقفت في طريقه

ولكل ارادة شهادة . فالبدار البدار ؛ قبل غلاء الاسعار ؛ فاليوم بدرهم وغدا بدينار

فما شككت فى ان المسكين معتوه قد خسر رأسه وسوف يخسر رأس ماله وتوقعت له الخراب الجائح القريب ، اذ من أين له أن يزاحمني فى تجارتى، وأنا مبتدع التجارة وهو المقلد. وأنا أبيع ارادة الجد والعمل، وهو يبيع ارادة اللهو والكسل. ولكن سرعان ماأخطأ حسابي وارتد على تكهنى. وماراعنى الا الجماهير على أبوابه يتكوفون (١) وبضائعه فى كل واد تسير، بحيث لم تخل منها المدينة والقرية ، والبيت والحانوت ، والحانة والنادى، ولم ينته الشهر حتى فتح دكانا جديداً الى جنب دكانه ، ودار الحول فكان له فى الحى خمسة دكاكين وأصبح أعظم تاجر فى الديار

اما انا فقد اعطيت فى اليوم الاول تلك العلبة لذلك السكران فكانت اول وآخر ماصدر من دكانى . ومرت ايام وايام وتلتها شهور وشهور ، وتمت ثلاث سنوات مجرمات (٢) ، وانا بتلك الحال اراقب التلف يدب فى بضاعتى واعاين السوس ينخر فى ارادتي — وما الارادة الا كالسيف يصدؤه الاهمال ويشحذه الضراب والنزال — فدهشت وغضبت ، ثم صبرت وتعللت ، ثم يئست وسلمت ، فأقفلت الدكان وطلقت التجارة ، وهاانا ذا اسأل عن المحكمة لاودعها الدفاتر والمفاتيح

---

(١) يجتمعون

(٢) السنة المجرمة الكاملة

مواضع الملاحة (١)

مهما تعمقوا فى تعريف الملاحة ووصف محاسن الوجه وقالوا فيها مايشبه قولهم فى السحر او الروح واليوم الآخر ، فلا اخالها ترد فى بادىء امرها الا الى انها شارة فى اظهر عضو من الجسم — اعنى الوجه — كانت ولاتزال فى بعض الاحيان تدل على فضيلة جنسية فى جسم الرجل اوالمراة

ان اظهر ماتظهرالملاحة من معارف الوجه فى العين والشفة ، لانهما الجارحتان اللتان ترتسم فيهما حالة النفس واحساسها بغاية الوضوح والجلاء ، وبهما تختلف امة عن امة وجنس عن جنس . فالعربى والمصرى والصينى والانكليزى والالمانى وغيرهم من الملل والامم يتماثلون فى كثير من ملامح الوجه وقسماته ويندر أن يتماثلوا بالعيون والشفاه . وكذلك الرجل والمرأة . واصدق وأوجز ما يقال فى هاتين الجارحتين انهما نافذة النفس ، فمنها تطل على العالم ومنها يطل العالم عليها . ولعل ما تكشفه منا للناس أكثرمما تكشفه من الناس لنا

لابد من صلة محكمة دقيقة بين العين والرأس لأن نظرة العاقل غير نظرة المجنون . وقل مثل ذلك فى الغادر والامين ، والفظ والوديع ، والسقيم والسليم ، والشهوان والعفيف ، فان لكل منهم نظرة غير نظرة الآخر . أما صلة الرأس بالجسم وما يندمج فيه من الطبائع فملومة ملحوظة ، فالعين بهذه المثابة هى عنوان صفة النفس ومزاج الجسد

---

(١) من مقالات الشذور التى طبعت سنة ١٩١٥

ولا بد من صلة بين الشفة والاحساس لان الشفة هى ملتقى اعصاب الوجه وهى ادق اعصاب الجسم . فلا تهيج فى الجسم هائجة ولا تسكن به ساكنة الا يبدو لها أثر على الشفة . فتفتر أو تتهدل أو تنقبض أو تتقلص أو ترتجف . وترى الاحساس فى الشفة يتوق الى مقابلة مثله، لأن الاحساس يبلغ فيها أشده — وهذا هو الميل الى اللثم والتقبيل

نعم أن الاعضاء كلها تميل الى المماسة ، ولكن الميل انما يكون على قدر احساس كل عضو . فلا تميل اليد الى اليد كميل الشفة الى الشفة، لان الفرق بينهما فى الاحساس كالفرق بين المصافحة والتقبيل .

وقد وضعت هذه الحساسية فى الفم لأنه هو باب الجوف ، والجوف بحاجة الى حاسة ظاهرة تجيد له جس الاشياء قبل وصولها اليه، ولهذا نرى الاعمى اكثر مايعتمد فى جس الاشياء على شفتيه لانه حين فقد البصر وأصبح معتمده على الحس وحده لا يشعر فى جسمه بما هو ألطف على المس من شفتيه

فالشفة هى ترجمان الاحساس ومجس العواطف . واذا كان فى الانسان خاصة تتصل بالاحساس فهى أحرى الجوارح أن تظهر عليه تلك الخاصة

فقليلا مايلتبس عليك الصابر المكظوم بالقلق اللجوج أو الاريب الكيس بالحميقة الا بله . من التأمل فى شفاههم وهيئة أفواههم ، وربما التبسوا عليك ساعة الهدوء والصفو ولكنهم لا يلتبسون ساعة الغضب والاهتياج

ولرب وجه صبوح جميل يروقنا استواء خلقه واعتدال تقسيمه ويحيرنا نقد معارفه وقسماته . ولكننا يؤلمنا أن لا نتملى من ذلك الوجه بحظ الاستحسان الذى شوقنا اليه منظره . ووجه أقل منه جمالا وصباحة وأخفى

روعةورواء لكنه يسبينا ويثير بلابلنا ويستولى على أعجابنا ،وهذاما نعلله أحيانا باختلاف الاذواق أو خفة الدم ، على أننا لو انعمنا النظر فى ذينك الوجهين لم يطل بحثنا عن السبب وعلمنا أن مانسميه تارة باختلاف الاذواق وتارة بخفةالدم هو معانى تتضمنها العيون والشفاه ليست هى من جمال الصورة ،ولكنها هى شطر الجمال الاكبر. وهي التى تفيض على ذلك التناسب الهندسى المملول روحاً حياً جذابا

أن لكل عضو جماله الخاص به وجمال العيون والشفاه عام لا يجمل الجمال الابه . ولو نظرنا الى مزية فى العيون والشفاه تجعل لها هذا الشأن فى تقدير الجمال غير اتصالها بالاحساس ذلك الاتصال الذى المعناالیه لما أبصرنا لها أية مزية سواها . فلماذا لا نقول أن الاصل فى حب الجمال هو امتحان قابليات الجسم بأظهر أجزائه للناظر ؟ ؟ أفى ذلك بخس للجمال ؟ ؟ ماالجمال الا صبغة لاتفارق الجسوم ، فكيف نوفق بين احتقار الجسم وتنزيه صبغته

هذا كلام لا يرضي عشاق الجمال ، وليس يروق هؤلاء العشاق أن يكون حبهم له نوعا من جس النبض وفناً من الفراسة . فان كان ارضاؤهم لابد منه فليذكروا أن جمال أجدادنا لا يستحق أكثر من ذلك ،واننا لم نرث جمالنا وعواطفنا من غير أولئك الاجداد

تمثال نهضة مصر (١)

فى ميدان باب الحديد حيز من الارض يبنون فيه تمثال نهضة مصر ليكون غداً عنوانا خالداً للفن المصرى ومثالا باقياً لما يفهمه المصريون من مقدرة الفن ومن معنى التخليد بآثار الفنون

وتمثال نهضة مصر هو كما يعلم القراء من صنعة الشاب المجتهد محمود افندى مختار أحد شباننا المشتغلين الآن بالفنون الجميلة . وقد رحبنا بصنعته ورحبت بها الامة يوم عرضت فى معرض باريس وسكتنا يومئذ عن عيوبها وعما فيها من مواطن الضعف لاننا أردنا أن نرى فيها باكورة يانعة يحق لها التشجيع والتحبيذ وأن تعفيها الاقلام من النقد الممحص حتى تنضج وتقوى على احتماله والانتفاع به . فأما وقد عن لهم أن يرتفعوا بها عن قدرها ويحملوا على الامة زينها وشينها فقد وجب أن تقال فيها كلمة على غير ذلك المنحى الذى قوبلت به عند ظهورها . فاليوم لا نرى صنعة مختار افندى أمامنا ولكننا نرى ذوق الامة وادراكها يراد بهما ان يمثلا الى ماشاء الله فى صورة ذلك التمثال . فمن الواجب ان نبرىء ذمة الامة بكلمة نقد لا ننظر فيها الى تشجيع أو مجاملة

فكرة التمثال مسروقة . وهذا أول ماينبغى لنا أن نتحرى التنبيه اليه ونتوفاه . لان مصر المقدسة بفنونها وآثارها لايحسن بها اذا هى

(١) نشرت بعدد جريدة الافكار الصادر يوم ٢٠ اغسطس سنة ١٩٢٢

شاءت أن تصور نهضتها الحديثة أن تختلس الفكرة التى تصورها بها اختلاسا من فضلات الفن فى أمة أخرى ، وانها لبئس النهضة نهضة تسجل فى تاريخ الامم بفكرة مختلسة ... وليس بنا ههنا أن نشهر بسرقة لمختار افندى فان سرقاته وسرقات أضرابه غلطات فردية يحاسبون عليها وحدهم ولكننا لانجيز لانفسنا أن نسكت عن سرقة تلصق بالأمة على غير علم منها فيلزمها منها سبة فى فنونها وعار على اخلاقها

أما الفكرة التى بنى عليها التمثال فمأخوذة من صحيفة مصورة نشرت فى أوائل الحرب العظمى صورة رمزيه تمثل موقف انجلترا حيال فرنسا . وكان الجيش البريطانى فى ذلك الحين يستكمل أهبته ويرسل المددالى فرنسا فرقة بعد فرقة فمثلت الصحيفة هذا الموقف فى صورة رمزية هى صورة الحرية تضع يدها على رأس الاسد البريطانى الرابض وتستنهضه للمعونة ، وهو يتحفز من مربضه فى بطء رصين وتعازم مخيف ، وهذه كما لايخفى على القارىء هى فكرة تمثال نهضة مصر بعينها لولا أن لهذه الصورة معنى وأن الصورة كما اقتبسها مختار افندى لامعنى لها

فأما معنى هذه الصورة فظاهر لمن يعرف أن فى فرنسا تمثالا للحرية كاد يكون من الاعلام الفنية على الامة الفرنسية وان رمز الاسد يدل على الدولة البريطانية بين الدول كما كان يكنى بالدب عن الدولة الروسية والنسر عن الدولة الالمانية . ولا نعلم ماهو أدق فى تمثيل استنجاد فرنسا بانجلترا من تصوير الحرية تهز نخوة الاسد ، ولاسيما حين نذكر ان فرنسا كانت تنادى فى هذه الحرب باسم الحرية والمدنية وان انجلترا كانت فى ذلك الوقت بالاسد الرابض المترفق اشبه منها بالاسد الصائل المهتاج فالفكرة على هذه الدلالة دقيقة والتمثيل جميل

وليست كذلك فكرة « نهضة مصر » ، لاننا لا نعلم ماذا تمثل الفتاة فيه وماذا يمثل ابو الهول . فان كان ابو الهول هو مصر الناهضة فمن تكون الفتاة المائلة بجانبه ؟ ؟ وان كان ابو الهول هو مصر الاولى فما معنى حركة تاريخها الباقى وهو مصون مجيد سواء نهضت مصر الحديثة او لبثت قيد الجمود والهوان ؟؟ ونعود الى تفسير آخر فنقول ان الفتاة هى مصر بتاريخها القديم ونهضتها الحديثة فهبها كذلك فما شأن ابى الهول ؟ ؟

ومن ثم ترى ان فكرة التمثال مسروقة او مسبوق اليها وانها على ذلك غير متقنة ، وهذا هو التمثال الذى يقيمونه باسم الامة المصرية ليصور نهضتها لا لهذا الجيل وحده بل لكل جيل يأتى عليه فى المستقبل ، ولا لمصر وحدها بل للعالم قاطبة

***

وفى التمثال عدا هذا عيب آخر يحسب من عيوب النظر الفنى والنظر التاريخى معاً . ذلك ان أبا الهول المصور فيه لا يشبه فى شىء من ملامحه أبا الهول القديم الذى بناه الفراعنة وانما هو صورة منقولة عما فى معابد البطالسة من هذه النصب ، وانه لمن الخطأ فى فقه الفن والتاريخ أن يختار لتصوير نهضة مصرية نصباً بنته فى مصر أسرة أجنبية وعندنا تمثالنا ذاك العريق المهيب قائم لمن يريد النقل عنه بلا حاجز ولا رقيب ، ولكننا نحسب صاحبنا مختار افندى لما عقد النية على اخراج تمثاله رجع الى كتاب المسيو ماسبيرو ففتحه على صفحة تماثيل أبى الهول فاختار أقربها اليه ثم أقفل الكتاب وحمد الله على الظفر بنموذج سهل لا يكلفه انتقاء ولا أجراً ! !

وعيب آخر فى التمثال أنه يوهمنا كأنما ابو الهول الرابض كان رمزاً الى الجمود والتأخر ، لانه يتخذ من نهوضه وتحامله رمزاً الى الحياة والتقدم

وليس أضل من هذه الفكرة لان ابا الهول قد بنى رابضاً هكذا فى دولة مصرية كان لها من البأس وعلو الكعب فى الفنون والصناعات مالم يكن لدولة غيرها فى تاريخ الاسر العشر الاولى. وقد أرادوا ان يرمزوا بربضته هذه الى الركانة والثبات والمهابة فليس من دقة المغزى الفنى ان نقابل الثبات بالجمود والهيبة بالمذلة ، والا فلو شاء احد ان يقارن بين ابي هولنا القديم وابى هول النهضة الحديث فأى معنى يتجلى فى هذه المقارنة ؟

***

كل هذا — لا بل بعضه — كاف لفتح الاعين وتنبيه أصحابنا الذين يحسبون انهم يكرمون الفن او يشرفون مصر باقامة هذا التمثال مقام العنوان الخالد على نهضتها وشعور الفن فى نفوس اهلها . وماهم بمكرمين الفن فيه ولا بمشرفين مصر ! انما هذا عنوان على فقر فى الفن قد نسلم به طائعين لولا ان يضاف اليه فقر فى الادراك لا حاجة بنا الى التسليم به. فاجعلوا تمثال نهضة مصر باكورة محمودة وافيضوا عليه مايروقكم من التشجيع والاستبشار ولكن لا تنصبوه فى الميادين العامة ، اذ ليست ميادين الامم محلا لعرض خطوات التدرج فى تعلم الفنون وترتيب النماذج فى اطوار مرانها . محل هذا فى مدارس الفن او فى المتاحف الخاصة . اما الميادين فلا تتسع لغير الاعمال الصحيحة التامة التى تجارى الامم فى حياتها وتستمد حقها فى البقاء من المقدرة الخالدة لا من التغاضى والمحاباة

ريا وسكينة

« بين لومبروزو واناتول فرانس »

(١)

من عادة الناس أن يربطوا بين باطن المرء وظاهره بسبب ، فاذا اعجبتهم أو أدهشتهم مقدرة فائقة من رجل أو صفة شاذة في خلقه تاقوا الى رؤية وجهه ليعرفوا من تقاسيمه وملامحه أى رجل هو ويشهدوا مكان تلك المقدرة أو الصفة من ذلك الوجه . فان لم يتمكنوا من رؤيته عياناً سألوا عن أوصافه وبحثوا عن صورته ، وكاننا نعلم مقدار أسف الادباء على انهم لا يرون اليوم صور ملوك العرب وشعرائهم وعظمائهم ممثلة الى جانب سيرهم وأخبارهم ، مقرونة بأشعارهم وآثارهم . وهم لا يستفيدون من صورهم شيئاً وانما هي المادة بل نكاد نقول الغريزة تشعرهم بالحاجة الى مشاهدتها واجالة النظر في معارفها . وأنت قد تسمع المغنى يردد غناءه فتلتذه وتطرب له ولكنك اذا حال حائل بينك وبين وجهه استشرفت له ولم تقنع بسماع الصوت الذى هو بغيتك منه ، وربما كان دميم الوجه لا يزيدك النظر اليه سروراً بغنائه بل قد تعرض عنه ان رأيته صامتاً ولكنه الانسان قلما يشغف بمعنى مجرد أو صفة محجوبة ولا غنى له عن تشخيصها وتجسيمها في شكل من الاشكال المنظورة. ولو شئنا لرددنا الى هذا الطبع فيه تخيل أربابه الاولين ورفع النصب والاصنام لعبادتها بل لرددنا اليه حبه للجمال في الوجوه الآدمية لاننا مهما أبعدنا في تفسير هذا الجمال فلن

---

(١) نشرت هذه المقالة في الاهرام يوم ٣٠ نوفبر سنة ١٩٢٠

نخرج به عن كونه مظهرا تتعلق به غريزة حب البقاء والخلود فى نوع الانسان

ولا نغالى اذا قلنا ان هذا الطبع عريق فى الحيوان قبل الانسان ، فانك قد ترى حيوانين يتقابلان فيحدق أحدهما صاحبه ويطيل النظر الى عينيه كأنما يريد ان يستشف منهما نيته وكمين قوته . وهي عادة ترجع في الحيوان الى غريزة حب الذات والحيطة لسلامتها ، وتترقى فى الانسان وراء ذلك مراحل شتى

ولا أظن هذا الميل وجد فى الانسان عبثا ، اعنى به الميل الى رؤية أولئك الذين يسمع عنهم ما يدهشه ويلفت عنايته . فلا بد ان تكون ثمة صلة بين البواطن والظواهر ، وبين قوى النفس وملامح الوجه . أقرب مظاهرها الي الحس الفرق بين نضرة الصبا وغضون الشيخوخة ، واخفاها الفرق بين نظرة العالم ونظرة الجاهل ، والاختلاف بين سمة الرزانة وسمة البلادة . وصدق لافاتر منشيء الفراسة الحديثة اذ يقول ان بين لحظات الفيلسوف ولحظات النجار الساذج تباينا لا يستطاع انكاره ، فان لم ينفذ العلم اليوم الى سر هذا التباين أو تعذر على الباحثين تقسيم حدوده وترتيب أنواعه فليس لاحد منهم أن يجزم بانكاره أو يقلل من شأنه . وربما كان تقسيم تلك الحدود وترتيب تلك الانواع مستحيلا ، بيد أن الفرق بينها يبقى مع ذلك ثابتا محققا كثبوت الفرق بين الاجناس البشرية مع استحالة تمييزها بفواصل قاطعة في العصر الحاضر

اشتغل لمبروزو العالم الايطالى الكبير بهذا البحث فى عصرنا هذا والف فيه كتبا عدة أشهرها كتاب « الرجل العبقرى » وكتاب « الرجل المجرم » وفى كلا الكتابين يثبت المؤلف علامات فى الوجوه والاجسام

يستدل بها على العبقرية أو طبيعة الاجرام . ولقـد استرسل فى التعميم حتى تناول الجسم جارحـة جارحة وأظهر ما يتوسمه فيها من الخواص المميزة . فالي بحقائق لا نقول انها كل الصواب ولكننا لا نراها كذلك كل الخطأ . فالى أى حد ياترى تفيد حقائقه وتجدى ملاحظاته ؟ ؟

اسأل هذا السؤال وبين يدى صور أربعة من كبار المجرمين : اربعة لم نسمع بابشع من جرائمهم وآثامهم فى بلدنا هـذا وفي وقتنا هذا — تهافت الناس على صورهم كما يتهافتون على صور العظماء . لاحبا فى اقتنائها ولا اعجابا باصحابها بل لكى يروا كيف تكون تلك الوجوه التى تخفي وراءها قلوبا تعيث فيها شياطين الجرائم وأسرار الدماء وتستقر فيها الجيف فى هاوية عميقة من الشرور — (١) يسألون أنفسهم : اتكون تلك الوجوه كوجوه الناس ؟ ؟ تلك هى صور المرأتـين سكينة وريا ، وزوجيهما محمد عبدالعال وحسب الله سعيد ، وهم المتهمون فى جرائم اخفاء النساء بالاسكندرية . فماذا يتوسم الناظر فيها ؟ ؟

يخيل الى بعض القراء انه سـيرى في تلك الصور وجوهاً يفر منها هلعاً ورعباً كما يفر من أشباح جرائمهم وبشاعة نفوسهم . وهذا هو مصدر الخطأ فى انكار الفراسة ونفى العلاقة بين سمات المرء وأعماله . فقد يقترف المجرم أشنع الكبائر ثم لا يكون ذلك متأتياً عن نفس مرعبة تغلى بالشر وتتوثب الى العدوان بل يكون كل مافى الامر انها نفس ميتة يمر بها الناظر فينقبض لمرآها كما ينقبض لمرآى العظام النخرة والجثث المشوهة ، فاذا لم يجد فى صورها من بواعث الرعب والهلع مثل ما تبعثه

(١) كان هؤلاء المجرمون ومن معهم يقتلون النساء ويدفنونهم فى حجر النوم ويأكلون ويقصفون فوق رفاتهم

فى خياله جرائمها وذنوبها توهم الخطأ فى آراء القائلين بالفراسة وخفى عنه مصدر الخطأ من تصوره

وكذلك صور هؤلاء المجرمين فانها لا تشف عن طمع قوى أو غيظ سريع أو حيوية ضالة جهنمية وانما تشف عن بلادة الموت وخمود العقل . وكلما اندس منظرهم بين المنظر العادية التى تشاهد فى كل يوم كان ذلك أدل على اختلاف طبائعهم وتميز نفوسهم لان الذى يقترف افظع الآثام ولا تبدو على وجهه آثارها جلية شاخصة لا يكون مخلوقاً عادياً من عامة الناس

ولا يفوتنا أن ننبه هنا الى الذى نعنيه بكلمة الجريمة فى هذا البحث فنقول اننا لا نعنى جرائم العرف لانها مما يتغير بتغير القوانين والمجتمعات التى تسنها . فما يكون جريمة فى عصر من العصور أو مجتمع من المجتمعات قد لا يكون كذلك في عصر آخر أو فى مجتمع غير ذلك المجتمع . ومن البديهي أن مثال هذه الجرائم العرفية لا يلزم أن تصدر عن طبيعة خاصة ولا أن تبدو لها على ظاهر الجسم علامة موسومة . لانها جرائم ترجع الى مصطلحات الوقت لا الى طباع الناس . ونحن لا نعنيها كما قلنا حين نذكر الجريمة ولكننا نعنى تلك الجرائم التى ينافى شيوعها سلامة الانسانية بأسرها والتى يستنكرها جميع الناس بالفطرة ولا يتعلق استنكارها بعصر دون عصر ولا بقبيل دون آخر

يتساءل اناتول فرانس : « انقول مع مودسلى ان الجريمة تستكن فى الدم ، وان فى المجتمع طائفة مجرمة كما ان بين الغنم شياهاً سوداء الرؤس ، وان تمييز الاولين من السهولة بحيث لا يختلف عن تمييز تلك الشياه من قطيعها ؟؟ انخوض فى آراء رجل من أشد الباحثين اقتناعاً بمذهبه ؟ ! ذلك الايطالى مؤلف « الرجل المجرم » ؟ ؟

ثم يقول : « الحق ان الباحث الايطالي لن يوفق الى حصر جميع المجرمين فى صنف معين . وعلة ذلك ان المجرمين بطبيعتهم مختلفون بعضهم عن بعض وان الاسم الذى يجمعهم لا يحضر فى الذهن شيئاً واضحاً . والسنيور لمبروزو لم يفكر فى تعريف كلمة المجرم فلهذا تراه يقبلها على معناها الدارج ، وبهذا المعنى يسمي الرجل مجرماً اذا اقترف بدعا خطيرا فى الاداب وشذوذا عن أحكام الشريعة . ولما كانت الشرائع كثيرة والاداب غير محدودة فقد صارت اصناف المجرمين بلا قيد ولا حد . والواقع ان ما يسميه السنيور لمبروزو مجرماً ان هو الا مرادف لكلمة السجين ولا بد ان يتشابه السجناء فأن تشابههم فى المعيشة يحدث بينهم على الاقل تماثلا يميزهم عمن يعيشون احرارا . وقل مثل ذلك في جميع الطوائف المستقلة بأزيائها فاننا قد نعرف أفرادها وان خلعوا ملابسهم »

وفى هذا القول الذى يقرره أشهر المنكرين اليوم جانب صحيح وهو تعذر الفصل بين طبقات المجرمين وحصرهم فى صنف واحد . أما قوله ان التشابه بين مجرم ومجرم يأتى من تشابه المعيشة فى السجن فرأى سطحى بعيد عن الحقيقة لان الاستعداد للقتل أو السرقة أولى بأن يخلق الشبه من الاشتراك فى المطعم والمسكن سنة أو عدة سنين

على أن أناتول فرانس يوغل فى الانكار الى أبعد مداه فيقول : « ان الجريمة فى أصلها ملتبسة بالفضيلة وهى لم تنفصل عنها الى اليوم بين القبائل السوداء فى أواسط افريقيا . فهنالك كان يقتل الملك متيزا ملك طوارج ثلاثا أو أربعا من نسائه كل يوم ، وقد أمر باحدى نسائه أن تقتل لانها أجرمت بتقديم زهرة اليه . على أن متيزا هذا حين اتصل بالانجليز أظهر ذكاء عجيبا واستعداداً يذكر لفهم أفكار الشعوب المتحضرة . ولعمرى

كيف نستطيع الانكار ؟ ؟ ان الطبيعة هى التى تعلم الجريمة . فالحيوانات تقتل مثيلاتها لتلتهمها أو غيرة منها أو لغير سبب قط . وان بينها لعدداً عظيما من المجرمات ، تلك هى الجريمة ، فان كانت العجماوات المسكينة غير مسؤولة عنها فلا مناص من اتهام الطبيعة »

هنا نرى أن تعميم لمبروزو مهما توسع فيه أجدر بالمتابعة من تعميم أناتول فرنس لان الاول يقول شيئا والثانى لا يقول

وليس يزعم أحـد ان الصفات التى يذكرها العلامة الايطالى ستغنى الحكومات عن الشهود والقرائن والتحقيقات وتخذ أدلة ينص عليها فى القوانين . بل لا أنكر أن صور المجرمين الذين نتكلم عنهم قد تمر دون أن يلتفت اليها ، ولا سيما صورتى الرجلين . فان بلادة الشر على وجهى المرأتين أظهر منها على وجهى زوجيهما وأثر الادمان فيهما أقبح وأبلغ . ولـكن الامر الذى لاأشك فيه أن بلادة الحس ظاهرة على وجوههم جميعا ظهورا لا يتخطاه النظر أحيانا الا لان البلادة من طبيعتها أن لا تلفت الانظار ولا حاجة بنا الى أكثر من هذا الاثر البارز للدلالة على ماوراءه من النفوس

ضروب الالحاد

يقولون ان نواميس المادة غفل من القصد الادبى ، فالنار تحرق من يقتحمها سواء أكان المقتحم متطوعا للخير رحيما بالضعفاء يغيثهم ويجازف بحياته من أجلهم أم كان لصا أثيما يسطو عليهم ويسلبهم متاعهم ، والسيل قد يسقى الارض البور وقد يجرف الارض العامرة ، ولا حساب فى حركة من حركات هذا العالم لوجود الاحياء كأنما هم واغلون فيه ينزلون من ساحته فى غير العنصر الذى خلق لهم . ليس يختل قانون من قوانينه قيد شعرة لاعفاء نفس صالحة من احكامه الصارمة ولا للابقاء على امة كاملة ولا نوع باسره . يقولون ذلك ويستدلون به على خرق هذه النواميس المادية وجريانها على حكم الضرورة العمياء ثم لايقفون عند هذا الحد بل يتخذون منه دليلا على خلو الكون من الحكمة المدبرة والنظام المقصود !!

والظاهر من قول هؤلاء المعترضين انهم يريدون من المادة أن تحابى وان تقف موقف الحكم بين الاخيار والاشرار فتساعد على عمل الخير وتمانع فى عمل الشر . وحينئذ يخرج الرجل فيقتحم النار اذا نوى الخير فلا تحرقه ويخوض الماء فلا يغرقه وتصادفه العقبات فتتطامن له ، والمصائب فتتنحى له عن طريقه . ويخرج الشرير فيجد أمامه من السهل جبلا ومن الفضاء أسدادا ويجرد السلاح الرميض فيكل فى يمينه ويعالج تسخير المادة فتلتوى عليه ، فيتوب مجبرا عن نيته

هب ذلك كان ، فهل يسمونه حينئذ نظاما مقصودا وحكمة مدبرة ؟؟ وهل يكون الخير خيرا والشر شرا على هذا التصريف ؟؟

كلا ! بل الذي يكون أن تنتقل حرية الارادة من النفوس الحية الناطقة الى المادة الميتة الصماء ، ويصبح الانسان في العالم وهو أحط ما فيه من الاشياء ، تختار له وهو لا يختارها وتحكمه وهو لا يحكمها ، وتسوقه فينساق ، وتوصد أمامه الطريق فيمتاق . فلا مشيئة له بل لا حياة . فهل هذا ما يؤثرون ؟؟

ويقولون ان الانسان نفسه لا يتبين في حادثة من حوادث العالم ما يشتم منه علو الخير على الشر ورجحان الحق على الباطل . فقد يعيش الرجل كئيبا محسورا ثم يموت بغصة المغبون وهو في صف الحق عاش وفي صفه مات ، وقد يعيش سعيدا موفقا الى النجح ثم يموت ظافرا قرير النفس وما قرت نفسه بغير التشفي من ذي حق ولا نجح الا في مؤازرة باطل ، فاين الله وما هي الغاية ؟ ؟

وكأن هؤلاء يرضيهم أن يعيش كل انسان حتى يرى حادثة يغلب فيها الخير غلبا تاما ويفشل فيها الشر فشلا تاما وتكون الوقعة الفاصلة التي لا يخشى بعدها مساجلة ولا تنتظر لها بقية — إذن يؤمنون بالغاية في الوجود !!

ولا نجيب هؤلاء بان تحققهم من غلبة الخير دائما ، وفي كل حالة ، هو تحقق ينفي معنى العقيدة ويخالف طبيعة الثقة بالمجهول ، ويثبط بواعث الجها في الحياة ، ولا نقول لهم ان بواعث العمل في الحياة لا تتوقف على ما يطلبون وان الرغبة في التحقق من غلبة الخير انما هي رغبة عقيمة لا تؤدي الى عمل . لان الشكوكيين الذين تعوزهم الادلة لا يعملون ، واليقينيين الذين يعملون لا تعوزهم الادلة — لا نجيبهم بهذا ولا بذاك ولكننا نسأل: هل البرهان الذي يطلبونه ليؤمنوا معقول وجيه ، وهل البصيرة الرشيدة تحتمه ولا يقر قرارها الى سواه

ولكي نجيب على ذلك نفرض ان الانسانية كتب لها من العمر على

هذه الكرة مليون عام . فالمعقول هو ان الغاية من هذا العمر القصير فى سياق الأبد لا تتحقق الا في اواخره ، وانه اذا وضع نظام لسياسة هذه الانسانية كلها فانما يحسب فى ادواره وتقلباته حساب مليون عام لا عشرة ولا مائة ولا الف. فاذا طلب كل انسان ان يرى تحقق هذه الغاية ليوقن بها فى اثناء حياته ، ألا تراه كأنما يطلب ان تنتهى سياسة الكون ثم تبدأ من جديد مرة فى كل ستين أو سبعين سنة ؟؟ لا بل مرة كل يوم بل كل ساعة!! لان السنة التى توافق السبعين من حياة انسان قد تكون السنة الاولى من حياة انسان آخر والعاشرة من حياة غيره وهلم جرا

وفيم كل ذلك ؟؟ فيم يختل اطراد القوانين الطبيعية وفيم تنشأ الحوادث ليستدل بها الانسان لا اتعمل عملها ؟؟ فى شيء هو الى العبث والتلهى والفرجة اقرب منه الى الجد والحكمة ، فى منظر عارض تتوق اليه نفس فارغة ، فى حجة جدلية اذا كانت هى المؤسس الوحيد لبواعث الايمان فى هذه الدنيا فلا حاجة اليها ، لان الدنيا على ذلك لا تكون مستحقة ان يؤمن بها ولا تكون فى ذاتها الا دليلا ناقصاً على لا شئ . واذا لم تكن النفس من التمكن من ينبوع الوجود بحيث يسرى اليها الايمان به من داخلها كما يسرى عصير الحياة الى الشجرة اليانعة من مغرسها ، فسريان الايمان اليها من الخارج مستحيل

ان القلب ليشك ولكنه اذا شك بحق فلن يلبث ان يؤمن بحق اكبر وأعلى ، وليس بقليل عدد أولئك الذين سلكوا هذه الطريقة من الايمان الاعمى ، الى الشك ، الى دفع الشكوك ، الى الايمان البصير .

ومن المنكرين غير من أشرنا اليهم آنفا من يغريه الخيال بالالحاد ، فلا يجيء الحاده عن بحث ولا وسواس ضمير ، وذلك اذ يسترسل الخيال فى تصور هذا الكون متروكا الى نفسه متخبطا فى دياجير الابد المجهول ، لا عين تراه ولا رائد

يرسم له خطاه . كون ضال حائر فى ظلمات اللانهاية !! يالها من صورة يرتع فيها خيال الشاعر فترة فتلهيه عما وراءها من اليبوسه والعقم والخواء. وما من شاعر ألحد الا كان له من تلك الصورة شركة خلابة واستهواء

ومن الالحاد ما تدعو اليه الرغبة فى التمرد وحطم القيود الموضوعة. وكلما كانت القوة التى يناصبها الملحد أهول وأعظم كانت المعركة أجل وأشبه بالبطولة الرائعة المعجبة التى يسمع عنها فى أساطير المردة ووقائع الجنة والشياطين . وهذا الحاد يفرض صاحبه وجود القوة التى ينكرها ليوثب نفسه بمعاندتها وتحديها . وهذا أيضاً من الالحاد الشعرى . وهو الحاد لا يدفع بالحجة وانما يدفعه الخيال الذى أتى به

* * *

ولحكمة ما شاعت كل هذه الضروب من الالحاد فى القرن الماضى . فقد كان الناس فى حاجة الى من يقيمهم على صراط الايمان السوى . كانوا يؤمنون بالله ولا يدركون عظمة الكون ولا يفقهون شيئاً من أسراره ولا يشعرون بجمال الله فى خلقه ولا يملؤون نفوسهم من نشوة هذه الحياة التى يبثها فى وجوده . ولكنهم كانوا يؤمنون به على النسيئة انتظاراً لعالم آخر تتجلى فيه قدرته ويرون فيه من آياته ما لا يرونه هنا . كانما ليس فى هذا العالم الكفاية للايمان القوى الصحيح ، وكانما ليس لله حق الايمان عليهم الا من طريق ذلك العالم الذى ينتظرونه ، وهذا ضلال شنيع . بل هذا هو الكفر بعينه . اليس الكفر هو الجهل بالله ؟؟ فاى جهل بالله أشنع من هذا الضلال الذى يتراءى لنا فى ثياب الرشاد ؟؟ وانما الايمان الذى يبنى على غير تقدير من النفس كالاعجاب الذى يبنى على السماع ، وكالحب الذى يبنى على الوهم ، كلها شعور فارغ لا يصدر عن صميم النفس ولا يدل على عطف بعيد الغور ، ولكنه عبث وقشور . وتعالى الله ان يرضى من أحد بالعبث

والقشور، ولا سيما فى الايمان بأسرار الحياة ولباب الوجود.

اذن كيف كانت النفوس تهتدي الى الصواب وتتجه فى عقائدها الى الوجهة المثلى ؟؟ كان لا بد لها من الالتفات بكل ما تملك من أمل وشعور الى هذه الحياة . كان لا بد لها من أن تقصر عليها الرجاء زمانا لترجع الى كهوفها المهملة وسراديبها المهجورة ومحاسنها المجهولة فتنقب عنها وتجلو الغبار عن نفائسها وتدفعها الحاجة الى الرضى بخيرها وشرها فتعرف قدر ما كانت تزهد فيه من غير تجربة ، وقيمة ما كانت ترفضه من غير روية . وتستكشف من ثم هذه الحياة التى كانت تعيش فيها وكأنها من غير أهلها، فتنكشف لها معالم الايمان الصحيح من هذه الطريق ، ولا طريق سواها الى الله

وهذا ما تكفلت به المادية فى القرن التاسع عشر ، وتلك هى رسالتها فى هذا العالم !! وهكذا ما من شىء فى هذا العالم الا له رسالة يدعو اليها ، وعليه فريضة يقوم بها . حتى الكفر قد تكون له رسالة يؤديها فى سبيل الايمان الذى لا ايمان اصدق منه ولا أسمى : لانه ايمان بعظمة هذه الحياة . وكل شعور بعظمة الحياة فانما هو شعور بعظمة الله الحقيقية ، وهو الايمان الحق المقصود ، وكل ما عداه فمن جرثومة الكفر وان هتف باسم الله ، ومن معدن الالحاد وان صلى وصام

في الزروق (١)

جولة فى الماء محدودة وجولة فى السماء غير محدودة . مسافة على الارض تذرع بالاشبار والاميال ومسافة أخرى فى عالم لا تعرف أوائله ونهاياته ولا تقاس أعماقه وآفاقه . تلك هى الرحلة المزدوجة التى أقضيها كلما ركبت الزورق الصغير على النيل

وربما استخدمت هذا الزورق كما كان « دارون » يستخدم سفينته « البيجل » ، أى لتبديل الهواء وجمع المواد الاولية لتبديل المذاهب والاسماء ، ولعمرك أين الزورق النكرة من (البيجل) المعرفة ؟ ؟ وأين راكبه من (دارون) ؟ شتان شتان ، وهيهات هيهات ، ولكن فيما عدا ذلك لجولتى فى زورقى هذا رحلة ، وجولة دارون فى سفينته تلك رحلة مثلها ! ! وقد أتى هو بنتيجة ولم أعد أنا بغير نتيجة . فماذا كشف دارون فى سفينته ؟ ؟ ألا يقولون انه احتقب فى أوبته الف حجة وحجة على أن الصالح للبقاء يبقى وان غير الصالح للبقاء لا يبقى ؟؟ الا يقولون أن الاحياء يتخاصمون كثيرا ويتنازعون البقاء فيما بينهم كبيرا وصغيرا ؟ ؟ ألم يقولوا .. لا أظنهم قالوا أكثر مما تقدم

اذن اؤكد لهم أن الزورق الصغير قد يصل بهم اذا شاءوا وشاءت لهم الاقدار الى حقيقة أصدق من حقيقه دارون وأرفع منها قدرا وأقدم منها عهدا ، والطف على السمع وقعاً . وان الزورق الصغير لا يبعد عليه الكرسى الذى تسأل أمامه الطبيعة عن أسرارها ، ولا المنبر الذى تخطب من فوقه

---

(١) نشرت فى العدد العاشر من الرجاء

قائلة بأفصح ألسنتها وأجهر أصواتها : ان الصلاح للبقاء كلمة لست أعرفها لانى لست أعرف الصلاح للفناء ! ! وان الاحياء لا يتنازعون ولكنهم يلعبون ، نعم يلعبون بملء نفوسهم مرتاضين رائضين كما يتصارع الصبية جذلين ضاحكين ، وكما يتناجز ممثلو المسرح جادين أو هازلين . وان استغراقهم فى اللعب حتى تخال لعبهم جدا ، ونسيان أنفسهم فى تمثيل الخصومة حتى تحسب خصومتهم حربا ، ان هو الا الشغف باجادة الصنعة وبراعة الاتقان ، وانه هو هذا الذى يجعلهم أحق بنشوة الرياضة وتصفيقة الاستحسان . . . .

لم تقل الاعشاب ولا الهوام ذلك لدارون ! ! ولكن هل تراه سألها عنه أو استقصى خبرها فيه ؟ ؟ لو طلب منها أن تقول لقالت ولكنه اكتفى بما وعى فسكتت . وهى لا تجيب حتى تسأل ، ولا تبذل جوابها كله لاول سؤال

نعم يلعب الاحياء ولا يتنازعون ، وليس الامر بمجهول فيعلم ولا بمخفى فيظهر ولا بمردود فيقام عليه البرهان . الا نرى الفرسان يتهالكون شوقا الى قصبة منصوبة فى العراء يسعد بها من يحرزها ويتحسر عليها من يخذله الجد دونها ؟ ؟ بلى نراهم فلا نقول أن اولئك الفرسان المغاوير يقلقون بالهم ولا أن الناس يهللون لهم ويعجبون بهم من أجل تلك القصبة . ولعلهم بعد اذ يحرزونها يلقونها فى التراب

وهذه السماء والارض وما بينهما تنبثق كلها عن حياة لا نظير لها فى تراكيب هذه الاكوان ، ثم يذهب أبناء الحياة يتخاطفون بينهم لقيمات من الخبز أو اشبارا من الارض أو قطعا من الحجارة اللامعة فماذا يقول الناظرون ؟ يقولون انها بغيتهم التى فيها يتنازعون ، واليها يتسابقون ، ومن أجلها يخلقون — يقولون انهم يجدون ولا يلعبون . .

لحذار ! فلعلهم ايضا يلقونها بعد اذ يحرزونها فى التراب

***

زورقى الصغير لم يغير خريطة الارض ولكنى قانع به وراض عنه . ثما كشف لى موقع قدم لم تطأه قبلى الف قدم وزيادة ، ولا مر بى على حبة رمل واحدة يحق لى ان اطلق عليها اسمى دون اسماء الرحالين من قبلى . ولكنه ضاق من ناحية واتسع من نواح لاعداد لها . فكم من بقعة فى السماء ضللت عنها فهدانى اليها ، وكم من ساحة من ساحات الرفيق الاعلى قربنى اليها وكان قد اقصانى عنها غبار الدهر وعجاجة وقائعه !! ولقد افسح الرحالون رقعة الارض وضيقوا شقة الخيال ،فاليوم تسكن اصغرجزيرة فى اقصي الدنيا ولكن لاجبال قاف بمأهولة ولا قصور المردة بمعمورة . كلا ولابحار العجائب بمطروقة الاثباج، ولا هى بزخارة الامواج ، من وراء ذلك الرتاج . تداعت واقفرت ونضبت فهى اليوم طلول دارسة وبلاقع خاوية وبقايا متصدعة وحاشى لزورقى ان يصنع ذلك الخراب او يغير على ذلك العالم العجاب ، فلايزال له الى عالم الخيال منفذ وبينه وبين وادى الجنة سلام ،ورب قارة رهيبة يحار فيها الدليل ويسكت فيها سليمان طرقتها به ولم يعرف لنا خبر ولم يسمع لتسليمنا ولا لتوديعنا نأمة اوصدى، ولئن صدقتنى الذاكرة لقد عرفت فى جولة من جولات هذا الزورق اين كان مولد الجن الاولى او عرفت على الاقل كيف ينبغى ان يكون

ففى مفترق الجزائر الثلاث (١) ولدت بلا شك قبيلة كبيرة من قبائل الجن الوسيمة الوادعة ، وفى تلك البقعة بلا شك هى قائمة الى اليوم تعيش وترتع وتتوالد وتقضى حقوق الحياة ، وانها وايم الله بقعة خليقة بالجن والجن خليقة بها . يشارفها القادم من بعيد فيغلبه الصمت فلا يتكلم الا

(١) كتبت هذه المقالة باسوان

همسا ولوكان من أصخب خلق الله لسانا وأطوعهم للثرثرة عنانا ، وانه ليضحك ويطرب ويتغنى ويصفق ويهلل ماشاءت له خفة الهواء فى انطلاقه ومرح الماء فى اصطفاقه حتى اذا اقترب من تلك البقعة الحرام تبدلت حاله حالا ونزع عن خفته مختارا ، وسرى الى أجزاء نفسه السكون مسرى النعاس فى مفاصل النائم المكدود ، فاذا هو مقبل بجوارحه كلها ينصت ويصغي ، ثم ينصت ويصغى ، ثم ينصت ويصغى : درجات من الصغو تهبط كل طبقة منها الى طبقة أعمق منها غورا وأظلم جوفا وأبعد ركزا وهل يصغى الانسان الى لاشىء ؟ ؟ أن اللاشىء يصبح شيئاً متى أصغى اليه الانسان

وأذكر انى طرقت مرة ذلك الوادى الصامت . أذكر كيف احتوانا نطاقه المسحور كما تحتوى حبائل الطلسم اسيرتها وشملنا منه مايشمل وراده من سكينة مخيمة على جوانبه ومن همسات تتخلله تزيد الصمت صمتا والهيام هياما وتسمعها أو هى تسمعك نفسها على غير انتباه منك فكأنما ترد عليك فى الحلم بين وسوسة خافتة من جانب الشجر ، أوهتفة مفردة من طائر محلق فى الجو لايكاد يتبعها بثانية . أو خفقات الفراش فوق ورقة طافية تتهادى فى النهر ، أوغمغمة الماء على قاب ذراع منك وكأنه فى أقصى الارض حركات ترسلها الاذن قبل أن تمسكها ، وتعليقات على حواشي السكون تمر لحظة بعد لحظة وكانما هى الجيل يمر بعد الجيل

وفاضت هذه السكينة على نفس النوبى فتسايلت منها فى صورة حكاية مبتكرة لطيفة : حكاية ذات وقائع ومفاجآت جرت له مع الجان فى هذه البقعة ؛ على مشهد من أمه التى ماتت وأخيه الذى لايزال صبيا . وقد أطمعه السكوت منى فأطال واطنب وافتن واغرب . ثم رابه هذا السكوت فأردف حكايته باقسام كثيرة على صدق كلامه.

قلت لا عليك ياأخا النوبة ولاريب عندى فى صدقك . ان المكان

مهيأ لسكنى أصحابك كما أرى ، فأن كانت الدنيا تعوزها بعد هذه الخلائق المقنعة فأى ذنب فى ذلك عليك ؟ ؟ انه ذنب الدنيا . . .

***

وفى ذات يوم ، قبل مرسانا على بر المدينة شاء الله أن يختبرنا بمحنة من محن السندباد البحرى ، فتغير الجو وغامت أطراف الافق واختلف مهب الريح فكثر قيام النوتى وقعوده بين مقدم الزورق ومؤخره وراح الزورق يترنح ذات اليمين وذات الشمال ويتكفأ بين الشرق والغرب تكفؤ السكران ، واصبحنا نتقدم عشرين خطوة فى كل ميل نعبره من هذا الشاطى الى ذاك ، فقلت للنوتى مالك لاتستقيم فى السير ؟ ؟

قال لو استقمنا لغرقنا . اولا ترى الريح ؟ ؟

لو استقمنا لغرقنا ! ! ذكرتني كلمته هذه برأى فى الاصلاح الاجتماعى والادبى لعالم من علماء القطرين المعدودين مثله لى على أثر اختلاف على طرق الاصلاح ومذاهب الناس فيه فكان يقول : أعرف لعبور التيار طريقتين . فطريقة المجازفة وهى أن يلقى الانسان بنفسه فى غمار اللجة فيندفع من جانب الى جانب لاتثنيه زمجرة الموج ولاخديعة الدوامات ، وليس يرتدعن عقبة ولوكان فيها الهلاك ولايحيد قيد خطوة عن الخط القويم الا مغلوبا على أمره ، فقصاراه بعد الجهد ان يلتهمه الماء غريقا أو يبلغ الشاطيء منهوك الجسد خائر العزيمة وقد أضاع من راحته أضعاف ما كسب من الوقت والمسافة

والطريقة الثانية طريقة الاناة والهوادة وهى أبطأ سيرا وأقل جرأة ولكن نجاحها مضمون والخطر فيها قليل . وهى أن ينزل السابح فى الماء على مهل فاذا احس صدمة من التيار انحرف عن طريقها واذا بصر بموجة عالية لامفر منها تطامن لها . واذا قذفت به اللجة بعيدا عن وجهته لم يعاندها

مخافة أن تعطبه ، واذا استوثق من السهولة والرفق عاد فاقترب مما كان يزور عنه ، فقد يطول على ذلك صبره ومحاولته ولـكنه بالغ فى نهاية الامر مكانا قريبا أو بعيدا من الشاطيء الآخر وهو على يقين من السلامة

أصاب ذلك العالم الحكيم . فان للسلامة طريقا غير طريق الغيرة، ولقد نظرت الى النيل فى تلك الساعة فكأنني اتمثل فيه لجة الاصلاح الدافقة تزر زئير الضياغم فى غابها ، وكأننى اشهد سباق المصلحين فيها من قديم العصور : فسابح جاش تيار الدم الحى فى عروقه بأقوى واجسر من تياراتها فخرج ظافرا علي استقامته يهزأ بالعطب وبالتعب ، وآخر يتخبط يائسا ثم يهوى الى القاع صامتا لا تفلت منه صيحة استغاثة . هذا على مدى وثبتين من الغاية يجمد كالمشلول لا ترفع يده لتناول كأس النجاة . وذاك على حافة البداية يسرف فى ضرباته ولا يدخر منها ضربة لساعة كلاله وفتوره . وانما ارتمت عيناك قابلتك اذرع ممدودة توشك ان تلحق باجسادها ، وجثث طافيــة اغمضت اجفانها على هذه الحومة الصاخبه ، وغائصون تأكلهم الحيتان فلا تبقى لهم أثرا ، وسابقون يسترهم مثل العثير من رشاش ضرباتهم العاتية ، وصرخة واحدة تسمعها من جميع الجهات وهى : الى الامام ، الى الامام

تلك هي لجة الاصلاح

واني لشارد اللب فى غوامض هذه اللجة اذ صفرت باخرة ثم أرسلت الينا من دواليبها العريضة موجا كغليان القدر ترك زورقنا المسكين يعلو ويهبط كأنه كفة ميزان خبطتها يد هو جاء . ثم خرجت فى طريقها تشق النهر شقا ولا تلتفت يمنة ولا يسرة . فقلت للنوتي : مابال هذه الباخرة تستقيم فى سيرها ، الا تخشى الغرق ؟؟

فابتسم أخو النوبة ولم يزد ــ ولو أنه اطلع على مافى نفسى لزاد قائلا :

نعم أن للاصلاح طريقتين : طريقة الزورق وطريقة الباخرة ولكن الاقوياء لا يعرفون الا طريقة واحدة وهي طريقة الباخرة

***

على أنه يحسن صنعا اذ لا يطلع على ما في نفسي . فانه يحاسبني الآن على رحلة واحدة ، ولو أنه عرف الى أين اذهب بزورقه في رحلتي الثانية لعظم الاجر وطال الحساب

الحياة القلقة

ما اتعس حياة الفطناء المسترشدين باحساسهم المهتدين بعاطفة الميل الى الجمال في نفوسهم الذين يرون في كل شيء حسنا ويرون في كل شيء عيبا

انهم يرغبون في كل شيء لانهم يعرفون حسنه ولا يرضون عن أي شيء لانهم يلمسون قبحه ويحيون حياة لا تستقر بين الطلب والنفرة والشغف والزهد والراحة والألم والغبطة والندم

في الخطابة

الخطباء اثنان : خطيب يسوق الكلام وخطيب الكلام يسوقه . والاول يملك السامعين ويتصرف بهم ويلعب بعقولهم وأما الثاني فلا ينال منهم أكثر من اعجاب كاعجاب الاستاذ بتلميذه أو ثناء يلفظه اللسان ولا يتحرك له الوجدان

الدين بين الخاصة والعامة

ماحاجة السابح في الجدول الى نجم القطب ؟؟ انما يحتاجه الماخر في المحيط وكذلك العامة لا يحتاجون الى الدين احتياج الخاصة اليه

لحظة مع نيتشه(١)

أيام من التوعك نحب أن نشرك القارىء فى خيرها ونسأل له الله أن يجنبه شرها . وماخيرها الا صفحات من القراءة المتفرقة نزجى بها الوقت ونسرى عن الفكر بقدر ماتستطيع النفس العازفة والطبيعة المنحرفة . وليست هى والحمد لله من القراءة السياسية فاننا نعتد جو السياسة كجو المدن ممايبنغى أن لايخوضه المرء أو يقر فيه الا على أكمل صحة ، لانه جو تختلط فيه الانفاس وتزدحم المناكب وتكثر الجلبة والصخب وينتشر عليه من مجاجة النفوس الكريهة ونفث الضمائر الموكوسة ما يحتاج الصبر عليه الى مناعة وحيطة لايطيقهما من يطلب العافية والمعافاة . وأى جو من الاجواء السياسية هو أكدر وأسرع عدوى وأخبث جرثومة وأدنى الى تغثية النفس من جو مصر السياسى فى هذه الايام ؟ ؟

وسنقتصر فى مانورده هنا على خلاصة مما تصفحناه من مجلة أمريكية قديمة وقعت فى أيدينا مصادفة ، وهى مجلة أسبوعية ممتعة تقرأ فى العدد الواحد منها مالاتقرأه فى مجلات مختلفة من طرف الادب والعلم والفن ، ويجمع لك ناشروها على سبعين صفحة أوقراب ذلك موضوعات بينها من الاختلاف والتنوع ما بين الكلام مثلاعلى التصوير اليابانى الحديث ووصف زيارة لنيتشه فى مرضه ، أوما بين «توجيه دورة الحياة» ومقال فى نقد المواطن الضعيفة من الادب الامريكى ، أو مابين « مشاهدات ماكس نوردو » فى اسبانيا والنظر فى مآل المانيا الجديدة . وهكذاممايشط النفس

---

(١) الافكار فى أول اكتوبر سنه ١٩٢٢

الى القراءة ويدفع عنها سآمة التشابه . وقد نكتفي بما نورده في هذا المقال وقد نعود وقتاً بعد وقت الى موضوعات أخرى اذا رأينا في العودة فائدة ، وأبى القارئ الا ان يشركنا في محصولنا كله .

أما حديثنا اليوم مع القارئ ففيم يظنه يكون ؟ ؟ لانخاله يجهل ماهو حرى بان يقع عليه اختيارنا لاول وهلة من بين هذه الموضوعات — اذ ماذا عسى أن يكون أدعى الى السلوى والاعتبار من وصف مريض نابه كان في كتاباته من أشد الناس قسوة على المرضي وكان في حياته من أحوج المرضى الى العطف والرحمة ؟ ؟ ذلك هو فردريك نيتشه المفكر الالماني الذي حارب المرض أعنف حرب حتى غلبه هذا العدو الغاشم فصرعه بعد أن قيده في أسره اثني عشر عاماً مجرمات من أعوام الجحيم ، وبعد أن سلبه كل مامنحته الحياة والصحة : حتى فكره وقلمه الذي كان أمضى أسلحته في هذا العراك الوبيل .

وليس نيتشه بحاجة الى التعريف ـ ولا سيما بعد الحرب الكبرى ـ فنعرفه الى القارىء ، ولكننا نومىء الى أسباب مرضه الذي لزمه هذا الزمن الطويل . وهي على الجملة سوء الهضم المزمن وكد الذهن وما كان يقاسيه من صراع عاصف في أعماق نفسه ومن عنت ملتف بين أبناء قومه ، وقد يضاف الى ذلك أثر من الوراثة . اذ كان أبوه كما جاء في بعض الاسانيد مصابا بمرض في الدماغ . وظلت هذه الاسباب تتعاوره حينا حتى القته طليح آلامها فخولط في عقله ثم جن جنوناً مطبقاً وظهرت عليه دلائل هذا الجنون في أوائل سنة ١٨٩٩ عقيب نوبة عصبية . ومن ثم بقي مذهوب العقل منهوك الجسد ، لا يفيق فترة حتى يتنكس ويعود الى ما كان فيه أو الى شر منه . ولبث على هذا الحال من الضنى والعذاب اثني عشر عاماً

طوالاكان في أثنائها كالطفل الرضيع لا حول له ولا حيلة موكولا الي ما يشمله من حنان أمه وأخته وعطف الاصدقاء من مريديه والمعجبين به : حتى أدركه الموت براحته في أواخر شهر أغسطس من سنة ١٩٠٠ فقضى بذات الرئة . وكانت خاتمة علله

والمقال الذى نشير اليه يصف زيارة قصيرة له في خلال هذا المرض . كتبته مؤلفة ألمانية معروفة في قومها اسمها جابرييل روتر ، وهى كما قالت ممن اتخذوا نيتشه معبوداً أدبياً لهم . ولا يخلو من بعض العجب أن يكون لنيتشه عابدات بين النساء المطلعات ، لما يعلمه قراؤه من سوء رأيه في المرأة وتعييره للمخدوعين بدعواها ودعاوى أنصارها . فقد كان يستصوب في كلامه عليها آراء الجامدين من الشرقيين ، وكان يستكثر عليها الاشتغال بالعلم وطلب الحق ويقول « ما للمرأة وللحق ؟ ؟ انه من مبدأ الامر لم يكن شيء أغرب عن طبعها ولا أكره مذاقا لديها ولا أعدى لها من الحق . وأنما صناعة المرأة الكبرى التزييف وهمها الاعظم الظهور والجمال » وكان من قوله في موضع آخر « ان الرجل الذى يجمع بين عمق الروح وعمق الشهوات والذى فيه من الخير العميق ماهو أهل للقسوة والخشونة وما يسهل اختلاطه بهاتين الخلتين لا يسعه أن يرى في المراة الا مايراه الشرقيون ، لا يسعه ان ينظر اليها الا نظره الى قينة مملوكة وحرز مدخر ومخلوق مقضي عليه بالخدمة واداء واجبه بهذا الاعتبار . ولا مناص له من أن يتخذ موقفه في هذه المسألة من مرتقي الحكمة الاسيوية الزاخرة معتمداً على تفوق مافي آسيا من بداهة ... الخ »

فما الذى أعجب المؤلفة الذكية من هذه الآراء في بنات جنسها ؟ ؟ اتراها شعرت في صميم وجدانها بصدق حكمه فكان ذلك من بواعث اعجابها به ؟ ؟

ولـكن ترجمة نيتشه وفلسفته وحياته كثيرة المتناقضات، فليست هذه ولا غيرة تلميذاته الاخر على التبشير بفلسفته بأغربها وادعاها الى الدرس والتأمل . وكفى انه هو نفسه ابن قسيس وامراة متعبدة يشن الغارة على الدين ورجال الدين ويقول فى النعى على عقيدة آبائه مالم يقله احد قبله . واليك كلام المؤلفه الالمانية فى ماوصفته من خلق امه وسمتها. «وكانت ارملة القسيس لاتريك فى بادى هيئتها أعوامها السبعين ولا يتخلل شعرها الاسود أثر من الشيب وقل أن تلمح على جبينها القوى تغضن الاسارير . وكانت جالسة الى مائدة للخياطة فاحمة اللون على مقربة من النافذة . وعلى النافذة لوحة مكتوب فيها هذه الآية (ان الجبال تزول والهضاب تتحول ولـكن لاتزول عنك رحمتى ولا يتحول عنك عهد سلامى) وهى تذكار عطف أرسله اليها بعض الاصدقاء حين علموا بمرض ولدها الشديد. ولطالما استقرت على هذه الاسطر عينان غشتهما الدموع والتفت أمامهما ذراعان مطويتان للصلاة . !.»

فكم من نقيضة فى الحياة يقرأها الفكر فى هذه الـكلمات القليلة ! ! أم تناهز السبعين ولا تشيب وولد تبرح به الاسقام فى عنفوان الصبا .... وعزاء تجده الأم في تلك الآية يخفف عنها مايكرب نفسها من رزيئة ولدها ، وقد أطار البحث فى هذه الآية وأشباهها صواب الولد وأقلق راحة نفسه وجسمه ورمى به فى ظلمة لايغنى عنده فيها ايمان ولاعزاء ــ والنفسان بعد أقرب ماتـكون احداها الى الاخرى ! ؟

ومما حدثتنا به الـكاتبة أن هذه الام الصبور كثيرا ماخطر لها أن تلتمس الغفران فى الدار الآخرة لولدها باحراق مخطوطاته التى لم تطبع . وكادت تفعل لولا ان ابنتها عادت اذ ذاك من أمريكا فألفت أمها على هذا

العزم تهم بابادة كل مافيه خروج على الدين من تلك الكتب . فلقيت عناء كبيرا فى صرفها عن هذا العزم وأقنعتها بعد مشقة بترك هذه المخطوطات فى صندوقها . لان كتابة العبقرى ليست بملك لاهله ولكنها ملك العالم أجمع

ثم تعود الكاتبة فتحار فى اختلاف اهواء القلب الانسانى وتعجب لزهو الام بشهرة ولدها التى كانت تسوق الى منزلها كثيراً من الزوار المعجبين به . وما كانوا يعجبون من آرائه الا بما كانت تود هى احراقه ومحو آثاره !

أما الزيارة التى قصدت الكاتبة وصفها فقد جاءت اتفاقا على غير انتظار . وكانت لاتطمع هي فيها ولا تطلبها . اذ كان المريض معزولا وحده فى حجرة منفردة لايدخلها غير أمه وأخته والطبيب الذى يعالجه ولا يسمح بالدنو منها لاحد غير هؤلاء . وكان لا يسمع له صوت فى المنزل غير ما يتردد بين حين وآخر من أنين خفيض مكتوم ينطلق منه على غير ارادة ولا شعور فى معظم الاحيان . وسبب الزيارة أن أحد المصورين رغب فى تصوير نيتشه فى بعض فترات صحوه حيث كان يجلس ساعات طويلة تحت دالية من دوالى الحديقة الصغيرة . فأجيب الى طلبه ولكنه لم يوفق الى ارضاء أم المريض ولا أخته وجاءت أعراض السقم فى الصورة أظهر مما أحبت تلك الام المسكينة أن تراه على ملامح ولدها الذى انقطع الرجاء من شفائه ـ وكان لايزال من أسباب العزاء لقلبها انه على خطورة سقامه وثقل وطأته كان فى ماترى من ظاهره مشرق الطلعة وضاح الجبين لاتشف سحنته عن داء كمين . فلما كملت الصورة أرادت أن تتحقق صديقتها بالمشاهدة خطأ المصور وتقصيره ، فدعتها الى زيارة حجرته

قالت الكاتية : « فتبعت السيدة العجوز على الدرج الى الطبقة الثانية وكانت ركبتاى — ولا أكتم ذلك — ترتعدان ، وفتحت الأم بابا وقالت وهى تدخل الحجرة : اقتربى : انه لن يشعر بك . فدنوت فاذا بى أرى قبالة الباب بحيث يتجه بصرى عند دخولى فردريك نيتشه جالساً على كرسي مائل الى الوراء . فوقفت لحظة اتأمل تلك المعارف المسمرة من لفح الشمس البالغة فى لطافتها على مافيها من القوة . وانظر الى لحيته الغزيرة وانفه الدقيق الاقنى وجبهته النبيلة . وكانت عيناه الواسعتان مصوبتين الى بنظرة نافذة ملحة جادة ، وكانت يداه الشاحبتان البديعتان مكتوفتين على صدره كأيدى الصور المنحوتة على المقابر القديمة . وقفت ثمة ارتجف من وقع نظرته التى كانت تنبعث الى كأنما هى شعاع يومض من هاوية للالم والعذاب بعيدة القرار . ثم ارتخت عيناه بعد هنيهة وأغمضهما أغماضة خفيفة فلم يبق بادياً منهما غير البياض يروغ تحت الاجفان المسدلة فى عماية مخيفة »

« ونادت أمه وكانت واقفة بجانبه : تعالى — فنظرت فاذا على ذلك الجبين الذى يحكى جبين الموتى خلجة مؤلمة تخفق عليه، واذا بصوت يقول : « لا . لا ياأماه. كفى ! كفى ! »وكأنه يخرج من اعماق ضريح . وما كان فى الدنيا من قدرة كانت تستطيع هنالك أن تسول لى ازعاج ذلك المناضل فى سبيل الحق وهو فى سكينته تلك يفنى على مهل . فتراجعت . ومضت برهة قبل أن تثوب الى نفسى وأقوى على مفاتحة أمه بكلمة »

وهكذا كانت خاتمة أيام هذا الداعية الناقم على الرحمة والرحماء ، القائل أن ليس للضعفاء من معونة لدينا الا أن نهديهم الى طريق الفناء ، شاءت الاقدار أن ينفق من عمره المنغص المضطرب اثنتى عشرة سنة لامعول له فيها على شيء غير ما كان يحوطه من رأفة ذويه وأصحابه . ولسنا ندرى

كيف كان ينظر نيتشه الى تلك الرأفة لو قدر له أن يتناول قلمه مرة أخرى، ويكتب فلفسته من جديد : أكان ينظر أليها من جانب أنانيته فيحمدها ويزكيها أم ينظر اليها من جانب فكره فيأسف لها ويشكوها ؟ ؟ ولا ندرى كذلك أيهما كان خيراً له فى الحقيقة : أن تزهقه القسوة لاول عام من مرضه أم أن يثوى فى قبضة المرض معذباً ميئوساً من صلاحه هذا الثواء الذى يمل فيه النعيم والدعة فضلا عن المحنة والبلاء ؟ ؟ تلك مسألة فيها نظر .

على أنه مما لا شك فيه أن الطبيعة لا تستغنى عن فضيلة الرحمة . ولو كان يسعها أن تستغنى عنها لما احتاجت اليها فى أهم أغراضها ، وهو حفظ النوع، فأودعت قلوب الوالدين هذه الرحمة الخالصة بالبنين

تهويل المصلحين

معظم المصلحين ـ حتى الكبار منهم ـ لا يقدرون مناعة الانسانية حق قدرها ولا يحيطون بقوة قابليتها للتوليد والتشكل على حسب الاحوال. ولا يعرفون ذلك الينبوع الزاخر الذى منه استمدت وجودها ومنه تستمد العون كلما تقطعت بها الاسباب وخيف عليها الهلاك ـ تلحظ جهل المصلحين هذا فى شدة وجلهم على الانسانية وهول انذارهم لها كلما رأوا منها ما يحسبونه انحرافاً أبديا عن الصواب أو شططاً بائنا عن سبيل النجاة . وشكراً لذلك التهويل منهم . فانهم لو فطنوا الى قوتها وصلابة عودها وأن لها بنية على طول الزمن تهضم الادواء كما يهضم الشاب القوى وعكات الهواء لتبدلوا من غيرتهم تراخيا ومن غضبهم تغاضياً . وأنى يكون لهم أن يفلحوا فى دعوة خير بغير تلك الغيرة وذلك الغضب ؟

معرض الصور المصرى

للفن دلالة على مزاج الامة وخواصها لا يدلها العلم ولا الصناعات ، لان العلوم تنقل والصناعات تقتبس فتتساوى فيها الامم من علم منها ومن تعلم ، واذا هى تفاوتت فيها فشبيه ان يكون تفاوتها فى المقادير لا فى الصفات والكيفيات . لان القضايا العقلية كالماء الطهور لا لون لها ولا طعم ولا رائحة ، والمصنوعات اليدوية آلية يكاد يتماثل فيها الانسان والاداة الجامدة ؛ فلا فرق بين نظريات اوقليدس يدرسها السويدى فى أقصى الشمال أو الافريقى فى أقصى الجنوب ، ولا خلاف بين الآلات يركبها الامريكى من مواد معروفة وبمقادير محدودة أو يركبها الزنجى من تلك المواد وبتلك المقادير — وانما تتفاوت خصال الامم وتتمايز ملامحها الباطنة بالفنون والاداب . فالنغمة الموسيقية تترنح لها أعطاف امة طربا وزهوا والصورة البارعة تتراءى فيها نماذج الجمال فى نفوس ابناء تلك الامة والقصيدة البليغة تلمس بها مكامن شعورهم ونجوى ضمائرهم والرواية الصادقة تعرض لك علاقاتهم وأواصرهم وتمثل لنفسك طبائعهم ومآلفهم — هذه المبدعات الفنية أو واحدة منها تنبئك عن اخلاق الامم ومبلغ رقيها النفسى بما لا تنبئك عنه جميع علومها وصناعاتها ومخترعاتها ، فلا تؤمن برقى أمة بلغت فيها المعارف العقلية والصناعية أوجها الأعلى اذا هى كانت مع ذلك مقفرة الفنون ضئيلة الآداب ، اذ لاعبرة فى رقى الشعوب بغير الرقى الذى تشترك فيه المشاعر والخوالج النفسية ولا فائدة من علم

سام لا تستخدمه نفس سامية . وعلى انه هيهات يتقدم شعب فى علم أو صناعة ان لم يصحب تقدمه هذا تقدم فى فنونه وآدابه ، لان نهضة العلوم لاتتأتى بغير دوافع نفسية وهذه الدوافع لا تكون حيث لا تفقه النفوس محاسن الحياة ومغازى الشعور الصحيح ثم تعرب عنها فيما تتغنى به أو تنشده أو تصوره أو ترمز اليه

لذلك يسرنا ما نراه من بوادر النهضة الفنية في مصر ونستبشر بمظاهر هذه النهضة لانها الدلالة الصحيحة على تطور الامة المصرية فى مشاعرها الباطنة . وليس من اتفاق المصادفات هذه النهضات نراها فى آن واحد تظهر فى غنائنا وتمثيلنا وتصويرنا وشعرنا الحديث — فالشعب المصرى اليوم يفهم مايغنيه فلا يحمل الكلمات مطايا بكاء لا معنى لها الا ان تحمل الي اذانه الالحان السقيمة والنغمات الفاترة ، وهو يشهدعلى مسرحه تغيرا يتدرج الى الوصف الاجتماعى الصادق ، ويرى من ابنائه من يشتغل بالتصوير ويعنى باتقانه والتبريز فيه حباً فى الفن لاطمعاً فى الكسب ولا تطلعا الى الشهرة بين الجماهير ، وقد أخذ الحجر المصرى ينطق بلسان آدمى بعد ان كان يروى عن تماثيل جوفاء صاغتها البلادة والقدم ـ حدث هذا الانتقال في أوقات متقاربة ترجع كلها الى أوائل العقدين الاخيرين من الجيل الذى نحن فيه فكان التوافق فى تنفس الفنون كلها تنفس الحياة واستيقاظها دليلا على تنبه قد شمل الامة بأسرها ، وحق للمتفائلين ان يستشفوا من وراء هذه اليقظة الفنية روحاً قومية ناشطة من سبات الجمود كما يستدل الفاحص على جيشان الماء فى جوف الارض بانبجاس ينابيعه فى الاماكن المختلفة دفعة واحدة.

ومن أقرب شواهد هذه اليقظة الفنية افتتاح معرض الصور المصرى

الذى اعده فى هذه الايام عشاق التصوير وطلابه وقصروه على الصور من صنع المصريين وحدهم ليكون عنوانا خاصاً تمتزج فيه الروح الفنية بالروح القومية ، فأحسنوا صنعاً ودلوا على ذوق سليم

زرت هذا المعرض أمس فرأيت زرعاً ينجم فى منبت خصيب وأملا يشرق فى سماء صافية . فاذا سلم الزرع من لوافح السموم وخلت السماء من دواهم الغيوم ، أصبحنا بعد قليل ولنا فن مصرى رائع يذكر كلما ذكرت فنون الامم ، ويسمع الناس اسمه فلا يكون عندهم وقفا على مخلفات مجدنا القديم وبقايا فن الفراعنة المهجور

لا أقول ان معرض الصور المصرى بلغ الغاية وتنزه عن المآخذ فهذا مالا يقال فى معرض من معارض العالم . ولكنى أقول انه فى طريق التقدم والاتقان وفى النهج القويم الى التكمل والنضج ، وهذا كل ما يطلب منه اليوم

وعندى ان فن التصوير يترقي فى ثلاث درجات لا يصعب على مصورينا الاماثل بلوغ ذروتها العليا مع المثابرة والتوفيق . فاول هذه الدرجات درجة النقل البحت والثانية درجة النقل بتصرف يوحى الى الناظر احساس المصور بما ارتسم فى نفسه وجرت به ريشته . والثالثة درجة الابتداع والرمز المعنوى وهي القمة التى لا يتسنمها مقلد ولا يسمو اليها انسان من غمار الناس مهما بلغ من فرط تعلقه بالفنون واعجابه بظواهرها

فى الاولى يظهر نظر المصور ويده ، وفى الثانية يظهر ذوقه وشعوره ، وفى الثالثة تظهر روحه وعبقريته . ولعل هذه المرتبة هى التى يقصدها جيتى بقوله : « ان أسمى وظائف كل فن هو تمثيل صورة لحقيقة سامية فى زى شكل محسوس » والقدرة كل القدرة انما هى فى ادراك الحقيقة

السامية ، فانها لا تحتاج الى حاسة مضافة فى الانسان ولكنها تحتاج الى فطرة تحسن تصور المحسوسات المدركة رفيعها ووضيعها . فن استطاع تمثل الحقائق السامية وتمثيلها كان لبصائر الناس بمثابة المجهر لابصارهم : يريهم ما كانوا يحسبونه ضباباً مبهماً فاذا هو أمامهم نجوم واضحة مستقلة تدور فى افلاكها بحساب ونظام مقدور . فلا يلتمسن الناس نفائس الفن النادرة فى عالم الضباب والاوهام ولا فى عالم الانفاق والسراديب فان عالم الفن مشرق السماء واضح النهار ، لا تلوح الاشباح والعفاريت فى لياليه الا لاطفاله وجهاله ، وانما هى آفة النظر القصير ترى صاحبها الضباب حيث تسطع النجوم وتبدى له الخيالات الوهمية حيث تبدو الحقائق السامية

وفى المعرض المصرى الكثير من صور النقل المحكم وليس بالقليل بين معروضاته ما توخى فيه أصحابه التصرف المؤذن بالنجاح والاتقان المبشر بالاختراع والابداع . فنهنئهم بما بلغوه ونرجو لهم المزيد المطرد . ونقول لهم ان بين أيديهم وأيدى عشاق التصوير عامة أمانة كبرى يؤدونها لمصر فليبذلوا جهد المطيق وليؤدوها على أحسن ما يستطاع من الاخلاص والوفاء

لقد كان لمصر فن جليل نشأ فى حجر الموت المقدس والخلود فخلا من بهجة الفن الاغريقى ورشاقة الفن البيزنطى وبذخ الفن الفارسى وتنسيق الفن العربى . ولكنه امتاز بالضخامة ومسحة الدوام والثبوت فلم يضارعه فى هذه الميزة فن من الفنون . بيد أن مصر اليوم غير مصر الفراعنة الاقدمين ، فمن الرجوع الى الوراء أن نبنى على أساسهم وننسج على منوالهم ونحن فى القرن العشرين

نشأ الفن المصرى القديم فى ظلال الموت والخلود فلينشأ الفن المصرى

الجديد فى كنف الحياة والمثـل الاعلى . وانه لن يخسر بذلك ، بل هو لا شك يكسب وينمو ويقوى لان الحياة أعمق من الموت والمثل الاعلى اسمى من الخلود

....

الوصف الشعرى

تذكرنى آراء كتابنا فى الوصف الشعرى بقصة ذلك الحاكم الامى الذى جىء له برجلين يمتحنهما فى الخط ،فأمرهما بكتابة كلمة ثور وكان أحدهما أميا مثله فرسم الثور رسما ساذجا وكتب الثانى الـكلمة بأجود خط وأحسنه فاستجهل الحاكم صاحبنا هذا وقضى للاول عليه لانه رأى قرنى الثور وذنبه وأظلافه فى ورقة الامى ولم ير أثرا لذلك فى ورقة الـكاتب الخبير

وكذلك يظن كتابنا عفا الله عنهم أن الوصف الشعرى من شأنه أن يمثل المناظر للعين فيغنيها عن النظر ويجلهون فى أميتهم الفكرية انه وصف يرمز الى العواطف والاحساسات التى فى النفس كرمز الحروف الى الصور المعنوية ، فاذا وصف الشاعر الوردة فليس المقصود من وصفها ان تعلم أى شيء تشبه بل المقصود أن تعلم أى شيء هى فى النفس . والشاعر المطبوع لا يعنيه أن يشبه حبيبه كما يشبه الشرطة المجرمين فى اوراق تحقيق الشخصية وانما يعنيه أن يشبه كلفه به وهيامه بمحاسنه . وما يأتى فى خلال ذلك من تمثيل تلك المحاسن فانما يأتي عرضاً لاظهار مبلغ ذلك الهيام. أو للدلالة على استحقاق المحبوب له ان كان لتلك الدلالة قيمة

الحق والباطل

كثيرا ما يكون الباطل أهلا للهزيمة ولـكنه لا يجد من هو أهل للانتصار عليه

كتاب الاخلاق (١)

هو عجالة مفيدة في الاخلاق ألفها لطلاب هذا العلم الاستاذ الفاضل الشيخ أحمد أمين المدرس بمدرسة القضاء الشرعي وسن بها سنة محمودة لمدرسي الاخلاق في مدارسنا ومعاهدنا العلمية ، فقد كان العهد بالفصول الاخلاقية ان تكون موضوعات انشائية فارغة يفتتحها مؤلفوها بابيات من الشعر أو مقتبسات من الحكمة في الحث على هذه الفضيلة أو التنفير من تلك الرذيلة ، وكثيراً ما يمدحون الخلة الواحـدة ويذمونها في صدد واحد ويعـدون ذلك من آيات البراعة والافتنان . وكانوا اذا كتبوا في مناقب النفوس أو مثالبها نظروا اليها كانهـا أجزاء مودعة في النفس بعناوينها كما تودع العلب والحقاق رفوف التجار . وكانما ليس عليهم الا أن يرفعوا حجاب النفس فيروا فضائل الشجاعة والصدق والعزم والمروءة ماثلة في أماكنها أو يروا هذه الاماكن خاوية منها تنتظر ايابها اليها . وما أحقر علم أخلاق يكون على هذا المثال

أما العجالة التي بين أيدينا فقد خالف فيها مؤلفها ذلك النمط العتيق وعالج رد الاخلاق الى عللها الطبيعية فجمع بين النفس والجسم بسبب ، ولحظ طبائع الحيوانية وهو يتكلم في خصائص الانسانية ، ورأيناه يكتفي بالقواعد المجملة ولا يستطرد الى ما وراءها من المسائل الخلافية والشكوك التي لاآخر لها ، وحسنا فعل ، فان خليقا بالطالب أن لا يتعلم طلاسم وشكوكا

(١) الاهرام ١٠ مايو سنة ١٩٢٠

تضل لبه وتبلبل قلبه وحسبه ان يجد من مادة التعليم ما ينتهى منه بحثه واطلاعه وتجربته وتفكيره الى حيث يقوده استعداده

ومع ثنائنا على هـذا النحو الذى نحاه المؤلف تنبه الى تساهل فى العجالة وددنا لو خلت منه ، وهو تحميل التعريفات والضوابط فوق ما يحمله لفظها ، ومثال ذلك قوله في تـكوين العادة « كل عمل خيرا كان أو شراً يصير عادة بشيئين ميل النفس اليه واجابة هذا الميل باصدار العمل مع تكرار ذلك كل كله تكراراً كافياً . أما تكرار العمل الخارجى وحده اعنى مجرد تحرك الاعضاء بالعمل فلا يفيد تكوين العادة . فالمريض يتجرع الدواء المر مراراً وهو فى كل مرة كاره له يتمنى اليوم الذى يشفى فيه فلا يتجرعه ولا يصير شربه الدواء عادة له . »

ولقد كان يصح اطلاق هذا القول لو أننا شاهدنا رجلا يكرهونه على تجرع الافيون فيتجرعه مرة بعد مرة كارهاً مجبراً ثم لا يرغب فيه مختاراً بعد الامتناع عن اكراهه عليه ، أولو رأينا رجلا يصاب بالصرع فتجرى منه أعمال وأقوال تعودها كلما أخرجته النوبة عن طوره واستطعنا أن نقول انه يميل ويجيب داعى الميل فى هذه الحالة ، أولو أمكنا أن نجزم بأن مشى النائم في نومه لا يسمى عادة يصدق عليها كل ما يصدق على العادات من مران الاعصاب على تكريرها وسهولة اتيانها بها . فاما قبل ان يثبت شىء من ذلك فلا يصح ان نجعل العادة رهينة بالميل والاجابة باصدار عمل . ثم ان المعروف أن العادة تكون فى العجماوات كما تكون فى الانسان ، فاذا سيرنا حيوانا فى طريق واحدة مرارا متوالية صعب تحويله منها الى غيرها ولا نحسب نظرية الميل واجابته باصدار العمل تفسر العادة فى هذا الحيوان

ومما يؤخذ على المؤلف استشهاده بغير الثقات أحيانا ونقله أقوالا

لرجال مشهورين كتبوها في اعمار لايحتج فيها برأى الرجل مهما كان نصيبه من العبقرية وخصوبة الذهن ، من ذلك ما استشهد به من كتاب آلام فرتر للشاعر جيتى اذ يقول « ما أولى انقباض النفس ان يكون غيظاً كميناً من نقص كفاءتنا وسقوط قدرتنا وسخطاً على أنفسنا مصحوباً برذيلة الحسد التي تهيج فينا الزهو الشديد والعجب المفرط الخ الخ »

فقد يستظرف المقال أو القصيد يصنعه الشاعر النابغ في الرابعة والعشرين من عمره يصف فيه عشقه وهواجس فؤاده ، ويتمنى فيه ويتخيل ما شاء له الصبا ونجابة العقل ، فاما الحكم على حالات النفوس وأصول الاخلاق فما لا يستفاد من فتى في هذه السن ليلقي على الطلبة أو يدرس لهم كما تدرس صفوة الحقائق وخلاصة التجارب ، ولا سيما اذا كان ذلك الفتى يسوق بطل روايته الى بخع نفسه حزناً وانقباضاً وأسفاً على شيء يفوت الكثيرين ولا يقتلون انفسهم أسفاً عليه

الرجاء (١)

ان الرجاء طبيعة الحياة ، لا بل هو اسم آخر من أسمائها ، فما كانت الحياة الا املا يتحقق لصاحبه على غير ارادة منه ، وما كان حي قط الا أمنية في ضمير الغيب ، غلب فيها الاقدام على الاحجام ، والتوفيق على الحبوط ، وسنة الخلق على فوضى الاهمال . فاذا هي ذات سوية ، ونفس شاعرة ، ظهرت يسبقها الرجاء ويحدوها الرجاء ويستاق ركابها الرجاء ، ولوكان غير الرجاء عنوانا للطبيعة لما كان لنفس حية من سبيل الى الوجود

أرأيت حبة البر الضئيلة متروكة في حيث يترك الرفات السحيق ؟ ؟ أين هي في قلتها وصغرها من عناصر الشك المحدقة بها ، وزواجر الخوف المترصدة لها ، تثقلها الارض بأديمها ، وتنذرها الرياح بسمومها ، ومن فوقها منجل للحصاد كم حصد من قبلها سنابل وحبوبا ، لا بل قبائل وشعوبا ، فالوانا من نبت الحياة وضروبا ، فما كان يعوزها في كل ذرة من التراب نذير جهير ، وفي كل صوب من الفضاء عدو قدير

تلك الحبة لو وقفت لحظة في مكمنها تزن قوتها الى تلك القوى ، وتقسم جرمها على تلك الاجرام . وتقيم حقها في النماء على ما يظهر لها من هذه الفروق وتبنى أملها في الفلاح على ما أصاب الزروع الفانية من قديم ، — فأي مثوى كانت تراه لمداراة ضعفها وذلتها ارأف بها من التراب ؟ ؟ وأي مقر كان أحق بها من ذلك القبر المستور ؟ ؟

---

(١) العدد الثالث من الرجاء

انه مأمنها الذى لا تخاف فيه . . . وفى القبر يأمن الاموات ! !

* * *

لكن الرجاء لا يدين بهذا المنطق العقيم . انه يقول لها انهضى فتنهض، مزقي غلافك فتمزقه ، وشقى أديم الارض فتشقه ، وكافحى الرياح فتكافحها ، وابلغى حظك من التمـام فتبلغه . فاذا هي زرع بهيج مستو على سوقه يعجب الزراع

وما أحسن حظ الاحياء ! !

ان تلك الحبة لا تستشير الفلاسفة ولا تأخذ بنصح الحكماء ـ انها لا تسمع لاولئك القادة المفكرين ، الذين انما يبيحون أممهم من حق الحياة على حساب ما بينها وبين القوى المقاومة لها من الفروق ، والذين يقولون لأممهم فى كل مطلب تطلبه انك ضعيفة وانهم أقوياء ، والذين يستحمقون تلك الحبة فى مجازفتها ولو انها كانت مثلهم فى حذرهم وأناتهم لما نبتت على ظهر الارض نابتة ، ولما تواجوا قبل أن يولدوا فى هذا العالم الطائش المجنون ! !

* * *

أيها الرجاء !

ما أحوج الناس اليك وما أسهل طريقك اليهم ، ، كذلك عهدنا بألزم حاجات الاحياء : الهواء والماء والضياء ، ولعمرى أن حاجتهم اليك لاكبر ، وان طريقك اليهم لاسهل وأيسر ، لقد تخطيت بهم سدود الموت فمددت لهم من ورائها رواقا رحيبا ينعمون بانتظاره قبل أن ينعموا بجوارة ، وفتحت أبواب السماء فعمرها الانسان بأحبابه وأنصاره ، واتجـه اليها بصلواته وأفـكاره ، واستأنست له أعالى الكون وأسافلها فكانما هو منها

فى قرارة داره . وكأنما انت الاثير المفروض لايخلو منه فضاء ، بل أنت أثير الروح لولاك لما أشرق عليها ضياء ، ولما جال فى نواحيها جمال السماء

ولقد قيل لاحدهم . كيف تكون جهنم ؟ ؟ فقال مكان لا رجاء فيه . وقد صدق . فحيث يسود القنوط فهناك عـذاب اليم وشيطان رجيم . وحيث يقيم الرجاء فهناك جنة نعيم ، ووحى من الله وتسليم

حزن المصريين

يعجب بعضهم لشدة حزن قدماء المصريين على موتاهم وفرط تعلقهم بذكراهم ولا يرون ذلك يوافق الاعتقاد الثابت بخلود الروح وبقاء الحياة بعد الموت ، والحقيقة أن هذا التعلق الدائم هو الدليل على الاعتقاد بوجود الميت واتصال حقوقه على ذويه فلا ينسونه ولا يهملونه . كأنما هو قريب مغترب لا تنقطع عنه الرسائل والهدايا

العصرية في الشعر

ان وصف الطيارة لاينم على روح عصرية الا كما ينم وصف قطار من الجمال دخل مدينة لوندرة أو باريس على جاهلية الشاعر الانجليزى أو الفرنسى، فاذا مثل الطيارة بدوى قادم من جوف الصحراء فليس يستخرج أحد من ذلك أنه حديث الذهن مدنى النفس . اذ ليس المعول فى معرفة عصرية الشاعر على وصفه الاختراعات العصرية . ولكن على كيفية الوصف ووجهة النظر

فائدة من افكوهة (١)

ذكرنى الجزء الثانى من كتاب الرافعى بجزئه الاول . وكنت قدرأيته ولم أقرأه الا الماما . فلما تناولته هذه المرة كان أول ما انفتح لى فيه فصل فى مناطق العرب .

فقرأت منه الى قوله : « وكذلك وجدوا اللغة الهيروغليفية القديمة. وهي من أقدم اللغات المعروفة ليس من حروفها فى المنطق (ب ج د ز ظ ض) بل أنت ترى الدليل الذى لاسبيل الى رده فى هذه الحروف الطبيعية الخالدة التى لايزاد فيها ولا ينقص منها وهى مايتهيأ فى منطق الحيوان السائم فأنها على قدر الحاجة الحيوانية مما لا يتجاوز معنى الاحساس الذى هو النطق الباطنى »

وكانما بدا للمؤلف أن بين القول بصدور اللغة فى الحيوان عن الاحساس وبين كونه يتعلم حرفا أو أحرفا من لغة الناس ، تناقضاً ولبساً لايحسن ان يترك بغير تفسير واستدراك فكتب فى الهامش : « أما الحيوان المروض المأخوذ بالعناية والتعليم والتلقين فقد يقتبس جملة من حروف اللغة التى يعلم بها وبذلك تأتي لبعض الالمانيين أن ينطق كلبه بألفاظ خالصة من اللغة الالمانية ولكنها فى الجملة من حاجات الكلب الطبيعية كالاكل والشرب فلا تخرج عن معنى الاحساس أيضاً »

وهذه أفكوهة لاضير على الاديب الرافعي ولا على أحد سواه فى

---

(١) المؤيد ١٦ مايو ١٩١٤

أن نتخذ منها فائدة أو نقيس عليها مثلا نبين به طريقة بعض الناس فى القياس

***

الـكلام فى مخارج الحروف . فـكان سبيل الرافعى بعد أن ذكر لغة الهمج وأتى على ماينطقونه من الحروف ومالا ينطقونه ثم أطنب فذكر لغة الحيوان (الطبيعية الخالدة) أن يقارن بين اللغتين ، فان توسع فليبين كيف ترقت لغة الهمج عن لغةالحيوانويظهر منزلة الاصول الصوتيةالاولى من اللغات قاطبة ، والى أى حد تتقارب فيها أصوات الحيوان وأصوات الانسان . ولـكنه جاء الى هذا المسلك المأبور فاغلقه حين قضي على حروف الحيوان بأنهالا يزادفيهاولا ينقص منها . وانما كانت جملة معترضة جاء بها لتحلية الـكلام فاعترضت كما ترى بينه وبين سبيله — وأحب الرافعى أن يكون عميقاً فى حكمه ، بعيد الملاحظة فى رأيه فاعرض عن آلات النطق فى الحيوان ونزل الى مقر الاحساس منه . فقد بسبب بين خفة الحرف أو ثقله على اللسان و بين ماسماه النطق الباطنى ، ولما علم أن العلماء سهلوا على جهاز النطق فى الـكلاب أن يتحرك ببعض الالفاظ الاوربية لم يعلل ذلك بأن جهاز النطق فى الحيوان مهيأ للتحسن والاكتمال ولا بأن الاصوات الحيوانية أصل نمت منه فروع اللغات الانسانية . بل رأى ان ذلك انما كان لان الـكلمات التى تعلمها الـكلب «كانت فى الجملة من حاجاته الطبيعية كالاكل والشرب فلاتخرج عن معنى الاحساس ايضا »

وعلى هذا فالـكلب لم يع من الالفاظ الا ماهو من معنى الطعام لان احساس الحيوان قاصر على مايتصل بمأ كله ومشربه وما ناسب ذلك من الشهوات التى يضيق نطاقها كلما انحط المخلوق فى مرتبة الخلق ، وليس لان

العالم الالمانى خفف عليه نطق الكلمة بالتعود والمران . كذلك يقول الرافعي !! فلو ان العالم عالج تلقينه اصطلاحا هندسيا اوأخلاقيا لما نبس به لانه ليس من حاجاته الطبيعة . نعم ولو كان هذا الاصطلاح قريبا فى حروفه من كلمة فى معنى الطعام كالمقاربة التي بين كلمتى سمك وسمك وعظم وعظم ! ! كذلك لو عالج العالم الالمانى ايضا ان يلقن نملة أو برغوثا ما القنه ذلك الكلب لما استعصي عليه ذلك ، لان الاكل والشرب من حاجات النمل والبراغيث كما انها من حاجات الكلاب ؛ ولا عبرة بالبون البعيد بين آلات النطق فى الكلب وبين آلاته فى النملة او البرغوث فان هذا لا يضعف من ذلك الاحساس الطبيعي او النطق الباطنى ! !

وكما سهل على الكلب أن يتلفظ بكلمات الاكل والشرب فى اللغة الالمانية كذلك يسهل عليه أن يتلفظ بما يقابل هذه الكلمات فى لغات العالم أجمع ـ وهى كلمات يتألف من مجموعها معجم ضخم يشتمل على مخارج الحروف الآدمية من اثقلها الى اخفها . فمن اين للكلب هذه القدرة ؟ ؟ أويكفى انه يسغب ويظمأ لتكون قوة النطق فيه كما هي فى الانسان ؟ ؟

***

هذا مثال من اقيسة الرافعى . وان الرافعى ليعلم كما نعلم انه منشىء مكين ولكنه يحس من نفسه اضطراب القياس ويظن ان الناس يحسون منه مايحسه من نفسه ، فيكثر من القياس كما يغالى الفقير بظاهره ليستر فقره ، وهوكلما عمد الى الاستقراء والاستنتاج وقع فى مثل هذا الخطأ

ونحن لم نقل عبثا فى مقالنا عن جزئه الثانى انه اعمل القلم ولم يعمل الراى ولكننا نقول الآن انه ماكان ليستطيع ان يصنع غير ذلك . فان شاء عددنا كتابه كتاب أدب ولكنا لا نعده كتابا فى تاريخ الادب . لان

البحث فى هذا الفن متطلب من المنطق والزكانة ومعرفة (النطق الباطنى) ما يتطلبه الرافعى نفسه ولا يجده فى استعداده

الظواهر والبواطن

ليس بين ظواهر الاشياء وبواطنها حدفاصل . فكل البواطن ظواهر مكشوفة لو أحسن النظر اليها من الجهة المثلى ، وكل الظواهر بواطن خفية لو اسيء النظر الى تلك الجهة منها . ومن البديهات عند قوم مايعد اسرارا مغلقة عند قوم آخرين

الشر الدخيل

من الناس من يفعل الخير لأنه لايجد حجة يسوغ بها عمل الشر أو يوارى بها فعل السوء وليس يزعه عن اختلاق تلك الحجة الا بلادة حس وجمود عقل . أما من هم أمهر من ذلك من الاشرار وأطبع على الأذى فيخلقون الحجة فى كل حين ويفعلون الشر كلما وجدوا حجة له

ذم الحياة

ان الذين يذمون الحياة هم الراغبون فى حياة خير منها لا الراغبون فى الموت كما يتوهم الكثيرون وربما كان ذو النقمة والسخط على الحياة أرغب فيها ممن يرضون عنها ويرتعون فى صفوها ونعيمها . كما يكون المقامر الخاسر أرغب اللاعبين فى ملازمة مائدة اللعب الى النهاية

كل ذى عاهة جبار

يؤثر الانسان أحيانا أن يكون عرضة للمقت والغيظ على أن يكون عرضة للرحمة أو الاستخفاف — وهذه علة مايرى من أصحاب العاهات والمثالب المقبوحة من تعمد اسخاط الناس واستنفاد صبرهم . يحاولون الهرب من رحمتهم الى نقمتهم ، ومن احسانهم عليهم بالعطف الى مساواتهم لهم بالمنازلة

خطرات وشذور (١)

الشرق والغرب

الفروق بين أساليب الشرقيين والغربيين فى التفكير كثيرة ، ولكن لعل أوجزها وأجمعها فرق واحد : هو أن الشرقى طبع على النظر الى غايات الاشياء ، وأن الغربي طبع على النظر الى عللها ، وربما كان سبب هذا الاختلاف أن الشرقى وجد ثمرات الطبيعة مجهزة أو سهلة التجهيز فنظر الى معناها ونحواها ، وأن الغربى احتاج الى استخراجها فنظر الى أسبابها ومناشئها

العدل والقوة

أيهما خير للناس جميعاً وللاقوياء والضعفاء معاً : أن يكون القوى عادلا ينصف الضعفاء من نفسه ولا يستأثر بحظ من حظوظ الحياة دونهم فيظل قوياً بلا منفعة له من قوته ويظلون هم ضعفاء بلا ضير عليهم من ضعفهم ، أم ان يكون مفتئتا طاغياً يؤرث باستعلائه وكبريائه نيرانهم ويتغلغل بسطوته فى دخيلة نفوسهم وفى حيث يخامر الذل قلوبهم فلا يدع ثم موضعا من مواضع الدعة الا زلزله ولا عدة من عدد النهضة الا شحذها ، حتى يضطرهم اضطرارا الى تنكب أسباب الضعف والاخذ باسباب القوة؟؟

الذى يحصل هو هذا والذى يتمناه الناس هو ذاك ولكن الذى يحصل هو الخير والرحمة والذى تمنوه هو الضير والوبال

مادام فى الارض ضعف وقوة فمن الرحمه بالعالم ان لا يتساوى الضعفاء والاقوياء

(١) نشرت طائفة من هذه الشذرات فى صحيفة الرجاء

نشر الدين

الغيرة على نشر الدين مقصورة على الموحدين ولا أظن الوثنيين كانوا يرتاحون الى مشاركة الاجناس الاخرى لهم فى نحلهم واديانهم ، لانهم يعتزون بامتيازهم بدين خاص لهم اعتزازهم بجنسهم ونسبهم ولغتهم . ويرون آلهتهم كآبائهم وأجدادهم ينبغى أن تكون لهم بلا شريك

محاكاة الطبيعة

القول بان الشاعر يغنى محاكاة للطير فى شدوه لايقل فى الغرابة عن القول بان الانسان يطهى الاطعمة محاكاة لاكلة البرسيم ونهشة اللحوم من الدواب . ان حاجة الشاعر الى الغناء كحاجة الطير الى التغريد فلم يكون أحدهما حاكياً ؟ ؟

حكم طبيعة المرأة عليها

الله مذكر فى اللفظ . ولو أمكنك أن تخطف أجوبة الرجال والنساء من قرارات أفكارهم وعلى غير انتباه منهم وسألتهم : هل الله مذكر أو مؤنث لأجابوك على الفور : بل هو مذكر . فللاله صفة الذكورة الوهمية فى بدائه الرجال والنساء على السواء ؟ ونعنى بالبدائه ذلك الجانب الذى لايعيه الذهن ، حيث مستودع التصورات والأخيلة التى لاسلطان للبحث ولا للروية عليها . فالمرأة لن تستطيع أبداً أن تتصور فى أبعد خبايا نفسها أن يكون هذا الاله الفرد بصورة الانثى ولن ترى من حق تنزيه الاله عليها أن تتصوره كذلك . فكيف تراها تصدق فى الاعراب عن حكم طبعها اذا قالت أنها لاترى فرقا بين الرجل وبينها ؟ ؟

شواغل الحاضر

شواغل الحاضر الضئيلة قادرة على أن تحجب عن بصيرة الانسان جلال الازل والابد بما تهيج من عواطفه وتبلبل من خواطره . كما تحجب الكف القريبة من العين اتساع الفضاء الذى لا نهاية له

أ . ن الصغير

لا يهز الاعصار الجارف ماء الحوض الصغير ولكنه يقيم الخضم الواسع ويقعده

المجاملات

الصادقون فى عواطفهم لا يبالون بالتحيات ومظاهر المجاملة . والذين لا يشعرون بصدق العاطفة يحسبون ان هذه المجاملات هى الاخلاص بعينه والحب فى لبابه . وقد يتفق أن يرغب المخلصون فى مجاراة الناس فيتكلفوا المجاملة فيبدو عليهم كأنهم يراءون فى اشاراتهم واقوالهم وكأنهم يظهرون من العطف للناس غير ما يبطنون لهم . على أن غيرهم يجامل بلا كلفة فيلوح عليه الاخلاص والصدق وهو بعيد عنهما

ولسنا نقصد بالاخلاص هنا ما يقابل الختل والغش . وانما نقصد به اشتمال العاطفة على النفس وشيوعها فى كل جزء من أجزائها . ونقصد بما يقابله ذلك الشعور السطحى الذى لا تعرف النفوس الضئيلة نوعا من الشعور غيره . وهو شعور لا يبالى صاحبه قبلته منه أو رفضته لان محوه أو استئصاله لا يكلفه الا أن ينزع عن نفسه غشاء رقيقا مفصولا عنها لا يمس نزعه اللحم والدم . أما شعور الاخلاص الحق فشديد على نفس صاحبه أن يفارقها . لانه يخرج منها خروج الحياة من أوصال الجسم فينزعجها من

أعماقها — وكثيراما يساء الظن بالمخلصين فيكون احتقارهم لمن يسىء بهم الظن شديداً ويزيدهم احتقاراً للمرتابين فيهم أن يروهم يحسنون الظن بغير المخلصين . ومن ثم خرج أصلح الناس للحب الطاهر من هذه الدنيا وهم متهمون جهلا باحتقارهم الناس وبغضهم اياهم . وقل فى عارفيهم من يعلم أن لهذه الجفوة سببا هم منصفون فيه غير ملومين

الشر النافع

لا يندر أن يكون القضاء على رجل شرير قادر فى شره أضر بالعالم من القضاء على رجل غفل لايرجى نفعه ولا يرهب له أذى

العصبية

لا يقدر أحد على أن يخدم الناس جميعا . واذا نصب نفسه لذلك أوشك أن لايخدم أحداً . فلابد من العصبية التى تجعله قوة فاعلة فى جانب من الجوانب فيؤدى ماعليه من واجب عام من طريق الواجب الخاص

انانية الانسانية

العالم الانساني شديد الأثرة . فهو لو علم أنه ينال الخير ممن يسديه اليه ولكن بعد تحطيمه واتلافه لم يحجم عن ذلك ولم يذكر للمحسن اليه حق الشكر ولا خطر له أنه مدين به لذلك المحسن المغمور . وكثيراًمايكون الانتفاع بالخير واهلاك جالبه أقرب طرق الانسانية الى اغتنام ذلك الخير

بين الموت والحياة

اقمت زمنا فى « الامام » ، وكنت أرى الموت هناك فى كل ساعة فكان يتمثل لى كانه وحش فاتك لكنه من الدواجن التى تقيم بين البيوت ، وكان يخالجنى فى معظم الاوقات شعور لاادرى اهو الاستهزاء بالموت أم

الاستهزاء بالحياة ، ولعل الشعورين بعد متقاربان ، فما استهزأ احد بالموت الا كان للحياة نصيب من ازدرائه

وكان يوم عيد . فقيل لنا أن هذه المدافن كثيرا ماتكون مواخير للفجور يغشاها الفساق أيام الاعياد والمواسم قضاء للبانات الهوى بين العظام النخرة والجثث البالية والذكريات المحزنة ، فقال احد الحاضرين ولعله كان متهكما : هذا حسن ! هذا انتصار للحياة على الموت . . . . أليست الشهوة من الحياة ؟ ؟

ولاأدرى بعد : لم لا يكون هذا الفجور فى المقابر انتصارا للموت على الحياة ؟؟ أليس هو انتصار للدعارة على الخلق الوثيق والطبع السليم ؟ ؟ نعم وما اقرب الدعارة من الموت وماضيع الحياة بغير خلق وثيق وطبع سليم

ارادة الراحة

لو كانت الراحة غرض الحى من الحياة لوجب أن يكون الكسل أصلح حالة يستقيم عليها نظام الجسم ، وهذا خلاف المشاهد فان الكسلان المتراخى تتداعى قواه النفسية والعقلية والجسمية ويهبط شيئاً فشيئا الى الضعة والعته والسقم . فاذا كان قولهم ان المادة تقتفى الطرق المريح صحيحاً فى الجمادات فليس بصحيح ان تقاس حركات الحياة على هذا الحكم كما فعل سبنسر ، ولابد من تعديله عند النظر الى الاحياء ، ومع هذا ارى أى قول من الاقوال فى بيان المحرك الاكبر للحياة سواء أكان قولهم بأرادة الوجود أم بأرادة القوة أم بأرادة المعرفة أو السعادة أو الاتصال ، خيرا وأشرف من القول بأرادة التطفل التى ذهب اليها « نوردو » غلوا فى تطبيق رأى سبنسر . لان الاقوال الآنفة تعين لنا أغراضا نسعي اليها واما قول

سبنسر أو قول نوردو فلا يعين لنا الا مهرباً من اغراض شتى . والا فماذا في قولك أن الانسان يريد ان يستريح من العمل اويريد ان يعمل لغيره ؟؟ ثم ماذا يعنينا أن نعلم ان المادة فى الا نسان خاضعة لاحكام المادة العامة اذا كنا نعلم أن الحياة هي قوة تحرك مادته فتنقاد لها وأن هذه القوة لا تملك زمامها حيال قوى أخرى مجهولة ؟ ؟ نعم ماذا يعنينا ان نعلم ان الحجر يؤثر السكون وهو لا يملك لنفسه الحركة أو السكون ولا مناص له من قوة تقذف به مرة من المرات لانه لا يقذف بنفسه؟ ؟ ان الذى ينبغي أن نبحث عنه هو طبيعة هذه القوة لاطبيعة الحجر . فهل هذه القوة تؤثر الراحة ؟ كلا فالذى يبنى علم الاخلاق على حب الانسان للراحة ويجعلها مرمى كل حركاته وسكناته هو كمن يبنى علم «الميكانيكا» على طبيعة الثقل فى الاجسام، لا على احكام القوى المحركة لها . وهذا الذى فعله سبنسر ومن حذا حذوه فى علم الاخلاق

حب المرأة

كل اهتمام قوى وشيك ان ينقلب فى نفس المرأة الى حب ، حتى الاهتمام بالاحتقار . . . على أن الاحتقار شعور قلما يتفق للمرأة أن تطيل فيه الى أن يبلغ حده . لانها اذا أخذت فى احتقار رجل لم يلبث أن يتحول احتقارها الى مقت أو شفقة وبين المقت والشفقة وبين الهوى فى نفس المرأة حجاز لا تطول شقته ، ولا سيما اذا كان المحتقر رجلا لبق اللسان بصيراً بأهواء القلوب

الانانية

اعتاد الناس أن ينظروا الى الانانية كأنها احبولة ينصبها الحي ليصطاد

بها الحياة . فلماذا لاينظرون اليها كأنها احبولة تنصبها الحياة لتصطاد بها الحى ؟ ؟ اننا نعلم أن الحى لم يطلب الحياة ولم يدعها اليه ولكنها هى التى طلبته ودعته اليها . فالاولى ان تكون هى التى تخدعه بالانانية لتقنعه بانه رابح منها وتضطره الى الصبر على ملازمتها . وليتقرر ذلك فى افهامنا نفرض ان الاحياء خلقوا بلا انانية الا تراهم حينئذ يخلعون ثوب الوجود لاول صدمة يلقونها فى سبيله ويرونه أهون عليهم من ان يصبروا له على الم او يتعللوا من اجله برجاء ؟ ؟ واذا فعلوا ألا تكون الخسارة اذن كونية عامة لاانانية محصورة ؟ ؟ فالانانية الصحيحة هي الايثار الاكبر فى هذا الوجود .والذى يعمل « لمصلحته » انما يعمل لشىء اكبر منه فى الحقيقة ، ولهذاتتقارب الانانيةوالغيرية فى النفوس العظيمة حتىيوشك أن لايختلفا ولايمكن الفصل بينهما

جناية آداب المدنية

كل اضطراب نفسانى شديد لايظهر اثره على العضلات والاعضاء ينقلب الى شعور مكظوم . ومن هنا نرى جناية المدنية على الاخلاق اذ تضطر الناس الى كتمان غضبهم وامتعاضهم فتغرس فى نفوسهم الحقد والضغينة وتبدلهم من عدوان الغضب عدوانا هو شر منه واضعف . وعندى ان كظم الغيظ مالم يكن مظهرا من مظاهر ضبط النفس وغلبة الارادة على الاهواء فهو هزيمة لاانتصار ورذيلة اضطرارية لافضيلة مختارة

طلب السعادة

ان طلب السعادة — ان صح انه العامل الوحيد فى حياتنا — لايفسر لنا لماذا تكون سعادة هذا الرجل فى ايذاء الناس بينما يلتمس غيره السعادة

فى الترفيه عنهم . فلا بد ان يكون هناك غرض آخر وراء السعادة اذا اصطدم بها اهملها الانسان مختارا او مكرها لاجله . وقوام هذا الغرض الضمير

الرياء والصراحة

بعض الرياء خير من بعض الصراحة . اما الرياء الذى يفضل على الصراحة فهو رياء من يحس فى قلبه مثلا اعلى للاخلاق ويشعر من نفسه بالتقاصر عن شأوه فيتجمل بستر عيوبه ليظهر للناس على مقربة من مثله الاعلى . وهو رياء مبعثه حب الكمال وحسن الظن بمستقبل الانسان

واما الصراحة المذمومة فهى صراحة من لا يرجو للناس املا وراء حاضرهم المحسوس . يرى العيوب فاشية والعصمة معدومة ولا يجد احدا براء من نقيصة ، او مستجمعا لكل مايحمد من فضيلة ، فيخلع العذار ويجهر بالفجور كانه فى حل من اتيان ما يشتهى من منكر اذ كان الناس لايخلون من مثله ، وهذا خلق اشبه بالرياء منه بالصراحة لانه يجعل قوام الفضائل كلها موافقة الناس ، فلا يشعر صاحبه فى قلبه بحب الفضيلة لذاتها ولكنه يحبها اذا وجد حوله من يشاركه فى حبها

فذاك رياء اصحاب الطبائع الصادقة الذين ينظرون بعين البداهة فيعلمون ان للناس على نقصهم الحاضر املا فى الكمال وانهم مازلوا يتكملون منذ خلقوا

وهذه صراحة اصحاب النفوس الناضبة التى تمشى ضمائرها وراء حواسها ولا تسبقها ، فعالمها كله مشاهد محسوس وليس لها عالم مغيب مأمول ؛ وخلائقها تستمد القوة من خارجها وليس لها من قوة دافعة فى باطنها

لهذا لا نعجب من اقتران رياء الانجليز بقوة السليقة فى الشعر والدهاء

البديهى فى السياسة ، ولا نعجب من اقتران الصراحه الفرنسية بالفصاحة المزوقة التى لاعمق لها والجرى فى السياسة وراء « النظريات » التى تعوزها الخبرة العملية والاصالة الفطرية وتتعالى عن منطق الطبائع الفعال فى شؤون الامم على مافيه من غرارة ظاهرة وبساطة مضحكة

الكد والترف

ان فى الشغل الشاق من البهيمية بقدر مافى الترف والتهالك على الشهوات ، وما اقرب الكادح المستغرق فى عمل بدنه من المترف المخلد الى لذاته ! ! ذاك يحتمل التعب لانه جسد صرف وهذا يخلد الى الدعة واللذة لانه كذلك جسد صرف . فهما شبيهان على بعد مابينهما فى الظاهر . ولذلك يوجدان جنباً الى جنب فى المدنية المضمحلة . وكلاهما تنبئك حاله عن روح ميتة لامطالب لها وراء مطلب اللحم والدم

الدم المهدر

كان الملوك الاقدمون يهدرون دم من يغضبون عليه فلا يطالب أحد بحقه وهذه العادة باقيــة . فالعرف اليوم يهدر دم من يخرجون عليــه ولا يقرونه على عيوبه ، فاذا حقوقهم كلها مضيعة واذا الاساءة اليهم محللة لمن يشاء . وكانما الناس لاينتظرون الا الترخيص من العرف ليستجيزوا هذه الاساءة التى لاتجوز

المذبذبون

اذا كان الرجل خليطا من الشرف والنذالة لم يكد يصنع فى الحياة شيئا اذا خطر لان الخلقين يتجاذبانه من ناحيتيهما فيقف فى موضعه كالمشلول أو كمن شد الى الحبل بين متنازعين على قوة متقاربة وانما يندفع الى الاعمال الكبيرة

من غلب عليه الشرف أو غلبت عليه النذالة

السخر بالحياة

من الناس من يسخر بالحياة سخر الممعود بالمائدة . ومنهم من يسخر بها سخر المتخوم المكتظ بطعامها . فالاول يسخر بالحياة لانه لاحظ له فيها والآخر يسخر بها لانه أصاب منها جميع حظوظها . وربما كان الاول افطن الى العيوب وأسرع وقوعا على القبائح المتوارية من صاحبه لان رغبته في اظهار هذه العيوب والقبائح مقرونة بألم السخط والحرمان

خداع الاغبياء

ان خداع الاغبياء قد يحوج الخادع الى قسط كبير من الغباوة. والا لم يكن سبيل الى التفاهم ، ولم يتح له التسرب الى جهات الغفلة التي يؤتي المخدوع من قبلها وينفذ منها الى شكوكه وظنونه ومهاد ثقته وطمأنينته، فالاوربي مثلا لا يتأتى له خداع الزنجي كما يتأتى ذلك لزعيمه الجاهل ، لا لانه أضيق من ذلك الزعيم عقلا وأقصر حيلة . ولكن لانه أوسع منه عقلا وأرفع حيلة . وما يقال عن هذا الزعيم يقال عن زعماء الغوغاء في كل أمة فانهم أقدر على اقناع اتباعهم من أقوى المناطقة حجة وأصدقهم بيانا

العقل الصحيح

العقل الصحيح في الجسم الصحيح — كلمة حق — ولكن لها تعقيبا يجب أن يتبعها ويتممها ، وهو أن العقل الصحيح والعقل الممتاز ليسا بشيء واحد.

قد يكون العقل صحيحا ولكنه غير ممتاز وقد يكون ممتازا ولكنه غير صحيح . ولا بد للناس من تصحيح الاجسام والعقول ، ولا غنى لهم عن ثمار العقول الممتازة . فلنطلب كلا منهما في موضعه ولا نرجح الصحة

على الامتياز اذا كانت لاتغنينا عنه ولا تبلغ شأوه فى كل حال

الطاعة

الطاعة من دلائل النظام وفضائل الامم القوية ،والامم التى لاطاعة فيها لا يعرف أفرادها الواجب ولايلتزم أحد فيها حده . اذ الطاعة هى أن يعرف كل انسان حدا لنفسه يلتزمه وحدا لغيره يحترمه ، وحيث لاواجب ولا تبعة لايكون عمل شريف ولا فضيلة نبيلة . على أن فرقا بين الخوف والطاعة فان الخوف اضطرارى والطاعة اختيارية

الحقائق والشعر

ليس الشاعر مطالبا بالقضايا العلمية ولا بالدقة التاريخية ، ولكن هل هو مطالب بنقض القضايا المقررة ومسخ الاخبار الثابتة ؟ ليس من الضرورى أن يقول لنا الشاعر أن (٥ + ٥ يساوى ١٠) . ولكن هل من الضرورى أن يقول ان (٥ + ٥ يساوى ٨ مثلا او ١٢) ؟ واذا لم يذكر الشاعر فى قصيده ان نابليون ولد فى سنة ١٧٦٩ بجزيرة كورسيكا فليس من يلومه على هذا الاهمال ، ولكن هل لو ذكر انه ولد فى القرن الخامس الميلاد ببلاد اليابان أتراه كان يسلم من اللوم لانه ليس بالعالم الممحص للقضايا ولا بالمؤرخ المحقق للاخبار والاقدار ؟

يجب أن لايخالف الشاعر ظاهر الحقيقة الا ليكون كلامه اوفق لباطنها ، فاما ان يتخبط فى أقاويله يمينا وشمالا مخالفا ظاهر الحقيقة وباطنها ، مدابرا أحكام الحس والعقل والصواب لغيرغرض تستلزمه خدمة الحقائق النفسية ، أو تصوير الضمائر الخفية فذلك سخف ليس من الشعر ولا من العلم .

المذاهب الحديثة

اذا نجم للمذهب أعداء فقد ولدت فيه جرثومة الانتصار لانه لا يثير

العداوة إلا القوة ، والقوة تجذب وتدفع

طرق المزاحمة

طريقتان للمزاحمة فى الحياة : أن تجذب مزاحمك الى الوراء فلا تمكنه من سبقك ، وأن تجاوزه فى خطوه فتسبقه . والظاهر أن أولى الطريقتين هى الطريقة الغالبة فى بلاد الشرق

اليأس والأمل

اليأس الكبير خير من الامل الصغير ، ومن العجائب أن الامم الممعنة فى الضعف والاضمحلال لا يكثر بينها اليأس فيما تزاوله من شؤونها لان مطالبها صغيرة ، والوسائل الى هذه المطالب خسيسة لا تعجزها ، بل هي مما يعين عليه الضعف وفسولة الطبع

الزهد المريض

قد تمرض النفس فلا تشتهى شيئا فاذا شفيت طلبت غذاءها كما يمرض الجسد فيعاف الطعام فاذا اشتهاه كان ذلك من علامات الابلال

مزية الخطأ

ان الحيوانات لا تخطئ في أعمالها وانما الخطأ مزية الارتقاء — وكلما عظم الانسان كثر تعرضه للخطأ فى أعماله لانها تعظم وتتعـدد جوانبها وتتباعد أقيستها فيطرقها الزلل من حيث تداخلها أسباب الكمال

تنازع البقاء

رجلان دخلهما متساو وبيئتهما واحدة . أحدهما ينفقه مطالب الحياة فيربى أبناءه تربية حسنة ويروح عن نفسه ويروض جسمه وعقله ويلتذ بجمال الفنون والاذواق . والآخر غبى ثقيل الطبع يدخر ثلثى دخله ولا يفهم للرياضة والمطالب النفسية معنى — أى هذين يصرع صاحبه في

ميدان الحياة ؟ ؟

خطأ المذاهب

مصدر الخطأ فى مذاهب الاصلاح الاجتماعى أو الدينى أن دعاة هذه المذاهب يبنون مذاهبهم على النظر الى غرض الانسان من أعماله لا الى الدافع الذى يستاقه الى الاتيان بتلك الاعمال ، ولو فطنوا الى قوة سلطان الدوافع وان أغراض الانسان بنت دوافعه فى الحقيقة لاصلحوا كثيرا من أغلاطهم النظرية اولا لتفتوا على الاقل الى الجهة التى يجب الالتفات اليها والصدور عنها

الكتب

ان الكتب قماقم سليمانية لاتزال الارواح والوجدانات محبوسة فيها حتى تفك ارصادها فتنطلق من معقلها وتنشب فى قارئها فتستعيد حياتها فترة قصيرة فى نفسه . ولو كانت تلك الوجدانات والعواطف تجيش فى صدور الكتب كما كانت تجيش فى صدور أصحابها لاحرقت صفحاتها زفرات الوله والوجد ، ولسودت وجوهها لواعج الغم والعذاب ، ولاصم الاذان ما ينبعث من أحشائها من التأوه والانين ، وفتت الاكباد ما يرتفع من جلودها من النشيج والحنين ، بل لكان يفزع الناس منها فزعهم من أشباح الموتى. ويهون عليهم أن يمروا بساحة الوغى بعد مقتلة شنعاء ولا يمروا بباب مكتبة

لذة المطالعة

اننا نقدر الكتاب بما يوحيه لابما تدل عليه حروفه ومعانيه . وان القارىء وهو يتلو الكتاب قد يؤلف فى ذهنه كتابا غير الذى يقرأه ويفهم فيه من المعانى غير ماأراده مؤلفه ولكنه يحسب انه يقرأ كتاب المؤلف وينسب الفضل فيما يشعر به من اللذة اليه ، وربما تناول احدنا الكتاب

الثمين فى ساعة ضجرة ثم أقفله وهو يتأفف ، ويتناول الكتاب الغث وهو منشرح الخاطر مفتح نوافذ الذاكرة فيرتاح اليه وتتوارد على ذهنه الخواطر والطرف من كنوز الذاكرة المدفونة ، فيثنى على الكتاب وكاتبه وانما اللذة لذته لا لذة الكتاب أو صاحبه ، ومن ثم كان الكتاب لا تعرف قيمته البتة من قراءة واحدة . ووجب على الناقد أن يكرر قراءته فى حالى سآمته ونشاطه قبل أن يحكم عليه

واذكر انى أعوزتنى الكتب يوما فعمدت الى قائمة بعض المكاتب الافرنجية فجعلت اتصفحها بشوق وتأمل كأنها سفر مفعم بطلى الاخبار وحلو الفكاهة

وكنت اذا استوقفنى اسم كتاب فيها تمثل لى مصنفه وسنحت لى أراؤه ومواقفه فى حياته ولطائف ما يؤثر من نكاته واعماله . فكنت كانى عاشق قديم يراجع أسماء أحبابه فيقف عند كل اسم منها وقفة تسترسل فيها نفسه ويهيم خياله فى فجاج الماضى ، فيجمع تاريخ اشواقه فى لحظة ، ويستشعر لذة كل قبلة والتزامة ، وغبطة كل نظرة وابتسامة ، ولو أننا نحكم على الكتاب بما يولينا من المسرة والرضى لكان طابع تلك القائمة من أئمة الكتاب فى العالم

كلام الناس

من الناس من يعلم براءتك من وصمة ، فاذا سمع قوماً يصمونك بها صغرت فى عينه وهو أعلم بكذبهم وافترائهم عليك

المكابرة

المكابرة قرينة الضعف فى كل حال ، وهى تمويه لا حقيقة ، وحيلة لا قوة ، وتسليم لا مقاومة . وكل الفرق بين مكابرة وتسليم ، أن التسليم صريح

واضح ، ولكن المكابرة تسليم مراء يخاف ظهور ضعفه فلا يعترف بنفسه، مثلها كمثل الدخان الذى يغشيه المنهزم بينه وبين عدوه مدارة لهزيمته ، ومن عكف على أن يقول : لست ضعيفاً لست ضعيفا ، فانما يقول بلسان أفصح وأصدق : لست قوياً لست قوياً . وما رأيت انساناً يكابر فاحتجت بعدها الى دليل على صغر عقله وضعف نفسه

شارلى شابلن

عجبت احدى الصحف الفرنسية من الحفاوة التى قوبل بها شارلى شابلن فى لندن وقارنت بين فتور الجماهير قبل أصحاب الفضل عليها من المخترعين والمصلحين وبين شغفها بالمضحكين وتهليلها لهم واقبالها العظيم عليهم، وضربت الصحيفة مثلا بالطبيب فنسان صاحب لقاح التيفوس فقالت وهى تستغرب ما تقول : ترى لو كان هذا الطبيب بين الجموع المهللة لشارلى شابلن أما كانوا ينحونه عن الطريق ويزورون عنه ليقبلوا على بطلهم العزيز ؟ ؟

نقول ليس ذلك ببعيد . ولكن هل من الظلم حقا أن يظفر شارلى شابلن بذلك الاعجاب وأن يحرمه أمثال فنسان فى حياتهم ؟ ؛ لعمرى أن الانسان ليرى شيئاً من العدل فى هذه الاطوار التى تشاهد فى الجماهير ، فان الممثل الهزلى لن يظفر بعد موته بكثير ولا قليل من الاعجاب الذى هو حقيق به . فمن الانصاف أن يكافأ فى حياته هذه المكافأة على اضحاك الناس وتسرية همومهم وتنشيط عقولهم وقلوبهم وماهو بالعمل الحقير ولا القليل الشأن فى هذه الدنيا المفعمة بالشواغل والهموم ، والامر على خلاف ذلك مع فنسان وأمثاله فان ذكرهم لا ينسى بعد موتهم والاعجاب بهم يبقى زماناً وهم تراب فى لحودهم . وليس هذا الاعجاب بالعملة الزائفة وانما هو

عملة صحيحة مقومة يقبلها كل انسان جزاء لاعماله

وهناك ضرب من الاقتصاد الشعورى غير مقصود فى حركات الجماهير من هذا القبيل . فالطبيب فنسان يفيد بعلمه ولو لم يلق هتافاً وتهليلاً ، أماشارلى شابلن فهل تراه يسخو بمواهبه بغير الهتاف والتهليل ؟ ؟ أوهل يمكن التفريق بين الوقت الذى يضحك الناس فيه والوقت الذى يهللون له فيه ويهتفون ؟ ؟

﴿ تنبيه ﴾

الفصول المتقدمة هى التى استطعنا اثباتها فى هذه المجموعة . وليست هي كل ما أعددناه للنشر ولكنها كل ماوسعته الصحائف . وسنضم البقية مع ما يضاف اليها من الفصول الجديدة الى مجلد آخر . أما هذا المجلد فمن موضوعاته ما كتب هذه الأيام ومنها ما كتب منذ عشرة أعوام ، وقد رجعنا الى بعضها بشيء من التحوير والزيادة لنجعلها أقرب ما يمكن أن تكون من رأيناوقت ظهور الكتاب ، واستغنينا بذكر تواريخها عن ترتيبها على حسب مواعيد كتابتها . أما ترتيب الموضوعات فيغنينا عنه ما بينها من التناسب والاشتراك فى منحاها

وقعت فى الكتاب أغلاط مطبعية ننبه الى الآتى منها . وقد صحح بعضها أثناء الطبع فى بعض النسخ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٢	٩	وشج	وشيج
٣٤	٢٠	الادوية	الاودية
٣٧	٢٢	وظهر	وأظهر
٣٨	٣	السنسكريبية	السنسكريتية
٣٩	٥	تفرغت	تفرعت
٤٣	١٢	بخطوتها	يخطونها
٤٣	٢٢	شجاعته فروسيته	شجاعته وفروسيته
٤٧	٢٢	لاولاد العبد	لا ولا العبد
٥٦	٢١	العزلة الانفرد	العزلة والانفراد
٧٧	٧	امترجت	امتزجت
١٠٠	١٧	اذا	اذ
١٤٥	١٣	فبفصل	فبفضل
١٥٨	١٤	يظهر أقوى من هذا	هذه الجملة زائدة مكررة
١٦٤	١	لورج	لودج
١٩٨	١١	العامة فى ما	العامة ما
٢٠٥	٩	الملاءمة التى بينها	الملاءمة بينها
٢٠٥	٢٠	ولولا هذه الحياة	ولولا هذه الروح
٢٤٠	٣	(١)	هذا الرقم فى السطر الاول
٢٤٢	٢١و٢٢	يدفنونهم ، ورفاتهم	يدفنونهن ، ورفاتهن
٢٤٩	٣	شركة	شرك

